الخليج العربي

جان جاك بيريبي

الخليج العربي

تعريب

نجدة هاجر
دبلوم في العلوم السياسية

سعيد الغز
مجاز في الجغرافيا

منشورات
المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر - بيروت

الطبعة الاولى
كانون الاول (ديسمبر) ١٩٥٩

توطئة

من بين المؤلفات القيّمة الكثيرة التي صدرت مؤخراً باللغة الفرنسية عن الشرق الاوسط كتابٌ يحمل اسم «الخليج الفارسي» من تأليف الكاتب الفرنسي جان جاك بيريبي الذي يعتبر علماً من الأعلام الفرنسيين المختصين بالشؤون الشرقية والعربية منها بصورة خاصة .. وليس صدور مثل هذا الكتاب في هذا العصر الذي يسمّيه الخبراء عن حق عصر البترول بمُستَغربٍ ، لأن الخليج اليوم منطقةٌ سُلطتْ عليها الانوار كلها ، انوارُ الساسة ورجال الاعمال بوصفه اضخم خزان للاحتياطي البترولي في العالم . بل المستغرَبُ المستغرَبُ ، والمؤلم المؤلم ، الا يبادر أيٌّ من الكتّاب العرب الى تأليف كتابٍ موضوعي يُرضي العلمَ والمنطق عن هذه البقعة الحساسة من الوطن العربي ...

لذلك لم نكد نتلقفُ هذا الكتابَ ونطّلعُ على محتوياته القيمة التي يجب ان تكون في متناول كل قارىء عربي حتى عقدنا العزم على تعريبه لنؤدّي الواجب الذي يفرضه علينا الضمير القومي والمسؤولية الفكرية . وها نحن بعد ان فرغنا من هذه المهمة التي ندبنا أنفسنا لها نقدم للقراء الكرام نتاجنا تاركين لهم ان يحكموا بتجرد وانصاف لنا إن أحسنّا وعلينا إن حصلت الأساءة .

●

يلاحظ المراقب اول ما يلاحظ أننا قد غيّرنا اسم الكتاب فهو في

نصه الاصلي «الخليج الفارسي» ونحن قد استبدلنا التسمية بكلمة «الخليج العربي» . وعلى المؤلف الفرنسي ان يعذرنا في ذلك لأننا بهذا العمل ننسجم مع الحقيقة التي لا مفرّ من نكرانها ، والتـــأريخ الذي لا سبيل الى طمسه ، ونستجيب للشعور القومي الذي لا قيمة بدونه لأيّ وعي ثقافي.

وصاحب الكتاب نفسه يشير صراحة في الجزء الثـــاني من الفصل الخامس عشر الى ان الصبغة العربية للخليج قد قررت سنة ٦٣٤ ميلادية بعد احتلال الفاتحين العرب لمدينــة البصرة على شط العرب وتوغلهم في بلاد فارس . وأبلغ دليل يؤكد الشخصية العربية للخليج وجود أقليات عربية لا ُيستهان بها حتى اليوم على الساحل الايراني الذي يمتـــد على الجنوب الشرقي قرب مضيق هرمز الى الشمال الغربي في المحمرة والاهواز .. ولعل التصاق الصفة الفارسية بالخليج وشيوعها لدى الغربيين ناشئان عما توارثوه عن الاغريق الذين لم يتمكنوا من التعرف الا الى الشاطىء الفارسي من الخليج وذلك كل ما استطاع ان يكتشفه الاميرال «نيارك» قـائد الاسطول المقدوني في حملة الاسكندر الكبير على الشرق اثناء عودته من الهند ... واذا كان ابناء فارس من ميديين وساسانيين قد استطاعوا قبل المسيح من عهد كورش وبعده في فترات متقطعة ان يبسطوا سيادتهم على البصرة والبحرين ومسقط هذه المراكز الواقعة على الشاطىء العربي ، فإن ذلك كان عملاً موقتاً لم يدم طويلاً ولم ينجم عنـــه اي تغيير اساسي للتركيب الاجتماعي في القسم العربي ، بعكس مـــا حصل تماماً في القسم الفارسي عندما تيسر للعرب ان يندفعوا تحت لواء الدين الى مـا وراء جبال بختياري في الاراضي الأعجمية ...

ومهما يكن من امر فإن على ايران الحديثة التي ورثت امجاد فارس اذا ارادت ان تحرص على صلات الجوار والاخوة الروحية مع الدول العربية وتوطد فعلاً علاقاتٍ متينة بها ؛ عليها ان تكف عن محـاولة «تفريس» الخليج وتصرف النظر نهائياً عن ضمّ البحرين اليها ؛ لا سيما وان هذا

العمل الشكلي الذي قامت به سنة ١٩٥٨ حيث أعلنت دستورياً انضمام هذه الجزر العربية اليها ، لم يغير شيئاً من الواقع ولم يعد على رعاياها هناك الا بالضرر الجسيم كما اورد المؤلف في الجزء الاخـــير من الفصل الثاني عشر ...

●

يتألف هذا الكتاب الذي بين يديك ايها القارىء العزيز من ستة عشر فصلاً موزعة على ثلاثة اقسام رئيسية .. وكل فصل من هـــذه الفصول اذا قرأته على حده وجدته أهم من سواه لما يتضمنه من عرض علمي مدعوم بالحجة والرقم ، وملحوظات تتصف بالدقة والصراحة وبعد النظر . ولن تلمس القيمة الفعلية الحقيقية للكتاب ، الا اذا قرأته كله وتمثلته ؛ عندئذ تدرك كم هي واسعة مديدة تلك الآفاق التي يفتحهـا امام ناظريك .. انه يعطيك صورة واضحة صادقة لا لبس فيهـــا ولا غموض ، خالية من البهرجة والتزويق والتملق للخليج العربي واوضاعه الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في الحاضر ، دون ان ينسى الماضي وما يمكن ان نأول اليه في المستقبل بوجهيه القريب والبعيد ... ونحن العرب في نهضتنا القومية الحالية في أمسّ الحاجة الى مثل هذه الصورة لفرط ما كثرت الصور المضللة الرخيصة التي خدعت الرأي العام وصرفته عن الحقائق الجوهرية .

●

في القسم الاول من الكتاب الذي توج باسم « بـلاد الجن والذهب الأسود » يتحدث المؤلف عن التكوين الجيولوجي لشواطىء الخليج الاخضر الذي يمتد حسب رأيه كالاصبع الى قلب الشرق الاوسط ؛ فيوضح كيف انحسر البحر وكونت « المياه المقدسة » مياه ، دجلة والفرات ، بما تحمل من طمي البرّ الجديد خلال ثلاثين قرناً بمعدل ثلاثين متراً كل عـام ... ثم ينتقل الى ما تثير مياه الخليج الزمردية التي لا مثيل لها بروعتها الاخاذة

في العالمين ، من خواطر في اذهان المفكرين فيتذكرُ الدورَ الخطير الذي لعبته منذ ايام « سومر » «وأكد »كطريق تصل الغرب بالهند والشرق الاقصى حيث الحرير والتوابل والبخور . وبعد ان يفيض في ذلـــك يتناول بالدرس والتحليل الاحوال البشرية على شواطىء الخليج في ايران والعراق والكويت والاحساء والبحرين مبيناً كيف أرغمت الصحراء الجدباء البخيلة هؤلاء السكان عبر العصور الغابرة على ان يكونوا بدواً رحلاً على ظهر المياه . وفي هذا الفصل يعدد ما قام به قراصنة الخليج من أعمـــال أرعبت كل أجنبي دخيل ذاكراً المعارك الرهيبة التي دارت بين القواسميين والانجليز الى ان تم توقيع الهدنة بين بريطانية ومشايـخ الامارات على ساحل عُمان . ثم يقارن بين هؤلاء واحفادهم اليوم الذين يعملون في المؤسسات البترولية بمهارة لا تقل عن مهاره عمال « الجنرال موتورز ». ومن ذلك كله يخلص الى ان هذه الرقعة الجغرافية المعروفة بالخليج العربي التي أدرك الغرب اهميتها الستراتيجية والاقتصادية منذ قام الربان البندقي ماركو بولو برحلته الطريفة الممتعة في بداية عصر النهضة الاوروبيـة ، والتي تحدق بها الاطماع الدولية من كل حدب وصوب لما تختزنـه في جوفها من ثروات لا تقدر ! « انما هي وطن واحد ومجموعة اوطان في الوقت ذاته ... لقد ورث هذا الموطن البحري تركة ثقيـلة من مصائب البؤس والشقاء والتجزئـة لكثرة ما رأى من مجتاحـين زالوا وانقرضوا ولفرط ما خاض من معارك . وسيقوى مع الزمن بفضل المشروعات الانشائية ان يزيل عن كاهله هـذه التركة الثقيلة . ان ابناءه قد الفوا حياتهم . وهم يحبون الحيـاة القاسية التي يحيونها ويعشقونها كما يعشق المدمنُ المخدر الذي يهلكه او العشيق المرأة التي تنهكه ... »

●

وفي القسم الثاني الذي أعطاه الثري الأشهر علي بابا اسمه المحبب يستهلُ المؤلف البحث بالحديث عن ايران التي كانت خلال الحرب العالمية الثانية جسراً

للنصر نقل عليه الحلفاء الاعتدة والمؤن الى الاتحـاد السوفياتي إثر هجوم النازيين فيحلل اوضاعها السياسية والاقتصادية والاجتماعية منـذ قيام رضا شاه بهلوي ليعلل فيما بعد اسباب الأزمة العنيفة التي اجتاحتها في عهد الدكتور مصدق عندما تجرأ على التـاج البريطـاني وأمم الشركة الانجليزية – الايرانية .

ويوضح كيف انتهى هـذا الصراع الطريف الذي شغل العالم بأسره فترة ما بتأليف الاتحاد البترولي من الشركات الكبرى في انجلترة والولايات المتحدة الاميركية وهولنده وفرنسة . وفي هذه المناسبة يكشف الستار عن الدور الذي لعبته نظارة الخارجية الاميركية حتى تمكنت من ان تؤمن للشركات الاميركية حصة مقدارها اربعون بالمئة من البترول الايراني الذي كان كله قبل ذلك محتكراً من قبل البريطانيين ...

وبعد ان يفرغ المؤلـف من الحديث عن ايران ينتقل الى مشكلـة « المحمرة العربية الخاضعة للسلطة الايرانية فيتناولها بالدرس المفصل شارحاً كيف نشأ النزاع بين الشيخ خزعل امير المحمرة وشاه ايران السابـق وكيف انتزعت طهران هـذه الأرض الثمينة من جسم الوطن العربي . وهو في هذا الفصل يحلق ايما تحليق عندما يصف القصور الثلاثة التي خلفها امير المحمرة على شط العرب وراءه ، مصوراً بؤس الصبية الصغار الذين يلعبون على الشاطىء دون ان يكون لهم نصيب في الثروة البترولية التي تنبع من ارضهم هم دون سواهم . واذا استمعت اليه يعلـقُ على هذا الغبن أدركت فداحة المأساة فهو يقول : « انهم يجهلون قصة الامير الأبي صاحب القصر الذي انتزعـه رضاه شاه بهلوي من كرسيه وأرضه وأمارته . واذا علموا بذلك وبما فعلته حكوسة طهران بأمارتهم واميرهم فإنهم لا يكترثون لأنهم يفكرون في اشياء اخرى تتعلق بهـم مباشرة . ان وجود البترول الذي تقوم عليه الحضارة الحديثة او عدمه ، وجميـع الخطط الستراتيجية المرسومة للسيطرة عليه ، ان كل ذلك لا يهمهم في

شيء . ومطلبهم الوحيد هو البقاء وتأمين الاستمرار في العيش هنا ، في هذا المكان ، مع الاعشاب التي بدأت تطغى على ما تبقى من جدران القصر وفسيفسائه ... »

وعندما يصل المؤلف في وصفه وتعليقاته الى الكويت يجمعها كلها في فصلٍ خاصٍ تحت عنوان القديم والحديث او رواية صادقة من القرن العشرين ، يقابل فيه بين الكويت قبل ان تفجر البترول والكويت العصرية حيث الطرقات المعبدة الفسيحة والقصور الرائعة والحمامات الحديثة والمدارس المنظمة والمستشفيات النظيفة والسيارات اللماعة وتعقيباً على ذلك يقول : لو ان السندباد البحري الذي انطلق من البصرة ايام العباسيين بعث حياً في عصرنا هذا وقدر له ان يكحل عينيه بعجائب الكويت الحديثة في جونها الرائع بمياهها الفيروزية لعرك جفنيه وفغر فاه مشدوهاً بما يرى ، ولطلب ان تزاد قصة الف ليلة وليلة لتروى في الليلة الثانية بعد الالف حكاية الكويت التي تحوي اضخم احتياطي بترولي في العالم !.

وبخصوص الحالة السياسية هناك يؤكد المؤلف ان أمير الكويت كحاكم مسلم مطلق الصلاحية والسلطة ، يصرف الأمور في الأمارة السعيدة الصغيرة وفقاً لمبادىء وتقاليد ورثها عن الاجداد . واذا سألت : « كم من الزمن يمكن ان يدوم هذا الحكم » أجابك الأمير الشيخ: « ان المهم هنا في الشرق الاوسط ان يكون المرء محبوباً . . . »ان المؤلف بوصفه كاتباً غربياً اجنبياً لم يُحابِ في هذا المضمار بل كان صريحاً وقال على الرغم من المشروعات الانشائية الاصلاحية الجبارة التي نفذت ونعم بها المواطن الكويتي الذي كان بائساً لسنوات خلت ، وعلى الرغم من ان الآفات الثلاث الفقر والمرض والجهل قد اوشكت الحكومة ان تقضي عليها قضاء مبرماً هناك حيث نفتش عبثاً عن متسولٍ يستجدي ، نجدُ جرثومة الثورة تنمو وتتكاثر اكثر من أي مكان آخر لأن الرجل الشرقي او العربي بصورة خاصة يفكر بعد ان يشبع

ويملأ بطنه ويتفلسف اثناء هضم ما تناول من طعام . . . »

اثر الوصف الدقيق والتحليل العلمي لأحوال الكويت ينتقل الكاتب بنا الى الاحساء التي غفل عنها المنقبون الجيولوجيون البريطـــانيون وفي هذا الفصل يقدم لنا بيريبي صفحة مجهولة من التاريخ العربي يبرز فيهـــا النزاع الذي كانت تدور رحـــاه سراً بين لورانس وسان جون فيلبي الملقب بعد اعتناقه الاسلام بعبدالله فيلبي ، ويكشفُ لنا كيف استطاع الاميركيون بواسطة فيلبي الذي تخلى عن اخوانـــه الانجليز ان ينتزعوا امتياز البترول من العاهل السابق عبد العزيز بن سعود مؤسس المملكة العربية السعودية ، ثم يشن بعد ذلك حملة مركزة على الولايات المتحدة الاميركية وشركة الارامكو لأنهما تسندان الرجعية في المملكة من اجل استغلال خيراتها ، ولا يتوانى في هذا المجال عن ان ينبه المسؤولين الى ان الاختلال الناشيء عن المتناقضات التي احدثها الانقلاب البترولي قابل للانفجار في اية لحظة ويقول بهذا الصدد : « ان ما يخيف في الانقلاب الاقتصادي الاجتماعي الذي يحدثه البترول في البلاد البدائية انمـــا هو سرعته الساحقة التي غالباً ما ينجم عنها الاختلال وفقدان التوازن في شتى الميادين . ومن العسير بل قد يكون من المستحيل تلافي ذلك وتجنبه . فهل من الممكن بعد اليوم الملاءمة بين الحاجـات الحديثـة التي صارت ضرورية والامكانات الحقيقية ، بين العقلية القبلية المتعصبة والنزعة الفردية الجامحة التي تولدت لدى الطبقة العاملة في المؤسسات البترولية ، بين ثروة ضخمة لا تنفـك تتضخم لدى افراد قلائل وفقر مدقـع ينشر لواءه على السواد الاعظم من الشعب ؟ » .

⊛

وفي الفصل المتعلق بالبحرين التي شبهها المؤلف بلؤلؤة البحر الزمردي يُبدع بيريبي ايما ابداع حيث يصف الجو الطبيعي والوضـع الاجتماعي والحالة الاقتصادية في هذه الجزر البديعة التي فجرت فيها العنـاية الميـاه

العذبة من البحر ذاته ، وصفاً دقيقاً لامثيل له دون ان يهمل شيئــاً . ولعل وصفه لموسم الغوص الكبير الذي يخرج فيــه الغطاسون جماعات جماعات لاستخراج اللآلىء من قعر البحار أطرف ما وصل الينافيهذا الموضوع. وقصة البحّار «عناد» واللؤلؤة السوداء تستحق ان تروى وتتناقلهـا الألسن في كل مكان وزمان ...

ومن ثم في الفصل الثالث عشر يتحدث لنا صاحب الكتــاب عن الهلال غير الخصيب الممتد من شبه جزيرة قطر ، التي تندفع اندفاعاً في ميدان التقدم ، الى عمان . وهنا يسهب في شرح اوضاع الامــارات او شاطىء القراصنة كما كان يسمى سابقاً ، من ابو ظبي ودبي ورأس الخيمة والشارقة الى عمان وام القيوين وفجيرة . ويغتنم هذه الفرصة ليشرح لنا ايضاً النزاع حول واحة البريمي بين المملكـة السعودية والامــارات المجاورة او على الاصح بين الشركة الاميركية والارامكو والشركة البريطانية شركة بترول العراق . وهو في سرده وتحليله لهذا النزاع متجرد فعلاً ، يعرض دون ان يتأثر بأحد الاسباب الخفية لكل ما حدث ويحدث في شبه الجزيرة والخليج من صراع بين الانجليز والاميركيين ...

واخيراً في القسم الثالث والنهائي من الكتاب يقدم لنا المؤلف دراسة موضوعية شاملة لسلطنة مسقط وعُمان تتناول مناخها وتكوينها الجيولوجي في سهل بطينا والجبل الاخضر ، واوضاعهـا السياسية والاقتصـادية والاجتماعية منذ ايام الغزو البرتغالي حتى نشوب ثورة عُمـان على يـدي الامام غالب الحارثي ، وهو في هذا القسم مؤرخ معاصر قلّ له مثيل.. وقد ملأ بحثه هذا فراغاً كان يُفرض في الكتّاب السياسيين العرب ان يملأوه ...

●

تلك هي لمحة خاطفة عن هذا الكتاب الذي ألفه لنا جان جـاك بيريبي عن الخليج العربي . ويستطيع القــارىء بعد تلاوة هذه الخلاصة

العاجلة ان يتأكد من ان تعريبنا اياه كان ضرورة لا بد منها . وقراءته ايضاً من قبل كل مواطن عربي حاجة قصوى لا يستغنى عنها ليتزود بأوفر المعلومات وأدقها عن اخطر بقعة استراتيجية في الوطن العربي واثمن مورد اقتصادي عرفه العرب عبر تاريخهم المديد ... ان الخليج العربي كما يقول المؤلف في مقدمته منطقة تقاسي كثيراً من الاطماع بسبب الكنز الدفين في جوفها . وهذا الاحتياطي البترولي الثمين الذي يستثمر الآن ، بعد مدة طالت ام قصرت لا بد من ان ينضب . واغلب الظن ان هذه المدة لن تتخطى مطلقاً مئة عام اذا ظل الانتاج على مستواه الحالي ... فهل فكر المسؤولون واولو الامر في تلك الساعة المشؤومة السوداء التي ستتوقف فيها البترول .؟

ان سكان الخليج العربي اليوم يناهزون المليون ونصف المليون . وبعد قرن كامل سيكون عددهم على الاقل وفقاً لمبدأ مالتوس الاقتصادي الذي يقول بتضاعف السكان كل خمسة وعشرين عاماً نحواً من ستة عشر مليونا من البشر . فكيف يستطيع هؤلاء العيش في المستوى الذي تعودوه لدى انقطاع البترول في المستقبل ؟! ان هذه المشكلة الاقتصادية والاجتماعية واقعة لا محالة . واوجب الواجبات على رجال الحكم والفكر ان يتدبروا الحل لها منذ الآن .. وهذا الحل لا يمكن الوصول اليه الا بنشر الوعي البترولي الذي توخيناه من تعريب هذا الكتاب ...

فليقرأ العرب ، خاصة في الخليج هذا الكتاب بإمعان

وليأخذوا منذ الآن للمستقبل أهبته وعدته

والله لا يضيع اجر من احسن عملا

المعربان

مقدمة المؤلف

منذ مدة الفتُ كتاباً عن شبه الجزيرة العربية ؛ وها أنذا اضع الآن بين ايدي القراء كتاباً آخر عن « الخليج العربي » . فهـــل أُعتَبر بسبب ذلك شخصاً طريفاً فريداً محبَّباً من قبل مواطنيّ ؟!

لا يجوز للفرنسيين يوم يتخلصون من الميل المشؤوم الى الاستعمار ، ان يُقفلوا على انفسهم حدود الوطن ؛ انّ عليهم ان يتذكروا دائماً بأن مصير بلدهم الجميل يدعوهم باستمرار الى التفكير في الشرق ، وذلك ليس من اجل الاستعمار او السيطرة او الاحتلال ، بل للتثقيف والتحرير والقيم الروحية ...

لا يقتصر هذا العالم الواسع فقط على هذه الزاوية الرائعة حيث تسنّى لي ان أعيش والتي تُسمّى فرنسة ، ولا يَقتصُر ايضاً على اوروبة الصغيرة العائمة على الثروات ، الراضية عن نفسها ، او على اميركة التي تطمرهـــا الخيرات الى درجة الاكتفاء .

انني استعيد في ذاكرتي بعض المناطق من الشرق ، ولا ازال اذوب اعجاباً امام منظر مرج من المروج او ساقية رقراقة منسابة بين الحصى . ان هذه النعم التي جادت بها العناية على الانسان هنا هي معجزات هناك ولا وجود لها إلا نادراً جداً في تلك البلدان التي ندين لها بحضارتنا وثقافتنا... ان هذا ينطبق خاصة على شواطىء هذا الخليج العربي الذي كان في العصور الغابرة مهد الفينيقيين والسومريين والفرس ، حيث تغسل مياهه شواطىء بلاد ما بين النهرين وشبه الجزيرة العربية وبلاد فارس وحيث تصب أيضاً

« المياه المقدسة » مياه دجلة والفرات . ان ابسط مظاهر الحياة اليومية بالنسبة لسكان هذه الاراضي البخيلة القاحلة الجافة تُعتبر من الاشيـاء الثمينة النادرة ، كالخبز والماء القراح ... و « الوجود » ليس له مشكلاتٌ هناك بل المهم ان تستطيع الاستمرار في الحياة ...

لقد أراد التاريخ من هذا الوطن البحري ان يكون طريقاً حتمياً ومعقلاً لأكبر المغامرات وأخطرها ، ومستودعاً لمختلف الثروات منذ فجر التاريخ حتى يومنا هذا . ومع ذلك كان سكانه مع الاسف الشديد أكثر سكان الارض فقراً وبؤساً وشقاء . كان حظهم من الحياة اليومية المغامرة فحسب ، تلك المغامرة التي صورتها لنا مخيلة الرواة الحاذقين في قصص الف ليلة وليلة مع مسحة من الجمال مشوبة بالقسوة الواقعية المثيرة .

والآن بعد ان اكتشفت التكنولوجيا اعظم ثروة يتصورها عقل في جوف هذا الخليج ، خليج الاساطير ، الذي كان يوماً ما في عهد خلفاء بغداد بحيرة عباسية والذي تحول في العصر الحديث الى بحيرة بريطانية ألا يحقّ لنا ان ندعو هذه البقة من العالم خزان البترول العالمي ?!..

ان الارقام التي بين ايدينا تؤيد ذلك وتفرض علينا هذه التسمية فرضاً .. لقد أعطت شواطىء الخليج العربي سنة ١٩٥٨ عشرين بالمئة من انتاج البترول في العالم او ما يمثّل ستين بالمئة من الكميات البترولية المتبادلة بين انحاء العالم . ويجب ان تعلم ما هو اهم من ذلك ، ان هذه المنطقة العربية تحوي ثمانين بالمئة من الاحتياطي البترولي العالمي . وهذا الاحتياطي يكفي مدة مئة وسبع عشرة سنة مقابل سبع عشرة سنة لاحتياطي الاتحاد السوفياتي واثنتي عشرة سنة لاحتياطي اميركا الشمالية . ويجب الا ننسى ايضاً ان بلدان حلف الاطلسي تؤمن تسعة اعشار حاجتها البترولية من الخليج العربي كما ان الولايات المتحدة الاميركية تتزوّد منهُ ايضاً بنسبة عالية . . .

انني استهدف من هذا الكتاب الذي عانيت في تأليفه ما عانيت

ان اعرض بتجرد لابناء البلدان المتقدمة الغنية في اوروبة واميركا احوال الخليج العربي واوضاعه ليتعرفوا عن كثب الى هذه المنطقة التي يدينون لها في اثرائهم وتقدمهم .

ان هذه الاراضي القاحلة التي لا تملك سوى البترول تقاسي كثيراً من الاطماع الجامحة التي يثيرها الكنز الدفين في جوفها . ولا يجوز مطلقاً في عصرنا هذا ان يبقى اي امرىء جاهلاً هذه الاطماع التي تهدد العالم وأمنه من حين الى آخر .

ومن اجل نشر هذا الوعي البترولي ألـّفت هذا الكتاب واني لأشكر في هذه المناسبة لكل من ساعدني في مهمتي هذه جهده وعونه لا سيما السيد بيير روندو مدير مركز الدراسات العليا للادارة الاسلامية وغيره من الخبراء في مركز المعلومات المتعلق بالشرق الاوسط ..

جان جاك بيربي

في بلاد الجن والذهب الأسود

بُحَيرةٌ داخِليّةَ

« انك دوماً تحن الى البحر ايها الرجل الحر »

(شارل بودلــير)

منذ تلك الايام السحيقة التي جابتْ فيها جيوشُ الاسكندر المكدوني تلك الشواطىء ، تعيشُ هذه البحيرة الصغيرة ، شبه المقفلة التي نسميها الخليج العربي (الفارسي سابقاً) دوراً مجيــداً في التاريخ ... في كل وقت ودون شك ، كانت الخلجان والمضايق التي تربط طرقات التجارة الدولية بعضها ببعض موضع تنافس عنيد بين الدول الكبرى في كل حقبة من حقب الزمان ؛ ولكن ما من خليج او مضيق أثار من الاطـــماع والاخيلة والتصورات بقدر ما أثار ويثير هذا الخليج الذي يعدو كأنــه الاصبع المشير الى قلب الشرق الاوسط ...

ان الاحلام والمعارك غالية معــاً على قلب الانسان ، والتاريخ يحفظ دائماً اسماء كبار الشعراء والقواد المحاربين . وقد دفعت مياه هذا الخليج التي تتميز باخضرارها من مياه البحار في المناطق الحـــارة والمعروفة بزرقتها ، كثيرين الى التأمل والاقتتال ممــا أودى بحياة الكثيرين حتى فاق عدد الهالكين عدد من كُتبت لهم الحياة . وكثيراً ما ردّدت هذه الشواطىء أصداء وقع حوافر الخيـــل من أيام الاسكندر الى المغول ، كما شغلت فكر نابوليون وحملته على ان يرسم المشروعات البعيدة المدى ...

لقد شهدت هـــذه الشواطيء ولادة وانقراض كثير من الحضارات والامبراطوريات والفلسفات والمذاهب والأديان ، بما لم يتيسر لغيرها من المناطق في العالمين القديم والحديث .

وبعد سومر ، وأكد وبابل وعيلام والازدهار الفارسي ، كان الخليج مُنْطَلَقَ الاسلام في الشرق وبحيرة داخلية لكبار الخلفاء العباسيين ، وحتى مجيء الغربيين الى الشرق واحتلال الهند في العصر الحديث ظل الخليج طريقاً طبيعياً للثروات الاسطورية والعجائب والمعجزات الكبرى : طريق البخور والحرير ، طريق التوابل عندما كانت هـــذه أندرَ من الذهب والماس . وفي عصر الآلة الجبـــارة اصبحت اخيراً مياهه الهادئة التي زُرعت هنا وهناك أشرعة بيضاء نقية طريقَ البترول ... على هذه المياه الفاترة الحالمة تهادى مركب السندباد البحري ... ومن يجهله ؟ ليحمله الى مغامرات طريفة في الآفاق ... وعلى هذه الشواطيء كان الصيادون السّذج يعتقون الجنّ الاشرار من الجرار المحكمة الاقفـال ... وفي هذه الاعماق كان يغوص الرجال السود متلمسين على غير هدى في قاع البحر اللؤلؤ الاسطوري الأسود . وكثيراً ما انفجرت اصداغهم من هول الضغط عليها . وقد اتاحت قصصهم الغريبة التي تثير الشفقة الى الاميرة شهرزاد ذات الجمال الأخاذ ، التي كانت تسكت عن الكلام المباح عندما يدركها الصباح ، بأن تؤخر أجلها المحتوم الذي وعدها به زوجها العظيم الف ليلةٍ وليلة ...

وفي الاراضي الخصبة في القسم الشمالي من الخليج تنساب انهار غزيرة دافقة حاملة معها الطمي والحيـــاة . وعلى جانبيها تنتصب الى العلاء اشجار النخيل الباسقة وعلى اغصانهـــا التمر المذهب المقوي ذو الطعم اللذيذ . وفيما وراء ذلك صحراء وفيافٍ من الرمال والحصى .

والخليج الذي يشبه الى حد بعيد بحيرة بـدون عمق انما هو امتداد للانهر القديمة الكبيرة دجلة والفرات وقارون . وقديماً كانت هذه الانهـــر

تغذي الخليج بمياهها كل واحـد منها على حدة . غير ان ما حملَتْهُ من رواسب مع مياهها حسر مياه البحر عن الشاطىء بمعدل ثلاثة كيلومترات كل قرن ... وكان ان التقتْ هذه الانهُر الثلاثة مع بعضها بعيداً عن الخليج مشكّلةً لساناً مائياً زاهياً سُمي : شاطىء العـــرب او شط العرب ...

وحتى مَخرج الخليج عند مضيق هرمز يشعر المرء بأنه مـا زال في مياه البحر المالحة رعشة الانهر المقدسة . وشط العرب هو المنفذ الكبير الوحيد للشرق العربي نحو الهند وجنوبي شرقي آسية وبلدان الرياح الموسمية والمزروعات الاستوائية ...

ان البحر ما زال ثابت الجنان يرى ثروات العالم الطائلة الموقتة تمرّ على سطحه دون ان ينقبض ، وألوانه الزاهية الخالدة الذكرى لم تتغير ولم يلحقها التلف على الرغم من عاديات الزمن .. وهذه التموجات مـن أخضر لماعٍ زاهٍ جميل الى ازرق فاتن أخاذ تجعله جوهرة لا مثيل لها في العالمين وبحراً يفوق البحار جميعها روعة وجمالاً ... لذلك اطلق عليـه عشاقه منذ القدم اسم بحر الزمرد . وهو أيضاً بحر الزفير والفـيروز واللازورد وجميع التحف الثمينة التي تأخذ بمجامع القلوب .

بؤس وثراء

ان هذا الخليج ذو شواطىء كلسية ليس لها مثيل في الفقر والقحط.. ولا شيء في العالم يظهر اكثر بؤساً .. والذي يبعثُ على الدهشة ويثير الفكر حقاً ان سكان هذه المنطقة الجدباء تمسّكوا بأرضهم وتشبثوا بها كما يتشبث الغريق بخشبة الخلاص في عرض البحر ...

ولكن من يدري ؟!

ربما كان الوحيُ قد هبطَ عليهم في سالف العصور وطلب منهم ان ينتظروا القرن العشرين لأنه في جوف هذه الصحارى المحرقة القاحـلة

حيث يرصّع الذهب الاصفر الزمرّد ، تتجمعُ اضخمُ كنوز عرفها الانسان في أي زمانٍ ومكانٍ بمليارات الاطنان من الذهب الاسود لتفوق حتى الثروات التي تصوّرها علاءُ الدين ...

ان البترول يعني الثروة ، والثروة تعني القوة . ومن روائع القدر المتناقضة ان اربعة اخماس البترول العالمي وُجدت حول هذا الخليج في هذه البلاد الفقيرة المعدمة التعيسة كأن هذا العمل من قبل العناية الالهية جاء يعوض عن شيء مما لحقها من بؤس وشقاء ..

وهكذا تلقى هؤلاء البائسون المكابرون الذين يقطنون منطقة لا يُحتمل العيش فيها ، نعمَ القدرة الالهية أخيراً بعد ان عبست في وجوههم طويلاً ...

وهذا الازدهار البترولي الذي لا يجاريه أيّ ازدهار في الماضي والحاضر ، يرتبط مع ذلك طبيعياً بحُقب اخرى من التاريخ ، حقبٍ طويلة أو قصيرة جعلتْ فيها تجارة المواد النادرة الثمينة الطريفة هذا الخليج الأخضر ملتقى طرق التجارة الدولية ..

وفي ذلك الوقت كما هي الحال في العصر الحاضر ، قامت مراكز حضارية هامة وشيدتْ مدنُ يؤمّها التجار والبحارة من كل اطراف العالم حيث يجدُ كل منهم ما يشتهي ويرغب . وماركو بولو سلفُ الرحالين الكبار حمل من هناك قصصاً اسطورية طالما هزّت وحرّكت اطماع التجار الجشعين الذين كانوا ينهضون ذات صباح فيملأون سفنهم الشراعية بما عندهم من مواد صالحة للمقايضة ويولون وجوههم ، وسراب الثروة يداعب جنونهم ، شطر الخليج ، الخليج العربي ، باب الشرق السحري . واذا سلموا ولم يصابوا بالحمّى والزحار كانوا يعودون اغنياء جداً جداً !

ثم تحوّلت طرق التجارة نحو شواطىء دافئة اخرى . فاقتتل ارباب المصالح من اجلها . واذا بمنابع الثروة تنضب فجأة ؛ فذهب الاثرياء الى غير رجعة وبقي الفقراء لأنه ينقصهم الخيال ؛ ثم أتى من هم أفقر

منهم . فتطاحنوا على ما لا يذكر في سبيل البقاء والوجود . وخلال كل تلك المعارك من اجل البقاء بزغت شمس مراكز تجارية حديثة حول الخليج الأخضر ودبّت الحياة من جديد وبدأت حلقة اخرى ..

ان « هرمز » السابقة الزاهرة لم تعد سوى خراب يباب . اما « تيريدون » و « تيلوس » فقد انبعثت الحياة فيها من جديد تحت اسم « البصرة » و « البحرين » . و « الخرج » الجزيرة الصغيرة الخربة المنسية رجعت اليها الحياة ودبّ فيها النشاط من جديد بعد ان اصبحت مرفأً بترولياً ضخماً مشهوراً في انحاء العالم . واما مدينة « سوز » الجميلة عاصمة مملكة « عيلام » القديمة فلم يبق منها الا خرائب تستطيع ان تزورها اذا انطلقت من عبادان مدينة البترول المبهمة التي تظلّل تحت مداخنها الفولاذية اكبر مصفاة بترول عرفها العالم ...

لقد دار هذا الدولاب دورته مراتٍ متعددة خلال العصور التاريخية المعروفة قديماً . ولذلك علينا ان نعترف بتواضع نتيجة لذلك بأن الحقبة المعاصرة ، عصر البترول ، ما هي الا مرحلة من مراحل الحلقة الصاعدة . والعجيب الذي حير العقول هو كيف استمر هذا الدولاب يدور بينما ولدت عشرات الامبراطوريات والحضارات واندثرت ... انه القدر الذي لا يدرك سره ويفهم كنهه . انه نصيب هذه الاراضي التي لا ترحم فيها الطبيعة . والاغرب انه في كل مرحلة جديدة من مراحل التقدم البشري كانت الحضارة تحيي مباشرة دورها العظيم لأسباب لم تكن تخطر على بال احد من الباحثين .

موطن القراصنة

لقد كان من شأن هذا المصير التاريخي الفريد الدوري ان خلق لدى سكان الخليج ضميراً تأريخياً اجتماعياً موحداً كأنه لون من ألوان الوطنية التي لا مجال للشك فيها .

لقد كان نوعاً جديداً من الشعور ، ذا جـــذور طبيعية تغوص في الامواج التي تصطفق على شواطىء الخليج السحري .

ان مدّ الثروة وجزرها غير المنتظرين ، والهرب أبقاءً على الحيـــاة امام الاجتياح والطغيان ، والصراع في سبيل البقاء مع الجوع والعطش ، كل ذلك مزج مزجاً لا مثيل له بين مئـات الألوان من بني البشر الذين تعودوا سكنى الجزر اكثر من سكنى السواحـل ... ان هؤلاء السكان الذين حُشروا بين البحر والصحراء لم يجدوا من وسيـلة للعيش امامهم سوى ركوب البحر . لقـد كانوا بحارة وصيادين قراصنة وتجار عبيد ، مهربي اسلحة وغطاسين وراء اللؤلؤ تباعاً وفي نفس الوقت . لقـد كانوا بدواً رحلاً ولكن على سطح الميــاه ، وطلبوا من الخليـج الذي تبنّوه موطناً لهم كل ما رفضت اعطـاءهم اياه الصحراء القاحلة البخيلة . واذا كان البعض منهم قد امتهنوا رعاية المواشي وحتى الزراعة فقد استمرت عيونهم مسمّرة بالشاطىء وابصارهم شاخصة الى البحر . ان الحياة البشرية ليست ممكنة هناك الا في جوار الماء . وبما ان مياه الانهار الحلوة العذبة تنتهي الى البحر فقد تتبع الانسان خُطاها وسار مع تيارها . لقد تسابق الانسان مع النهر قادماً من الجبال ليشارك في الغبطة التي يبعثها سحر البحر الزمردي . .

والانسان الاول الذي وصل الى تلك الشطآن القاسية الجافة لم يكن له الخيار ... لقد وجد نفسه في طرف الدنيا ، في ارض لا ينبت فيها شيء ولا يمكن ان يزدهر فيها شيء ؛ فولى وجهه شطر البحر وركبـه قاصداً الشاطىء الآخر ، فاذا به أشد جفافاً واكثر بخلاً ؛ وزاد جوعه ، وتفاقم فقره ، فلجأ الى البحر الأخضر يصيد اسماكــه ويسعى وراء خيراته فوجد اللؤلؤ الوردي والمذهّب الذي لا مثيل له تحت الشمس... وبعد مدةٍ رأى المراكب تتهـادى على سطح الميــاه ناقلة الى اوروبة الاحمال المحمّلة من كنوز الشرق السحرية ؛ فجاءتهُ فكرة القرصنة ببراءة

الطفل وأُعجب بها ... وفي هذه الاثناء كانت هـذه المهنة تدر ارباحاً طائلة مما حمل الكثيرين من البحارة والمغامرين على ان يأتوا من الاماكن النائية ، من شواطيء اميركا وهولنـدة وفرنسة واسبانيـة والبرتغال ليجتاحوا تلك المياه الهادئة ويبعثوا الرعب في قلوب سكانهـا وبحارتها والتجار الذين يعبرونها ...

واثر ذلك قامت دولٌ شجبت هذه الحياة الصاخبة بالنسبة لسكان الخليج وغيرهم فأخذت على عاتقها محاربة القرصنة وقضت عليها فتحوّل البحارة المغامرون نحو تجارة رابحة اخرى غير القرصنة هي تجارة الرقيق. ولكن أمدها هي الاخرى لم يطل بل حُوربت ومُنعت .

ان البوارج الحربية ومراكز المراقبة واللاسلكي وجميـع الوسائل اللازمة لتأمين التجـارة العالمية واستثمار البترول كل ذلك قضى شيئاً فشيئاً مع مرور الزمن على آمـال المغامرين الذين مـا زالت ابصارهم معلقة بالبحر ... ومع كل ذلك فانك مـا زلت تراهم بالآلاف في مراكبهم الشراعية يجوبون مياه الخليج الخضراء وينقلون من وقت الى آخر بضائع ممنوعة ... ان تهريب السلاح ما زال مزدهراً وتجارة الرقيق لم يُقضَ عليهـا نهائياً وتهريب الأشخاص سراً من بلدٍ الى آخر وتهريب المواد الخفيفة بصورة خاصة ما زال سبيل العيش لمئـات البحارة عندما يُمحل الصيد ويعجز العمل الشريف عن سد حاجاتهم ...

لقد خلقَ كل ذلك عالماً غريباً يجمع بين البحر والمغامرة ، عالماً لا يستطيعُ سكـّانه ان يحيوا حياة الصحراء ولا يريدون ذلك .

وَيُعدُّ هؤلاء ، اية كانت طرق معيشتهم نحواً من خمسماية الف نسمة اذا نظرنا فقط الى السواحل الغربية من الكويت الى مسقط قرب مضيـق هرمز . اما اذا قصدنا سكان السواحل كلها شرقاً وغربـاً على السواحل الايرانية والعراقية والسعودية والكويتية وغير ذلك فانهم يبلغون عندئذ تقريباً مليون وستماية الف نسمة . وقـد يصل العدد الى مليونين اذا

ادخلنا الذين هاجروا الى هذه الديار سعياً وراء الرزق من ايران والبلاد العربية المجـــاورة واوروبة واميركا للعمل في المؤسسات والشركات التي تستثمر البترول ..

وهذا الرقم يضم خمسماية الف نسمة على الشاطىء الايراني بما في ذلك عبادان وثلاثماية الف نسمة في العراق بما في ذلك البصرة ومرفـأ الفاو ومائتي الف نسمة في الكويت ومئـــة وخمسين الف نسمة في الاحساء السعودية واربعين الف نسمة في قطر ومئة وخمسين الف نسمة في البحرين وثمانين الف نسمة على شاطىء الهدنة او الامارات المتصالحة ومئـة الف نسمة على شاطىء مسقط وعمان ...

ان هذا العالم المتماوج على الخليج العربي هو في حدّ ذاته وطنٌ كغيره من الاوطان على الرغم من اقسامه التي لا نهاية لها . لقد جمعَ بين اجزائه المتفاوتة المختلفة التكوينُ المشابه . ويمكنُ المرء ان ينتسب الى الخليج كما ينتسب الى اي موطنٍ آخر او دولةٍ اخرى . ولكن هـذا الوطن كيان غير مكتمل لأنه متعذّر التحديد . فهو في كل مكان يبدأ فجأة بدون حدود واضحةِ المعالم في شبه الجزيرة كما هي الحال فيما بين النهرين او في ايران الجنوبية . والحدود انما تبدأ من شاطىء البحر حيث ترتفع رائحة المياه المالحة . وهناك يجذب نداء البحر الأخضر كل من يسكن على سواحله للغرف من خيراته وأخطاره معاً ...

ان الخليج وطن واحد ومجموعة اوطان في الوقت ذاته ... لقد ورث هذا الموطن الجريء تركةً ثقيـلة من مصائب البؤس والتجزئة لكثرة ما رأى من مجتاحين زالوا وانقرضوا وما خاض من معارك . وسيقوى مع الزمن بفضل المشروعات الانشائية لكي يزيلَ عن كاهله هذه التركة الثقيلة .

ان ابناءه قد ألفوا حياتهم ، وهم يحبون الحيـاة القاسية التي يحيونها ويعشقونها كما يعشقُ المدمن المخدّر الذي يهلكه او العشيق المرأة التي تنهكه .

لقد سألني احد ابناء البحرين وقد اشار بيده الى مياه الخليج الزمردية :

« هل رأيت في حياتك منظراً اجمل وابدع يا ايها السائح الغريب في مختلف انحاء الأرض ؟! » .

البابُ الخفي للشرق الاوسط

ان أبناء الخليج لا يُحبون وطنهم ويتعلقون به لأنهم استقروا في تلك الشطآن المنخفضة المحمومة الحارة الجرداء فحسب ؛ بل لأن هذا البحر كان ولم يزل بحرهم . لقد منحهم الحياة دِرهماً درهماً وكان سبباً للوجود كما هي الصحراء بالنسبة للبدوي .

على الجهة الشرقية منه تنتصب ايران التي تحمل على كاهلها المُتْعَب بفخر واعتزاز تاريخ خمسين قرناً من الامجاد منذ ايام الساسانيين القدماء... ومن شط العرب الى بندر عباس ينبسط شاطىء يبعثُ اليأس لفقدان المواصلات الممكنة إلا عن طريق البحر... وتمتد ايضاً المساحات الشاسعة التي تغمرها المستنقعات في خوزستان السفلى في جهات فارس حتى مضيق الهضبة الايرانية من جانب ثان . ان المواصلات من جراء هذا التكوين الطبيعي عسيرة وغير ممكنة مع الداخل . وليس هناك سوى « كلايكس ميغال دي بلاين » هذا السُلّم الذي لا يمكن تصوره والذي تحدث عنه « بيير لوتي » ، ذو المنحدرات العامودية التي لا تقارَب ، حيث يوجد ممرّ ضيق جداً يربط مدينتي بوشير وشيراز . وبالقرب منه تقوم خرائب « برسيبوليس » الجميلة .

في هذه المنطقة افتتحت مؤخراً طريق جبلية ضيقة فائقة الخطورة أملتها الضرورة القصوى لاستثمار البترول سُميت « الدرج الذهبي » لكثرة ما كلفت من اموال ...

منذ القدم اجتاحت هذه الارض الصلبة الوعرة قبائل مشهورة بالسلب والنهب هي قبائل « قشقاي » التي تنتقل بين السفح والجبل في الربيع والخريف . ويبلغ تعداد هذه القبائل نحواً من ثلاثمائة الف نسمة ، بما في

ذلك اولئك الذين يرجعون الى اصل عربي ويقاسمون « القشقاي » هـذه الارض الجدباء ...

وآبار البترول الايرانية موجودة الى الشمال من تلك المنطقة في « خوزستان » عند سفوح جبال « البختياري » المسماة باسم اكبر القبـائل في ايران الوسطى واقواها ...

وعلى طول الشاطىء تنتشر هنا وهناك بعض الجزر الصغيرة المعزولة التي يلجأ اليها الصيادون ، كما تغور بعض الفجوات والاجواف التي كانت دافعاً لبناء بعض المراكز الحضرية فشُيّدت المدن ، وكان اشهرها واقدمها « بوشير » ثم « بندر عباس » و « بندر لنجة » اللتان طالمـا لاقى فيهما الاوروبيون الكثير من الصعوبات للاقامة والسكن .

وفي القسم الشمالي من الشاطىء الايراني وحول « عبّادان » بصورة خاصة اكتُشِف البترول واستُخرج وكُرّر . وكان السبب للنشاط الزائد الذي انعش هناك المنطقة بأسرها ، بينما ظـل القسم الداخلي جامداً لا أثر للحياة فيه ...

وفي الجهة المقابلة ، على الشاطيء الغربي ، شاطىء شبه الجزيرة العربية ، تقوم سلسلة من الامارات والمشيخات تختلف مساحة واتساعاً . وهي كلها مسطحة رملية كثيرة المستنقعات . انها ليست سوى الصحراء التي القت بنفسها لفرط اليأس في البحر المديد ...

وهنا لا يمكن مطلقاً ان يفصل المرء بين الصحراء والبحر . والبدوي والبحري هناك متقاربان ممتزجان . وهي توحي الى كل من يعيش فيها ويستوطن هذه السواحل الحزن والأسى لرتابتها وجفافها ..

وفي هذه المنطقة نجد الأمارات العربية التالية : الكويت وقطر والبحرين مع جارتها الكبرى المملكة العربية السعودية موطن الوهابيين المتمسكين بمذهبهم أيما تمسك . وعلى الرغم من ان هؤلاء المصلحين الدينيين قـد وصلوا متأخرين الى الخليج فإنهم يسيطرون على منطقة « الاحساء » الغنية

بالبترول . والامارات الاخرى ما عدا – امارات شاطىء القراصنة – التي لا تقل عنها ثروة بترولية ...

والى الجنوب الغربي يمتد ساحل كان يدعى ساحل القراصنة لكثرة ما حدث بالقرب منه من معارك بين البحارة الوطنيين والدخلاء الاغراب ...

وما أن اخلد فرسان البحر الى السكينة حتى اطلق الانجليز على هذا الشاطىء المخيف اسم شاطىء الهدنة او شاطىء الامارات المتصالحة .. وهو شاطىء منخفض تتخلله الرؤوس والخلجان والالسنة والجزر الصغيرة مما جعله ملجأ مفضلاً للقراصنة وصيادي اللؤلؤ في الماضي .

والى الجنوب من ذلك ايضاً ، الى الخارج من الخليج تمتد سلطنة مسقط وعمان على طول الزاوية الجنوبية الشرقية لشبه الجزيرة العربية . وهي تنفصل عن الداخل بسلسلة جبلية لا تلبث ان تذوب وتتلاشى في رمال الصحراء التي لا حياة فيها ... ان ماضيها وحاضرها يربطانها بالخليج ويجعلان منها بالنسبة له الحارس الامين الذي يحرس مدخله عند مضيق هرمز . وامام هذه الصخور البازالتية السوداء عند ممر رأس « حاسندام » الخطير يمرُّ كل يوم اكثر من اربعين ناقلة بترول وعدد كبير من سفن الشحن والمراكب الشراعية وهي تتهادى على مياهٍ صافية او تتململ في المضيق كأنها تتقيأ حمولتها . وأحياناً تلفُّ الناقلات وتدور بين صخور الزاوية الكبرى والزاوية الصغرى قبل أن تصل الى عرض البحر ... ان حركة المرور هنا شديدة دائماً لا سيما عند العنق الضيق الذي يؤدي الى الخزان البترولي الكبير المعروف بالخليج العربي ...

وفي الشمال أخيراً بين الضفتين الايرانية والعربية يملك العراق الحديث الذي خلف سومر وبابل القديمتين فيما بين النهرين منفذاً بحرياً ضيقاً هو بابه الوحيد الى العالم الخارجي وهو طرف الهلال الخصيب ، هذا الهلال الذي يمتد من الخليج الى الساحل الشرقي للبحر الابيض المتوسط . وهو

مصبُّ شط العرب المجرى المائي الذي تتعالى على جانبيه ملايين اشجار النخيل . ومن هذا الممر تعبر المراكب العربية القادمة من الهند او مدغشقر مارة بالخليج في ظل ناقلات البترول الضخمة لتحط في البصرة مُحاطة بالزوارق . وسنة بعد سنة يبتعد البحر عن البر لكثرة ما يحمل شط العرب من رواسب تتجمع عند مصبّه وتقدّر المسافة الزائدة بخمسة وعشرين متراً تقريباً في السنة .

ان هذا القسم الشمالي من الخليج هو اكثر ازدهاراً واكثف سكاناً وأغزر ماء من جميع الاجزاء المجاورة ، انه البـاب الخفي السحري للشرق العربي . وللعراق على هذا الباب مرفأ واحد هو البصرة . ولأيران مرفآن كبيران هما بندر شاهبور وهور امبشهر وينتهي عندهما الخط الحديدي الايراني بين الخليج وبحر قزوين حيث يتصل بشبكة الخطوط السوفياتية . وفي البصرة ايضاً ينتهي خط طوروس اكسبرس الحديدي بعد ان يمر ببغداد ويتصل من الشمال بخط الشرق السريع الذي يربط عواصم اوروبة بالشرق . وفي الخليج الساكن يستقبلُ مرفأ الكويت كل ما يأتي من بضائع ومواد للقسم الشمالي من شبه الجزيرة العربية ...

من العراق وايران والكويت والسعودية يتدفق البترول بكميات هائلة على شواطىء الخليج في الموانىء البترولية المعروفة وهي : الفاو في العراق ، عبادان ومـاشور في ايران ، الأحمدي وعبد الله في الكويت ، سعود ورأس تنورة في السعودية ، سترة في البحرين وام سعيد في قطر ...

هذا وقد تحوّلت ايضاً جزيرة الخرج الى مركز تعبئة للناقلات الضخمة . وبذلك اصبح بحرُ الزمرد بحرَ الذهب الأسود . وفي دائرة شعاعُها مائتا كيلومتر حول شط العرب تتجمع ثروات اسطورية . وشط العرب الذي يمكن ان يُعتبر بوتقة بشرية تصهر السكان من ابناء البر والبحر من عرب وايرانيين ، من حضر وبدوٍ هو اشبه ما يكون ببهو الخليج العربي . ومنه يأتي ويتصاعد نداءُ البحر باستمرار داعياً

المغامرين الى السفر وجوب الآفاق سعياً وراء الربح الوفير ... وكثيراً ما تقاسمت مياهه في الماضي مراكب القراصنة المعروفة بالسمبوك مع سفن الشحن والبواخر الكبرى . واليوم ترى احفاد السندباد البحري ذلك المغامر الجريء ، يعملون جنباً الى جنب مع العمال الشقر الذين قدموا من الشمال كما تجد ايضاً زوارق البوليس السريعة تخط على صفحة اليم خطاً ابيض سرعان ما تمحوه الامواج التي تحركها الرياح . وذلك لنتذكر بأن هذا الخليج اذا كانت مياهه عربية تقذفها الانهر المقدسة فان ايران تملك الضفة الشرقية منه في عبادان وبندر عباس وغيرهما من المرافىء الايرانية . ولكن هذه الخطوط الوهمية قلما فرضت وجودها وهيبتها على المغامرين من الطرفين . لذلك ترى الصراع مستمراً بين هؤلاء الذين استهوتهم الارباح ورجال الجمارك الساهرين .

الاطماع المحدقة (ايران ، انجلترة ، الاتحاد السوفياتي)

يعتبر الجغرافيون والمؤرخون هذه البحيرة الاسلامية التي نسميها الخليج العربي حداً فاصلاً بين العالم العربي وايران . وهي ايضاً فعلاً حاجز بين مفهومين اسلاميين مميزين . واذا كانت المعارك الحربية الفاصلة بعد القادسية ونهاوند سنة ٦٣٤ ميلادية قد فتحت ابواب فارس امام جحافل العرب المسلمين ، فان خلق امبراطورية عربية واسعة سنة ٦٨٠ م على ايدي الامويين أدى الى انقسام بين المسلمين وظهور الشيعة بسبب استشهاد الحسن والحسين ابناء علي صهر النبي صلى الله عليه وسلم . فتحزب الفرس للشيعة ورفضوا الاعتراف بسلطة الخليفة الاموي وهكذا وُلد المذهب الشيعي الذي تركز في العصور التالية ، لمعارضة المذهب السني الذي كان يؤيد الخلافة الاموية المتمركزة في دمشق الشام ...

لقد كان خط تقسيم العالم الاسلامي القديم والحديث اذن على ضفاف الخليج العربي ... وعند رأس الخليج في العراق وجزر البحرين

نجد خليطاً من السنة والشيعة . وحتى الماضي القريب كانت الاضطرابات والاصطدامات تتعدد بين الفريقين ؛ الامر الذي خـف كثيراً في الوقت الحاضر بسبب الوعي المتزايد ، حتى اوشك ان يزول تماماً .

وعلى الضفة العربية من الخليج تدين الاكثرية بالمذهب السني والشيعة فيها اقلية . وجلهم من التابعية الايرانية . وأما على الضفة الشرقية فعلى العكس من ذلك واكثرية السكان فيها من الشيعة ، ولا يوجد من السنيين إلاّ الاقلية العربية المقيمة هناك ...

ان هذا الانقسام بين المذهبين الاسلاميين هو هنا اوضح منه في اي مكان آخر . واذا كان الحجاز قد رأى ولادة مذهب اسلامي جديد ، هو المذهب الوهابي ؛ فان ايران ، لاسباب سياسية اكثر منها دينية ، جعلت قضية الشيعة قضيتها واثبتت بذلك انفصالها واستقلالها عن العالم العربي ..

وفي عُمان يكثر الخوارج . وهي المنطقة الوحيدة التي ما زالت تدين بهذا المذهب الذي خرج فيه اتباعه عن المجموعة الاسلامية ...

وهكذا اصبح هذا العالم الصغير الجميـل على البحر الزمردي الاخضر نقطة الفصل بين الانقسامات والمنافسات السياسية والدينية واللغوية والعنصرية والاقتصادية والتجارية . وكل من المتنازعين يتطلع بنهم الى ما عند جاره سواء أكان نزراً يسيراً او ثروات ضخمة ... لقد حاول الغزاة الاوربيون في سعيهم المتواصل وبحثهم الدائب عن كنوز الشرق ان يقيموا النظام حيث كانت تسود الفوضى مستهدفين بذلك حماية مصالحهم وتجارتهم من القراصنة ؛ فعمدوا الى مراقبة الحياة واستلام زمام الأمور في هذه المنطقة الحساسة من العالم وكان البرتغاليون بقلاعهم التي بنوها وحصونهم التي انشأوها في كل مكان هنا وهناك الطليعة لذلك . ثم تبعهم الهولنديون بوكالاتهم التجارية الكبرى يتسابقون على ذلك مع جيرانهم الفرنسيين . واخيراً وصل الانجليز غزاة الهند . وبما لديهم من صلابة وجلدٍ وصبرٍ استطاع هؤلاء ان يزحزحوا كل شركائهم ومنافسيهم ليستأثروا بكـــل شيء ويقيدوا سكان الخليـج

بمعاهدات سياسية وعقود ثنائية تجعل من بريطانيـــة الآمر الناهي في الخليـج . وساعدت النهضة الصناعيـة والحضارة الآلية البريطانيين على مهمتهم هذه في تنظيم الامور . وبريطانيـة اليوم كباقي البلدان الغربية اصبح وجودها وتقدمهـا منوطين ببترول الخليـج الذي لا تستطيـع الاستغناء عنه مهما قَصُرت المدة . وازمة قناة السويس ١٩٥٦ عندما أممها الرئيس جمال عبد الناصر أصدق شاهد على ذلك ....

لقد توصلت بريطانية في نهاية القرن الماضي الى القضاء على منافسة الدول الأخرى وفرضت حمايتهـا على الخليـج مما حدا بأحـد ابنائها اللورد كيرزون الى القول بفخر واعتزاز : « في كل اقسام الخليـج نرى صورة بريطانية مسلحة بالسيف ممسكة بيد من حديد عاتق الميزان . وليس من المغالاة في شيء أن يقال بان حياة مئات الألوف من البشر اصبحت في مأمن بعد فرض الحماية على الخليـج ، وانـه اذا خرجت بريطانية من هناك عادت الفوضى الى سابق عهدها ! » — بالحرف الواحد — وخلال النصف الاول من القرن العشرين اصبح في امكان بريطانية الدولة الوحيدة في الخليج ان تقول عنه انه بحيرة خاصة . وبقي الانجليزي مدة طويلة في الخليج يشعر كأنه في دياره . ولدى اقل محاولة للازعاج هناك من قبل اية دولة اخرى كانت بريطانية تلجأ الى التهديد وحتى النزاع المسلح اذا اقتضت الضرورة . وقد استطاعت ان تحول دون وصول كل منافسيها الى الخليـج من فرنسيين وعثمانيين وألمان وسوفيات ... غير انها لم تستطع ان تفعل شيئاً مع حليفتها الكبرى الولايات المتحدة الاميركية التي دأبت منذ الحرب العالمية الثانية تعمـل بسرعة على زحزحتها للحلول مكانها هناك .. لقد اتاحت الحرب للولايات المتحدة ان تضع قدمها في الخليـج . وانتهت الحرب ، وعوضاً عن ان يخرج الاميركيون ثبّتوا أقدامهم في المنطقة على حساب انجلترة ..

ولقد بقيت بريطانية على الرغم من كل ذلك قوة كبرى في الخليـج وبقي لها الحول والطول . ولكن منافسيها لا يفتأون يكدّرون راحتها

اذ شعروا بأنها شاخت وهرمت . وكذلك يقضّ البعث العربي القومي الذي بدأ يسطع نجمه في الخليج مضجع بريطانية ومنافسيها معاً اذْ انه اصبح القوة الوحيدة الفعالة هناك ؛ ولم يسكت مطلقاً حتى عن التسمية التي أطلقها الغربيون على الخليج عندما سموه «الخليج الفارسي» فأعاد له اسمه العربي .

وهناكَ ايضاً قوة ثالثة تتربص الدوائر وتنتظر نتيجة الصراع بين القومية العربية والمستعمرين في الخليج لتقول كلمتها ، تلك هي موسكو التي ما زال مخطط بطرس الاكبر التوسعي ماثلاً امام ناظريها . فلا غرابة أن تسعى جاهدة للحصول على منافذ بحرية على المتوسط والخليج العربي .

ان الصراع الدولي اليوم هو على أشدّه في سبيل السيطرة على هذه المنطقة الوافرة الغنى . وجميع الدول الكبرى تنظر بنهم الى خيراتها . بينما اهلوها العرب يتسلحون بقوميتهم وصلابتهم لمواجهة كل ذلك والتخلص مما لا يزال باقياً من آثار الاستعمار هناك . وعلى الرغم من هذا التنافس والصراع والحقد المتزايد الذي يتأكل الصدور ، صدور اكثر المتنازعين الراكضين وراء البترول ، على الرغم من كل ذلك ما زال عرب الخليج يحتفظون ببساطتهم وطيبة قلوبهم ؛ والبحر الزُمرّدي ما زال كثير السمك والشمسُ المحرقة ما زالت تلوّح البشرة ، والرياح الرطبة ما زالت تسيّر المراكب الشراعية كما كانت في الماضي .

٢

القراصنة والبترول

حجر الزاوية

في صباح يوم من ايام ايار سنة ١٩٠٨ تسلّم مهندسٌ كان يعمل في جبال خوزستان برقية جاءته من لندن ، فدسها في جيبه لكثرة أشغاله ، وبعد مرور ثمانية أيام على ذلك ، مدّ يده الى جيبه فعثر على البرقية وقرأها فعلم بأن الشركة التي يعمل لحسابها قد أفلست ، وهي تأمره بأن يوقف عمليات الحفر والتنقيب في منطقة مسجد سليمان . على اثر ذلك انفجر المهندس ضاحكاً لأن السعادة كانت قد سبقت الافلاس وهبطت ، وكان البترول قد تفجر بغزارة وغيّر مجرى الاعمال ...

ان اسم تلك القرية الصغيرة البائسة التي تغفو على سفح قاحل لجبل صخري اصبح المرادف العجيب لما يعنيه ينبوع الذهب . وتأريخ الخليج البترولي بدأ هكذا بعملية منفصلة فردية أدّت الى نتائج ما فتئت تتعاظم منذ نصف قرن . وهذا العهد الجديد يتوافق مع ذروة الامبراطورية البريطانية وفيه بدأت سياسة السيطرة الحيوية على طريق الهند تصبح امراً ثانوياً بعد أن أخلت مركز الصدارة للسياسة التي تستهدف التحكم بمنابع البترول وخزاناته ...

لقد استطاعت بريطانيا بجهود جبارة ان تفرض سيطرتها على الخليج

وتحفظ الأمن في شواطئه ومياهه بعد أن أقصت عنه جميـــع الدول الاخرى . ومنذ قرن من الزمن وضرورة الابقاء على السيطرة البريطانية متفوّقة ، تشكل حجر الزاوية في السياسة الخارجية الامبراطوريـــة البريطانية ومـــا عدا ذلك انما هو تابع يجب ان يتوافق معه . وقد اطلق اللورد «لندرسون» منذ سنة ١٩٠٣ اصدق تعبير لتلـك السياسة اذ قال : « اننا نعتبر انشاء اية قاعدة بحرية او مرفأ محصّن على الخليج العربي من قبل اية دولة اخرى تهديداً خطيراً للمصالـــح البريطانية ، وسنقاوم اية محاولة من هذا النوع بكل ما لدينا من قوة ووسائل..»

لقد اعطت كل من فرنسة وروسية والمانية والامبراطوريـة العثمانية البرهان على قيمة هذا الانذار البريطاني . وخلال مدة طويلة ، كانت ضرورة المحافظة على طريق الهند الشاغـــل الأكبر لسياسة بريطانية الخارجية . وعندما بدأت تظهر مع العصر ملامحُ الثروة البتروليـة سارعت بريطانية لتكون اول من يستفيد من هـــذه الثروة مكافأة لها على ما قامت به من خدمات .

والسير ارنولد ويلسون الممثـل السياسي لحكومة صاحب الجلالة قبل ان يُصبح احدَ مديري شركة البترول الانجليزية – الايرانية كتب عام ١٩٢٨ في مقدمـــة كتابه القيم عن الخليج ما يلي : « في كل مرفأ وفي كل جزيرة من جزر الخليج تنتشر المقابر المنسيّة لرجـالٍ من بني جنسنا ومن عنصرنا كانت تضحيتهم بأرواحهم واعزّ ما يملكون في هذه المنطقة الأمرَ الوحيد الذي جعل تجارتنا وبقاءَنا هنا ممكنين كما كان نشاط المواطن الانكليزي في البر والبحر من جيل الى جيل السبب في تأسيس هذه المملكة العظيمة الغالية ووصولها الى ما وصلت اليه الآن ... »

سطو بحري

عندما وصلت الدفعة الاولى من البحارة الانجليز الى الخليج في القرن

السابع عشر وجدوا ان البرتغاليين كانوا قد سبقوهم الى هناك وثبتوا اقدامهم منذ عشرات السنين وسيطروا على التجارة في الخليج بعد ان حصنوا جزيرة هرمز . وهناك كثيراً ما حصلت مناوشات بين البرتغاليين الدخلاء والعدد العديد من زعماء الامارات والمشيخات الصغيرة على جانبي بحر الزمرّد . وفي البحر كان حبل الأمن مضطرباً والقراصنة يسرحون ويمرحون دون رقيب ...

وليس وجود القراصنة في هذه الأنحاء امراً جديداً . فقد اشار الى جرائمهم ومغامراتهم المؤرخ « بلاين » في القرن الاول الميلادي . وكان الخليفة العباسي هارون الرشيد جولات معهم واضطر المأمون ان يجهز حملة منظمة ضدهم للحد من نشاطهم الذي كان يعرقل التجارة مع الهند والشرق الاقصى . ومع كل ذلك لم تخمد حركاتهم بل انتقلت الى جوار البحرين وعُمان . وفي تلك الحقبة كان اسم البحرين يُطلق على المنطقة التي تضمُّ الاحساء وقطر . اما اليوم فيُطلق على مجموعة من الجزر في عرض الخليج فقط . وولادة الحركة القرمطية في نهاية القرن التاسع كان من نتائجها ازدياد نشاط القراصنة في كل انحاء الخليج . اذ اعتنق سكان البحرين بما فيها الاحساء المذهب الهدّام الذي أبدعه قرمط وحاولوا بالاضافة الى ذلك ان يفرضوا مذهبهم الجديد بحد السيف فغزوا مكة وانتزعوا الحجر الاسود منها ولكنهم اضطروا الى الانسحاب بعد ثلاثين سنة من دخولهم وأعادوه الى مكانه وقد دام سلطانهم في الاحساء طيلة قرن من الزمن لأنها كانت مهد الحركة القرمطية واخصب ارضٍ احتلتها ... وفقر هذا البلد يفسر الى حدٍ بعيدٍ ميلَ سكانه الى القرصنة . والقرصنة في الخليج — عدا عن ذلك — مرادفة للغزو في الصحراء ... وهذا الفقر انما هو ناجم عن ندرة الماء لاسيا مياه الشفة .

وقد روى احد السواح الأجانب ما قاساه من جراء فقدان الماء اذ

امضى تسعة اشهر في الاحساء فقال : « لم اعد استطيع احتمال الحليب الذي كان يقدمه البدوُ لي في كل مرة كنت اطلب فيها ماءً . وعندما كنت ارفض الحليب متوسلاً اليهم كي يعطوني جرعـة ماء ؛ كان جوابهم لي : « عندما ترى الماء اطلبه ... ولكن انىّ لنا الماء هنا !؟ »

والقرصنة هي ، في الوقت نفسه ، عملية حربية عالمية . وليست مجرد سطو او نهب محلي . ويؤيد هذا القول ان سكان الخليـج العربي ليسوا وحدهم المغـامرين الذين استهواهم ركوب البحر . بل على العكس ان أخطر قراصنـةً عرفهم البحر جاؤوا من الجهـــة المقابلة من وراء مصب الهندوس . واذا كان الخليج مسرح نشاطهم فذلك ربما كان لأن مضيق هرمز الذي تتجمع عنده السفن التجارية هو خير مكان لمثل هذا العمل ، ومنه تمر تجارة الدولة العباسية والصين والهند .

ويروي الرحالة البندقي ماركو بولو الكثير عن حياة القراصنة ودقة تنظيمها والجو العائلي المسيطر عليها اذ يقول : « من هذه المملكة المسماة « ماليبار » ومن مملكة اخرى اسمهـا « كوزورات » يخرج كل سنة اكثر من مئة سفينة تذهب كلها الى السباق البحري والسطو في عرض البحار وتبقى في عملها طيلة فصل الصيف . والبحارة المقاتلون يأخذون معهم نساءهم واطفالهم . وتمخر هذه السفن عباب اليمّ قوافل قوافل كل واحدة منها مؤلفة من عشرين الى ثلاثين سفينة تقريباً تعمل وتنتشر كأسنان المشط ؛ لا تبعد الواحـــدة عن الأخرى سوى خمس او ست عقد مما يجعل وجود الطريدة مؤكداً لأنه ما من مركب تجاري يمرّ الا ّ ويصادف احد مراكبهم والنصر بالطبع الى جانبهم دائماً . اذ انه ما ان ترى احدى سفنهم مركباً تجارياً قادماً حتى تطلق اشارات متفق عليها من النـــار والدخان فتتجمع زميلاتها وتطوّق المركب وتأخـــذ كل ما فيه ؛ ثم يطلقون سراحه قائلـين لربانه : « اذهب وقم بصفقة جديدة ولا تنسَ انك عائد الينا حتماً ! . » ولكن التجـار الذين تعلموا على حسابهم ما

كانوا يرجعون إلا مزودين بالسلاح والجنود في مراكب ضخمة لا تهاب القراصنة . وإن حصل وعاد مركب مرةً اخرى اعزل من الجنود والسلاح فإن ذلك يحدث من قبيل سوء الطالع ... » .

واثناء مرور الرّحالة البندقي في القرن الثامن عشر كان الخليج العربي قد أصبح طريق الطرائف والعجائب كلها . وآنذاك كانت شهرة هرمز السحرية تجتذب التجار والمغامرين .

ان وصف ماركو بولو الدقيق يطلعنا في الوقت ذاته على النشاط التجاري وطريقة العيش في هذا السوق العالمي الغني عندما يقول : « وعلى شاطىء الخليج تقوم مدينة اسمها هرمز . ولهذه المدينة مرفأ . وفي هذا المرفأ رأيت تجاراً من الهند مع مراكبهم التي تملأها التوابل والحجارة الكريمة والقماش النادر من الصوف والحرير وانياب العاج وغيرها من المواد التجارية . وفي هذا المرفأ تنتقل كل هذه البضائع من مركب الى آخر ويحملها تجار آخرون الى سائر انحاء العالم . انها مدينة تجارية هامة ولها مدن تابعة وعميلة . وهي عاصمة مملكة يحكمها ملك يدعى رمضان . ان الحرارة في هرمز لا تطاق وتزيد منها الشمس الساطعة والسد الجبلي الذي يقفل من الجانبين كل منفذٍ للهواء والرياح . واذا مات احد التجار من الحر ، وهذا كثيراً ما يحصل فإن الملك يستولي على كل ما يملك من مالٍ وبضائع . »

« وفي هذه الديار يصنعون الخمر من التمر ويُضيفون عليه بعض التوابل فيصبح فائق اللذة . واذا تشجعت وشربته قبل ان تعتاد عليه أصابك اسهالٌ فتضطر للخروج مراتٍ متعددة فوراً . غير انه بعد مدةٍ يضاعف لك حيويتك وصحتك ويزيدك سمنة . واذا مرض احدٌ من سكان هذه البلاد أكل اللحم والخبز المصنوع من الشعير فيُشفى . اما الاصحاء اذا تناولوا ذلك فانهم يمرضون . ولا يأكل الاصحاء عادة الا التمر والسمك المملّح والليمون الحامض والثوم ...»

ويتحدث ماركو بولو ايضاً عن المراكب المتهادية على صفحة الخليج الخضراء، هذه المراكب التي يعود فن صناعتها الى القرون السحيقة والتي ما زالت تُصنع اليوم كما كانت في ذلك الحين فيقول: «ان سفنهم سيئة الصنع ولذلك لا تخدم كثيراً. وذلك لأنهم لا يسمّرونها بالمسامير بل يخيطونها بخيوط مسحوبة من قشرة جوزة الهند. وهذه الخيوط متينة ولا تأكلها المياه الا انها لا تستطيع مقاومة العاصفة. ولهذه السفن سارية وشراعٌ ودفة وهي لا تغطّى الا عندما تكون محملة. ولما كان الحديد الذي يصنع منه المسامير مفقوداً عندهم، لذلك لجأوا الى استخدام الاوتاد الخشبية عوضاً عنها لبناء سفنهم قبل ان يخيطوها بخيط قشرة جوزة الهند. ونقدّر مدى المخاطرة في ركوب مثل هذه السفن عندما نعلم ان هذه البحار كثيرة العواصف».

ويتابع ماركو بولو حديثه عن المناخ والسكان والبيئة الطبيعية فيقول: «والسكان ببشرتهم السمراء ميالون الى السواد. ويدينون بدين النبي محمد (ﷺ) وهم لا يستقرون في المدن لاشتداد الحر فيها بل يقيمون في الريف ويلجأون الى الجنائن والينابيع والسواقي. وعلى الرغم من كل ذلك فإنهم لا ينجون من الحر. وعدة مرات في الصيف تأتيهم رياح جافة كثيرة السخونة تحمل الرمال لقدومها من الصحراء المحيطة بالمنطقة. وهذه الرياح قادرة احياناً على ان تقضي عليهم جميعاً اذا لم يلجأوا عند هبوبها الى الماء ينزلون فيه حتى رؤوسهم في انتظار توقف الرياح الصحراوية.

وهم يبذرون مزروعاتهم من الذرة والشعير وغيرهما في شهر تشرين الثاني ويحصدونها في شهر آذار. وبعد ذلك التاريخ لا تجد نباتاً اخضر في تلك البلاد سوى اشجار النخيل التي تحتفظ بخضرتها حتى شهر ايار، وذلك لارتفاع الحرارة الشديدة هناك الى درجة تجفّف كل شيء... واذا نجت السفن من تأثير هذه الحرارة المرتفعة ولم تتفسخ ولم تتلف

فذلك لأنهم يدهنونها بزيت السمك »

ردة الفعل الاوروبية

ان هـذا الوصف الممتع الذي قدمه لنا ماركو بولو مـا زال حتى عصرنا هذا يحتفظ بالكثير من طلاوته وصلاحيته ؛ إن من جهة الاغذية المؤلفة من تمر وسمك مجفف ، وإن من جهة المناخ المفرط في الحرارة ، وإن من جهة طريقة بناء السفن وما يتلف منها كل سنـة . وحتى اليوم لا يستطيع المراقبون ان يزيدوا شيئاً على ما قاله ماركو بولو ... وهـذا الوصف ينطبق على امـارات الخليج وانحائه كلها خاصة في المـاضي . وهكذا نرى ان البيئة الطبيعية والاجتماعيـة قد حدّت من مطامـح السكان المحليين كما عرقلت ابناء الامم الاوروبيـة ، الذين دفعهم حب المغامرة الى هذه الاصقاع النائية .

في سنة ١٥١٨ كان البرتغاليون أول القادمين عندما جاؤوا بقيـادة « ألبوكيورك » واحتلوا هرمز وأقاموا فيها وحصنوها قبل ان ينطلقوا منها لاحتلال الشاطىء الغربي حتى البصرة . وفي اواسط القرن السادس عشر بين سنة ١٥٥٠ م وسنة ١٥٥٢ م عاش المغتصبون البرتغاليون اياماً عصيبة بعد ان اقلق القرصان التركي «بيريك» راحتهم ونكد عيشهـم باسطوله وجيشه الذي بلغ ستة عشر الف بحار ...

لقد دفعت الحماسة بهذا الربان الجريء الى مهاجمة مسقط اهم قـاعدة برتغالية ونجح في غزوها ونهبها وعاد يجر معه ستين اسيراً ليتبختر امام هرمز مباهياً بقوته دون أن يجرأ البرتغاليون على ان يحركوا ساكناً . وعندما عجز عن احتلال القلعة الشهيرة في المدينة اكتفى بنهب كل شيء وصلت إليه يداه وعاد القرصان التركي الى قواعده سالماً . ولما وصل وشاع مـا ارتكبه اثار هذا العمل غضب الملك فجمع الاساطيل من الهنـد وشرقي افريقية ليقضي نهائياً على القرصان الجريء . وبعد سنة استطاع الاسطول

البرتغالي ان يقضي على القسم الاكبر من الاسطول التركي ليثأر مما الحقه « بيريك » بالمستعمرات البرتغالية من اضرار وإزعاج . غير ان هـــذا الاخير كان قد قطع رأسه في الآستانة قبل ذلك التاريخ بقليل لمخالفتـه اوامر الصدر الاعظم وتمرده عليه وطموحه الزائد ...

وفي نهاية القرن السابع عشر ، اصبح عدد القراصنة كبيراً الى درجة انك كنت تخالهم يشتركون في حرب بحرية حقيقية . وفي سنة ١٦٩٥ م تحدث زائر عن سكان الخليج : « فقال انهم يتشردون متجولين إن في البر او في البحر . وهم يسعون دائماً لطرد البرتغاليين بعد سلبهـــم . ولا يتخوفون من العراك اذا كان لا بد منه . بل يعلمون ان حصيلة ذلك ليست سوى اللـكم والضرب . وانما يفعـلون ذلك لتطهـــير الاماكن المكشوفة من الشواطىء التي لا حراسة قوية فيها ... »

غير ان هذا السباق في ميدان القرصنة لم يكن وقفــاً على العرب وحدهم . ففي الفترة بين ١٦٩٥–١٧٠٠ م أمّ هذه البحــار قراصنـــة اوروبيون وعلى رأسهم القرصان المشهور « كابتن كيد » الذي كان ينطلق الى الغزو البحري من قاعدته في جزيرة مدغشقر . وصار القراصنـــة الاجانب يتعاركون فيما بينهم على الغنائم والاسلاب ، فاصبحت الحـــالة فائقة الخطورة بالنسبة للتجارة البحرية الدولية مما حمل المتنافسين الكبار الفرنسيين والهولنديين والانجليز في فجر القرن الثامن عشر على التعاون فيما بينهم لمواجهة خطر القراصنة الذي اصبح لا يحتمل ؛ فأخذ الهولنديون عـــلى عاتقهم مراقبة البحر الاحمر ، والانجليز بحـار الهند الجنوبيـــة والفرنسيون الخليج العربي . وذلك لان شركة الهند الشرقية الفرنسيـة التي تأسست عام ١٦٦٤ كان لهـا مستودع في بندر عبّاس . وعلى الرغم من ان الهولنديين كانوا مسيطرين على السوق يحتكرون التجارة فإن الفرنسيين كانوا قد تمكنوا في ذلك الوقت من توسيع اعمالهم في الخليج والمحيط الهندي . وكان من المهم للتجارة الفرنسية المزدهرة في المشرق

ن لا تترك نفسها تنقطع عن الشرق بسماحها لدولة أخرى بأن تنافسها في السيطرة على الخليج العربي .

قراصنة لا يرحمون

لقد أعطى تقاسم المسؤولية في ملاحقة القراصنة خلال القسم الاول من القرن الثامن عشر فوائده المرجوّة . غير ان القراصنة لمواجهة ذلك عمدوا الى القسوة وأعمال الارهاب ... وكانت اعمالهم وحركاتهم مزيجاً من معارك أهلية أثاروها بين القبائل والامراء الذين وصلوا الى مستوى معيّن من العظمة او غارات بحرية ، كما كان يحدث في مراحل النزاع البحري ...

وحوالي سنة ١٧٥٠ ذاع صيت ربّان جديد لا يكلّ ولا يملّ ولا يهاب ولا يخاف هو الامير « مهنّا » كان هذا يعمل في البداية قرب مدينة بوشير على الساحل الايراني ثم في منطقة جزيرة الخرج . وكما يقول « مالكوم » كان مهنّا رجلاً عظيماً على جانب عظيم من الاهمية إن من حيث القوة والشجاعة أو من حيث الدهاء والمكر » . ويزيد على ذلك انه ما كان يتردد مطلقاً في سلب المراكب البريطانية ومهاجمة الهولنديين القابعين في حصونهم بجزيرة « الخرج » وانتهى هذا « السفّار » الجريء نهاية سيئة جداً فقد اعتقله الاتراك وقطعوا رأسه وعرضوه في شوارع البصرة على الناس ليشهدوا ما حل به .

وفي النصف الثاني من القرن الثامن عشر تضاعف نشاط الخارجين على القانون في البحر ... الى درجة اصبح معها السفر بحراً في سبيل التجارة عملاً يقود الى الكوارث . وذلك لأن قبيلة « كعب » القادمة من اواسط شبه الجزيرة العربية قد تمركزت شمالي الخليج العربي ؛ وفرضت سيطرتها على منطقة شط العرب . وكانت لا تتوقف عن شيء وتطال يداها كل ما تصل اليه من خيرات . وبعد ان عجز شاه ايران عن القضاء عليها حاول ان يستخدمها ضد الامير مهنا الذي

يزعجه في منطقـــة الخرج . ولم يُوفـّر الكعبيون السفن البريطانية في غاراتهم . ولما عجزت بريطانية عن مواجهتهم استنجدت بالسلطنة العثمانية ومع ذلك لم تثمر جهود الدولتين العظيمتين مع الكعبيين وبقوا اسياد القسم الشمالي من الخليج العربي ردحاً من الزمن ..

وفي الوقت نفسه كان القواسم في الجنوب قـــد بدأوا نشاطهم واصبحوا قوة مُهابة أعطت اسمها لهـــذا القسم من الخليج « شاطىء القراصنة » واعتنق هؤلاء المذهب الوهابي الذي كان قد رأى النور في نجد وأخذوا يقومون باعمالهم تلك وهم مرتاحو الضمير لأنهم انما يفعلونها لتحرير بلادهم ورفع شأن مذهبهم الديني الذي اعتنقوه . ويقول « ملكوم » على لسان مرافقه العربي عنهم مـــا يلي : « انهم ينتسبون الى الطائفة الوهابية ويُدْعون القواسم . ليَحمنـــا الله منهم لانهم مُخيفون مهنتهم الحرب ولذّتهم القتل . وهم في كل اعمالهم هـــذه يعطون اسباباً دينية لكل عمل يرتكبونه . وهم متقيّدون بحرفيّة الكتاب . لا يقبلون اي تفسير او تأويل او تقليد . ولو كنت سجيناً مأسوراً من قبلهم وقدّمت لهم كل مـــا تملك مقابل حياتك رفضوا ذلك بإباءٍ وشمم . وقالوا لك ان القرآن يأمرنا بأن لا نسرق الاحياء ... » وان دلّ هذا القول على شيء فانما يدلّ على ان هـــذه القبيلة التي استقرت على القسم الجنوبي من الساحل الغربي قد أدخلت الرعب والذعر والفزع الى قلوب البريطانيين اسياد البحار ... أنّ جرأة القواسم وقوتهم كانتـــا تنموان نسبياً مع نجاح الحركة الوّهابية في شبه الجزيرة العربية وعلى شواطىء الخليج . ولما تمكنت القوات المصرية – التركية من القضاء على سلطة الوهابيين ضعفت شوكة القواسم . ولكـــن في أواخر القرن الثامن عشر كان هؤلاء يمرحون في الخليج ويسيطرون سيطرة تامة على القسم الجنوبي فأقاموا قواعد لهم على جانبي الخليج ووضعوا فيهـــا قواتٍ ثابتة ؛ بينما كانـــ بنو كعب يسيطرون على القسم الشمالي من الخليج وشط العرب ...

في تلك الفترة لم يكن هنـاك مجالٌ للتحدث عن التعاون بين الدول الكبرى الاوروبية . اذ ان حرب السنوات السبع (١٧٥٦ — ١٧٦٣) ثم الثورة الفرنسية وما تبعها من حروب نابوليونية جعلتا من بريطانيـة وفرنسة قوتين متنازعتين متنافستين في الخليج الزمردي حتى سنة ١٩٠٤ تاريخ توقيـع « الاتفاق الودّي » . وحتى هـذا الاتفاق نفسه لم يُوَفّق ايضاً الى مسح هذا التنازع في هذه البقعة الحسّاسة من العالم . والبرتغاليون كانوا قـد تواروا تقريباً عن المسرح الدولي . وأما الهولنديون فكانوا قد هجروا تلك الديار . وفي سنة ١٧٥٩ م قصفت البحرية الفرنسية بندر عباس وأخرجت البريطانيين منها . وخلال الحكم البونابرتي أرسلت بعثة « اوليفية » ثم بعثة « بروغويّار » ثم بعثـة « لسكاري » التي فتحت لنابوليون طريق الهند على طول الخليج العربي كما يقول السيد « فورون ». أما ردّة الفعل البريطانية على هذا الخطر الداهم فكانت عنيفة وقاسية .

بسبب هذا التنافس والنزاع بين بريطانية وفرنسة أخذ الامراء المحليون في الخليج يعملون بحرية اذ تنفّسوا الصعداء وعظُم شأنهم حتى ان احدهم السيد سعيد من عائلة ائمة عُمان استولى سنة ١٧٩٣ على مسقط ثم على ساحل عُمان والاراضي المقابلة له على الشاطىء الايراني وبلوخستان .

التدخل البريطاني

في سنة ١٧٨٩ نجح البريطانيون في عقد اتفاق مع سلطـان مسقط الجديد مُوجّهٍ من فرنسة النابوليونية وضد الهولنديين الملحاحين ...

وفي تلك الفترة كانت الغارات التي يقوم بهـا القواسم لا تُطاق بعد ان أصبـح كل شاطىء الخليج الغربي تحت سيطرة الوهابيين . وكان شأن كبير لطبيعة الساحل في الجهة الجنوبية الغربية .

ان هذا الساحل المعروف بساحل القراصنة منخفض وكثير المستنقعات تنتشر فيه المخابىءُ التي لا تؤخذ . وفي هذا القسم من الخليج لا يتجاوز

العمق ابداً ثلاثين متراً . وفي اغلب الاحيان يقارب عشرة امتـــار . وهو كثير النتوءات والحواجز الرملية والجزُيرات الصخرية . ولاكتشاف هذه المناطق يجب ان يكون الرائد مزوداً بمعلومات مفصلة عن الخطوط والتعرجات التي يجب ان تتبعها المراكب ، والمراكب الصغـــيرة فقط ، ليتسنى لها الوصول الى الشاطىء . اضف الى ذلـك أنه كثير التعاريج والفجوات كأنها بعض شواطىء اسكندينافية . وخير مثال لها خليج مسقط..

من معاقلهم هذه التي لا تُؤخذ في الشارقة ورأس الخيمة استطاع القواسم ان ينكدوا عيش البريطانيين طيلة قرن من الزمان وقــد ارغموا البريطانيين لكثرة ما قاموا به من تخريب ان يوجهوا الى الخليج حملات اكبر فأكبر دون فائدة تذكر حتى سنة ١٨٢٠ تـــاريخ توقيع الهدنة التي سبقتها مذبحة حاسمة .

في سنة ١٨١٠ إثر حملة قـــاسية اخلد القواسم للهـــدوء النسبي . غير ان هذا الهدوء كان لتعبئة القوى وتجـــديد الاسطول الذي كان يضمّ في ذلك الوقت بين ستين وسبعين سفينة حربية مطاردة مصفحة ، يضاف اليها نحو من ثمانمائة مركب صغير . وكان عربُ الخليج بهـــذا الاسطول يتحدّون اكبر البوارج البريطانية المقاتلة واحدثها تسليحاً ...

لقد كان القواسم لا يرحمون في معاملتهم كما انهـــم كانوا لا ينتظرون أية شفقة من احد ... وكانوا بعد استيلائهم على احـــد المراكب يقضون على الاسرى كما يذبحون الأنعام . وقد لاقى عدد كبير من بحارة السفن البريطانية هذا المصير الاسود . وكان القواسم اثناء الهجوم يرقصون ويهزجون ويرددون اناشيد الموت بينما كانوا يشهرون مختلف انواع الاسلحة . وكانوا يبعثون الخوف والهلع بشجاعتهم . وبما انهم لم يهادنوا احـــداً ولم يعفوا عن احد ؛ لذلك كانوا يستغربون بقاءهم على قيد الحياة اذا قادتهم مغامراتهم الى الوقوع أسرى في ايدي الانجليز ...

ان الانجليز لم يقصروا مطلقاً في اتباع القسوة نفسها مع اولئـــك

القواسم الذين نكدوا عيشهم وسدّوا ابواب الخليج في وجوههم ...

فقد وجهوا سنة ١٨١٩ م حملة كبرى تساندها قوات سلطان مسقط على معاقل القراصنة واحتلوا «رأس الخيمة» بعد حصار دام عدة أيام وهدّموها وأتلفوا اسطولها . وإلى المصير نفسه انتهت المعاقل الأخرى وقضي على القواسم . وانشأ الانجليز مراكز دائمة للمراقبة في الخليج بعد توقيع اتفاق السلام العام في اليوم الثامن من كانون الثاني سنة ١٨٢٠ بين انجلترة ومشايخ شاطيء القراصنة وقد عُدّلت هذه المعاهد تعديلاً تاماً سنة ١٨٥٣ واستبدلت باتفاق السلام الدائم الذي وافقت عليه البحرين ايضاً ...

بالطبع لم يقض على القرصنة نهائياً وجذرياً من الخليج لأن هذه المعاهدة ليست سحر ساحر . وقد وقعت حوادث افرادية اثر ذلك حتى قبيل الحرب العالمية الثانية . وعلاوة على ذلك ما زال تهريب المواد الممنوعة من اسلحة وغير ذلك يستهوي القواسم وغيرهم ، ويثير فيهم روح المغامرة .

وآخر صورة مريعة لتلك الملحمة كانت صورة ذلك « السفّار » المخيف « رحمة بن جبر » الكويتي الذي ارعب المسافرين في البحر طيلة عشرين سنة . وهذا ما قاله بوكنغهام البريطاني فيه : « ان رحمة لا يكتفي بالقتل اثناء المعركة بل يذبح بكل برودة من يستسلم . وهذا المحارب البارع كان يعيش حياة بسيطة ولا يرتدي الا اليسير من الثياب حتى انه ما من غريب يستطيع تمييزه من رفاقه اذا ما سار وإياهم ... وقليلاً ما كان يخلع قميصه ليغسلها ... بل يبقيها حتى تتمزق ويلبس غيرها ... ومن حيث المظهر الخارجي كان رحمة بن جبر نحيل الجسم نحيف الاطراف ، تملأ جسمه آثار الجراح أما وجهه فقاسٍ خالٍ من معاني الجمال . ويزيده بشاعة آثار الجراح فيه وفقدان احدى العينين . »

ويمكننا ان نعطي هذه القطعة المختارة عنواناً : « الصورة النموذج

البحارة المحاربين في البحر الأخضر » . وهذا الوصف المدهش حقاً ينطبق على عشرات البحارة في الخليج العربي ممن تراهم في البصرة او البحرين . وبعضهم مع ذلك انتهوا الى ما انتهى اليه رحمة بن جبر ...

والجدير بالذكر ، بالنسبة الى الملاح المحارب الذي سيطر فترةً على الخليج ، رحمة بن جبر ، بأنه عندما رأى الدائرة ستدور عليه وأيقن انه لا محالة هالك فجّر هو بنفسه مركبه وألحق الهلاك ببحارته واعدائه عملاً بالقول المأثور : عليّ وعلى اعدائي يا رب . »

وبعدَ رحمة بن جبر لم يعرفِ الخليجُ ربابنة محاربين . وكانت نهايته بداية عهد استقرار اذْ ان البحارةَ في اغلبهم اخلدوا الى السكينة تراقبهم عين القنصل البريطاني العام في بوشير .

البترول يقضي على القرصنة

منذ سنة ١٧٦٣ وهو تاريخ انشاء اول مركز تجاري حتى سنة ١٩٤٦ تاريخ انتقال المقيم البريطاني العام الى البحرين ، ظلت مدينة بوشير المركز الحساس للنشاط البريطاني ، وخاصة بعد سنة ١٧٧٨ عندما اصبحت المركز العام للقوات المسلحة ومكان اقامة الممثل البريطاني السياسي . في هذه الفترة وفي بوشير بالذات عقدت سلسلة من المحالفات الواقية بين بريطانية ومشايخ شاطىء رأس الخيمة والشارقة الذي تحول اسمه الى شاطىء الهدنة ، ومشايخ البحرين والكويت وقطر وامير نجد .

والتنافس الانجليزي — الفرنسي وحده هو الذي حال دون تحويل كل هذه الامارات والمشيخات الى محميات بريطانية شرعاً بعد ان اصبحت فعلاً كذلك... والتفوق البريطاني لم يعد موضع بحث لا سيا بعد الاتفاق البريطاني الروسي في الواحد والثلاثين من آب ١٨٠٧ ؛ لأن هذه المعاهدة قسمت ايران الى منطقتي نفوذ الاولى روسية في الشمال والثانية انجليزية في الجنوب يفصل بينهما منطقة محايدة عزلاء في الوسط ... وفي

مطلع القرن العشرين كانت بريطانية سيدة الموقف على ضفاف الخليج . وفي ذلك الصباح الحار من ربيع سنة ١٩٠٨ عندما قذفت اول بـــئر بترولية في مسجد سليمان بأيران الى الفضاء الازرق سائل البترول الاسود معلنـــة في السادس والعشرين من ايار بداية عهد جديـــد في الشرق هو عهد البترول ، لم يكن لانجلترة منازع مخيف في الخليج الاخضر.. في الخامس والعشرين من تموز سنة ١٨٧٢ كان قد حصل احد رعايا صاحب الجلالة البريطانية من شاه ايران على اول امتيـــاز للتنقيب عن البترول رخص له بموجبه التفتيش عن الثروات المعدنية في الأراضي الايرانيـــة كلها ... وكان ذلــك الشخص البارون يوليوس دي رويتر . وفي سنة ١٨٩٩ أُلغي هذا الاتفاق لغرابته . واثناء ذلك كان عالم الآثار الفرنسي جاك دي مورغان قد أشار منــذ سنة ١٨٩٢ بوجود البترول في منطقة الحدود بين ايران والعراق ... وفي الثامن والعشرين من ايار سنة ١٩٠١ حصل وليم كنوكس دارسي — الذي كان قد اثرى من جريه وراء الذهب في استرالية — على امتياز للتنقيب عن البترول في ايران مدتـــه ستون سنة . وقد قيض لشركته التي سميت في البداية الشركة الانجليزية — الفارسية ثم الشركة الانجليزية — الايرانية ان تصبح في ظرف نصف قرن احدى دعامات العالم الرأسمالي المعاصر حتى تاريخ تأميمها من قبل المجلس الايراني سنة ١٩٥١ . ومنذ ان تحولت الى شركة الزيوت البريطانية اسهمت في اربع او خمس شركات بترولـيــة عاملة في الشرق الاوسط الأمر الذي يبرز بوضوح مدى ارتباط مصير بريطانية بالخليج العربي ...

ان الصناعة البترولية المزدهرة في الخليج ، اكثرَ من اية حملةٍ واي اسطولٍ حربي سريـــع ، هي التي قضت على اسطورة الغزو البحري وجعلتها من اخبار الماضي ؛ إذ أصبح تسعةَ آلاف عامل وفني يعملون في صناعة البترول بين كاتب ورقيب ومحاسب وميكانيكي عوضاً عن ان يَذْرعوا البحر بمراكبهم معرّضين أرواحهم للخطر . وناقلات البترول

التي تحمل هذا السائل الثمين الى البلدان الصناعية في اوروبة واميركية والتي يبلغ عددها نحواً من الف سفينة تشق اليوم مياه الخليج دون ان تُعير تلك المراكب الشراعية التي تصادفها اثناء مرورها ايّ انتباه... وفي الليالي الساكنة الحالكة السواد قد يتهادى الى الاسماع اصوات يحسبها التجار الاغرابُ صدى اناشيد الموت التي كان يطلقها القــواسم في الفضاء .. ولكن ذلك ليس إلا من قبيل الخيال ... وقد يكونُ ذلك الصوتُ استغاثة صيادٍ اصطدم مركبهُ الصغير بإحدى الناقلات فغرق . المهم في نظر الغرب ان الناقلات ما تزال في طريقها تحملُ من الخليج العربي ، خزّان البترول العالمي ، الى الدول الصناعية في العالم الغربي ، عصبَ الاقتصاد الذي لا تستطيع دولة في العصر الحديث الاستغناء عنه .

٣

التنافس الخفي

ليس هناك من يعلم افضل من مرازبتنا
الكبار لمــــاذا يخنق بعضنا البعض
(فولتير)

المعاهدات الأبدية

يمكن وصفُ المعاهدات التي عُقدت بين بريطانيـــا ومختلف امراء الخليج العربي خـــلال القرن التاسع عشر بأنها «مانعة وأبدية» اذ انها تنطوي جميعها على مادة تمنع الامير او الشيخ الموقّع على المعـاهدة من ان يتخلى او يؤجر او يرهن ، على أي شكل من الأشكال ولأي سبب من الأسباب قسماً من اراضيه إلا بإذن بريطانية الدولة الوصية التي تقدّم مقابل ذلك حمايتها لأمارات الخليج ومشيخاته . وهذه المعاهدات بالاضافة الى ذلك ليست مقيدة بوقت معين . ولذلك يمكن اعتبارها ابدية .

وهاتان الصفتان الغريبتان للمعاهدات البريطانية : المنع والأبدية أتاحتا لممثلي بريطانيا ان يتدخلوا بنجاح للإبقـــاء على حصة الأسد لبلدهم من خيرات الخليج .

ففي ايران حتى الحرب العالمية الاولى كما يقول السيد فورن بيعَ كل ما هو صالح للبيع مرتين عوضاً عن مرة واحدة . ويؤكد هو نفسه فيما

بعد بأن حاجة الشاه المستمرة الى المال جعلته يمنح الاجانب اي امتياز يرغبون . وقد استفاد الانجليز من هذه الفرصة السانحة فاشتروا حق المراقبة المطلقة على ايران الجنوبية المشرفة على الخليج العربي . ثم جاء الاتفاق الانجليزي ـ الرومي سنة ١٩٠٧ يثبت ذلك الحق ويعطيه صفة دولية .

ومع فجر هذا القرن كان العراق هدفاً لنشاط سري صامت توّجه الانتداب البريطاني بعد الحرب العالمية الاولى . ثم جاء مؤتمر سان ريمو للدول المنتصرة الحليفة يوطد دولياً حق بريطانية في السيطرة على الخليج .

ولم يكفِ الانجليز انهم أقاموا محطات أمينة لهم على طريق الهند خوّلتهم ان يحتكروا تجارة الهند مع اوروبة بل عمدوا الى الاهتمام بما يمكن استثماره في هذه المناطق التي لهم عليها حق السيطرة .

وحتى النهضة البترولية العامة سنة ١٩٣٥ كانت اجملُ الثروات وأهمُّها في الخليج تكمن في قاع المياه الخضراء عند حواجز اللؤلؤ أمام شاطىء الهدنة وشمالي البحرين . وقبل انتشار تربية اللؤلؤ المصطنعة كانت لآلىء الخليج الزمردي ذات شهرة عالمية . وحتى اليوم ما زالت لآلىء البحرين الوردية والمذهبة لا مثيل لها تدرّ على الخزينة كل سنة ملايين الروبيات على الرغم من تأخر هذه الصناعة عما كانت عليه في الماضي ..

ويجب ان نعلم بأن هذه المعاهدات المانعة الابدية المعقودة بين الامراء والمشايخ من جهة وبريطانية من جهة ثانية ، سرعان ما تبعها رسائل متبادلة تقضي بألا يصار الى اعطاء اي امتياز للبحث عن اللؤلؤ إلا بعد اخذ موافقة بريطانية على ذلك . غير ان بريطانية شعرت بسرعة ان الثروة الكامنة ليست هنا وجرّت الامراء الى اعطائها تأكيداً جديداً يحصر فيها اي امتياز للتنقيب عن البترول في الحاضر والمستقبل . وسوء التقدير لثروة المملكة العربية السعودية وفشل التكنيك الفني الانجليزي هما اللذان أدّيا الى خروج السعودية من نطاق النفوذ البريطاني للوقوع تحت وطأة النفوذ الاميركي . وفيما عدا

ذلك فان بترول الخليج بأمره في حوزة الجنيه الانجليزي .

الاندفاع الاميركي وراء البترول

لقد لفتَ اكتشافُ بئر مسجد سليمان سنة ١٩٠٨ ولا ريب انظار المختصين بالشؤون البترولية نحو الخليج العربي ... ولكن اكتشاف بئر كركوك في شمالي العراق غيّر وجهة النظر هذه وصرفها عن الخليج الى حد ما ... وقليلون هم الذين كانوا في ذلك الحين يقدّرون الخليج حق قدره ؛ بل إن اتفاق « الخط الأحمر » الذي عُقد سنة ١٩٢٨ بين الشركات المتنازعة صرف النظر مبدئياً عن هذه المنطقة .

ويجب ان ننتظر مدة ربع قرن لنرى محاولة مترددة للتنقيب في البحرين وثلاثين سنة ليبدأ العمل في السعودية وأربعين سنة لكشف ثروات الخليج على حقيقتها . اذ انه في سنة ١٩٤٨ فقط عُرف ان آبار الكويت والأحساء وقطر وجنوبي العراق هي اغنى الآبار البترولية في العالم .

كانت ايران في البداية اول بلدٍ منتج في الشرق الاوسط مع احتياطي ضخم ثم ما لبث ان تضاعف انتاج الخليج العربي باستمرار وبارقام مدهشة لا سيا في السنوات التي توقف فيها الانتاج الايراني بعد التأميم من سنة ١٩٥١ الى سنة ١٩٥٤ .

وفي سنة ١٩٥٨ اي بعد مرور نصف قرن على اكتشاف اول بئر بترولية في الشرق الاوسط انتجَ هذا الشرقُ مائتين وخمسة عشر مليون طن من بينها مئة وتسعون مليون طن اي نسبة ٨٨ ٪ من منطقة الخليج العربي . وفيما عدا كركوك وبعض الآبار الأخرى في شمالي العراق يمكن القول ان اضخمَ احتياطي في العالم موجودٌ في جوف الارض القاحلة على ضفاف الخليج . وقد دلت التقديرات الاخيرة على ان ثمانين بالمئة من احتياطي العالم من البترول موجودٌ في منطقة الشرق الاوسط في كل من الكويت والعربية السعودية والعراق وايران . وهذا التقدير لا يأخذ بعين

الاعتبار الاحتياطي الموجود في قطر والبحرين والمنطقة المحايدة الجنوبية ولا حتى امكانية اكتشاف آبار جديدة في مناطق عربية اخرى .

وإذا حذفنا ما يمكن ان تحمله انابيب البترول الى مرافىء طرابلس وبانياس وصيدا على الساحل الشرقي للبحر المتوسط ، وجدنا ان ما يتحول الى مرافىء الخليج يبلغ مئة وسبعين مليون طن في السنة يحتاج نقلها الى اكثر من ثمانية آلاف ناقلة بترول تجتاز الخليج العربي مارة بمضيق هرمز . وهكذا من حق بيير روندو ان يكتب في مؤلفه « مستقبل الشرق الاوسط » ما يلي : « لقد توجب على العالم في القرون الوسطى ان الشرق الاوسط سعياً وراء الحرير والملح والتوابل ؛ واليوم يجب ان يجتاز يؤمه سعياً وراء البترول . وقد ينزل البترول عن عرشه غداً او بعد غد . ولكن الذي لا ريب فيه هو انه اليوم السيد الذي لا منازعَ له ... » وهذا الشرق العجيب الذي كثرُ عنه الحديث على ألسنة الخبراء انما ينحصر اغلبه في الخليج العربي بصورة خاصة ، لان الخليج هو قلب الشرق الاوسط جغرافياً وبابه السحري وصندوقه الذهبي الرائع الذي يسيل له اللعاب .

لم تتوانَ الولايات المتحدة الاميركية ، الدولة الغنية الكبرى منذ البداية عن تقدير اهمية الخليج العربي ... وفي سنة ١٩٢٨ اخذ مهندسون اميركيون مستعربون يجوبون اطراف المملكة العربية السعودية بحثاً وراء الذهب الاسود ؛ وتعالى الهمس بأن العميل البريطاني السابق « هاري سان جون فيلبي » الذي اعتنق الاسلام كان يخدم المصالح الاميركية . وفي سنة ١٩٣٢ بدأت احدى الشركات الاميركية تعمل على الخليج في البحرين التي تركها الانجليز آنذاك مكشوفة دون دفاع ... وما ان تدفق البترول سنة ١٩٣٣ من آبار البحرين حتى تهافتت الشركات جميعُها كل واحدة منها تريد لنفسها امتيازاً على ضفة الخليج الغربية .

وبعد فترة طويلة من التفوق البريطاني الذي لا مجال للشك فيه نجحت الولايات المتحدة في خلق مركزٍ لائقٍ بها على ضفة الخليج . لقد وقفت

الشركات الاميركية طويلاً فيما مضى على ابواب الشركات الانجليزية منافستها ، تستجدي حصةً لها في بترول الشرق الاوسط . ولم تنل سوى حصة زهيدةٍ في شركة بترول العراق . وظلت السيطرةُ ومـا زالت للانجليز على هذه الشركة التي دخلت فيهـا شركتا نيوجرسي وسوكوني الاميركيتان شريكين على اثر اتفاق عُقد في سنة ١٩٢٨ حرَّم على اية شركة ان تسعى منفردة للحصول على امتياز للتنقيب داخل منطقة محدّدةٍ بخط احمر . وكانت هذه المنطقة تضم شاطىء الخليج الغربي ... امـا الشاطىء الشرقي فلا ... لأنه كان قد احتكر مسبقاً من قبل الشركات البريطانية .

ان الولايات المتحدة الاميركية تستهلكُ نصف انتاج العـالم كله من البترول وقد اقلقها وأقضَّ مضاجع الخبراء والاختصاصيين فيها تناقص الاحتياطي في بلادها . لذلك رأت نفسها مضطرةً الى السعي وراء آبار جديدة خارج حدودها . فحصلت على امتيـاز يضع تحت سيطرتها ثلثي انتاج فنزويلا البترولي . ثم جاءت الحرب العالمية الثانية فرصة سانحـة لها فنشرت نفوذها وسيطرتها على مناطق جديدة في الخارج . وكان عليها ان تمد يدها لمساعدة حلفائها الانجليز والسوفيات ضد المانيا النازية عن طريق الخليـج العربي عبر ايران ؛ وكان اقتصادها قد أتاح لها ان تتزعم العالم الغربي مكان بريطانية التي اصبحت في الدرجة الثانيـة ، فبدأت انطلاقها من المملكة العربية السعودية سنة ١٩٤٤ وحصلت على اربعين بالمئة من بترول ايران بعد حل ازمة التأميم ، وخمسين بالمئة من بترول الكويت . وصار توزيـع بترول الخليج مرتباً عام ١٩٥٨ كما يلي : ٥٦ بالمئـة للولايات المتحدة ٣٣ بالمئة لبريطانية ٦,٥ بالمئة لفرنسة و ٤,٥ بالمئة لهولندة . بينما كانت حصة بريطانية سنة ١٩٥٠ ٥٦ بالمئة والولايات المتحدة ٣٣ بالمئة .

وهذا كله يدلُّ على ان المقاييس انقلبت لمصلحة الاميركيين ... غير انَّ مركز بريطانية ما زال افضل ممـا تدل عليه الارقام . اذ انه في

الدرجة الاولى يستهلك القسم الغربي من اوروبة ٤٤ بالمئة من الانتاج ، وانجلترة وحدها تضع يدها على كمية تفوق حاجتها . واهم من ذلك ان بريطانية ما زالت بفضل المعاهدات المانعة الابدية والامتياز العراقي الذي منح في عهد الانتداب الانجليزي على العراق تحتفظ بسيطرة سياسية هامة على الثروات البترولية . فلا تأميم البترول الايراني سنة ١٩٥١ ولا الثورة العراقية في الرابع عشر من تموز سنة ١٩٥٨ غيّرا تغيراً يذكر وضع بريطانية بالنسبة للولايات المتحدة .

نزاع مكشوف

تستطيع بريطانيا بمعاهداتها الثنائية ان تراقب عن كثب تصرفات الكويت وقطر والبحرين . وسواء كانت الشركة المستثمرة اميركية صرفة كما هي في البحرين او نصف اميركية كما هي في الكويت ؛ فإن عمليات الاستثمار خاضعة لموافقة لندن المسبّقة . وفي قطر والعراق تبلغ حصة بريطانيا وهولندة ٤٧٫٥ بالمئة فقط والادارة العليا للاعمال هي في ايدي البريطانيين دون سواهم ... واذا تمّ في يوم من الايام نوع من التكتل الاقليمي الاوروبي ترجح حصة فرنسة من بترول العراق وقطر الكفة الاوروبية .

وفي ايران اخيراً قضى الحل النهائي للخلاف الذي استشرى منذ التأميم سنة ١٩٥١ بأن يقوم باستثمار بترول ايران ابتداء من سنة ١٩٥٤ كونسورتيوم دولي من الشركات البترولية العالمية تحتفظ فيه الشركة الانجليزية الايرانية بـ ٤٠ بالمئة وشركة شل بـ ١٤ بالمئة مما يجعل كفة البريطانيين هي الراجحة بما في ذلك حصة هولندة . واذا أضيف الى ذلك حصة فرنسة وهي ٦ بالمئة بلغت حصة اوروبة الغربية ٦٠ بالمئة . وليس هناك سوى بترول العربية السعودية في منجى من السيطرة البريطانية اذ عرفت الولايات المتحدة الاميركية كيف تحتكره لنفسها ...

ان هذه التفسيرات السريعة ضرورية لا يستغنى عنها . ويجب ان تسبق الوصف المفصل الذي سنعطيه لهذه المنطقة . اذ انها هي وحدها تتيح لنا ان نفهم في اي جو محموم من الدسائس والمكايد والصراع المميت يعيش الخليج العربي العائم فوق بحر من الذهب الاسود .. . ووراء الخلافات التي لا تنتهي على الحدود بين المشيخات والامارات نستطيع ان نتبين تضارب المصالح بين الدول الكبرى الحليفة في اشخاص الشركات البترولية . وكثيراً ما يسمم التضارب العلاقات الدولية ويجعل من الاخوة اعداء . كل ذلك في سبيل الحصول على السائل الثمين حتى ولو كان على حساب اصحابه الاصليين الذين هم احق به من سواهم .

المتنازعون وجهاً لوجه

من جزيرة « بيريم» على مضيق باب المندب على البحر الاحمر حتى قاعدة شبه جزيرة قطر في الخليج العربي تمتد اراضٍ عربية تخضع كلها للسيطرة البريطانية . والى اقصى الشمال تقوم الكويت لؤلؤة الخليج . وبعد محمية عدن تأتي سلطنة مسقط وعمان ثم شاطىء الهدنة وقطر الداخلة في البحر كأنها لسان اصفر يحيط به إطار من الياقوت الصافي ... وبعد قطر تأتي الأحساء واجهة السعودية على الخليج . وهي ضيقة محصورة تراقبها جزر البحرين الخضراء ... وفي البحرين يقيم ممثل الحكومة البريطانية الذي تمتد سلطته بنعومة الى الأمارة الكويتية الواقعة في الشمال .

وعند مسقط يبدأ عالم الخليج الغني الذي تتصارع فيه الاطماع البترولية وهناك عفريت شرير يسمم باستمرار رؤوس اولئك الذين يفتشون عن الذهب ويحرضهم بعضهم على بعض دون ان تنجح التهدئة في تخفيف حدة التنافس بين الجيران والاهل ...

وفي هذا العالم المصغر ليس التاريخ إلا سجلاً للتزاحم على الحكم

والنزاع القبلي والتحالف الموقت لمواجهة عدوٍ مشترك او للقضـــاء على فريق ثالث ... والمفهوم المقصود بكلمة حدود كما يفهمه الاوروبيون وكما اكده القانون الدولي الحديث ليس له اي اعتبار في هـــذه المنطقة من العالم . وكلمة حدود المبهمـــة في المفهوم العربي لا تفي بالمقصود الذي يبغيه الاوروبي من هذه الكلمة . ومع ذلك يجب ان تُعرف الحـدود معرفة دقيقة قبل منح اي امتياز للتنقيب عن البترول ، ولكن هذا لم يحصل على ساحل الخليـج العربي مطلقاً ...

وفي امكاننا ان نتصور النزاع الذي قد ينشب بسبب بعض الكيلومترات المربعة اذا ما تفجر البـترول فيها . وهذا ما يحدث بالفعل في منطقـة الخليـج حيث الحدود المتفق عليها لا وجود لهـا ... وحيث المستثمرون واصحاب الأراضي يسعون دائمـاً الى توسيع نطاق عملهم ويتصورون حدودهم ابعد مما هي ؛ وذلك اعتقاداً منهم بأن ثروتهم البترولية ستزيد . والنزاع الدائم يزداد خطورة عندما يتمسك كل فريق بحقوقـــه ويحاول اظهار حسن نيته مقدماً المستندات التي تجعل الحق الى جانبه . والمعركة تظهر واضحة بين الدولار والسترليني كما كانت في المـــاضي بين روكفلر (ستندارد) وديتر دنغ (شركة دوتش شل) أو اذا اردنا بعبارة اخرى بين المملكة العربية السعودية والامارات والمشيخات الواقعة على شاطىء الخليـج .

وفي العربية السعودية لا يعترف الامتيـاز الممنوح للشركة العربيـــة الاميركية للزيت (ارامكو) بوجود اية حدود على الخليج غير حـدود المملكة الوهابية وقد نشرت الشركة الاميركية مصوراً جغرافياً لتلك المنطقة يجعل من امارات الخليج ومشيخـاته الخاضعة للنفوذ والسيطرة البريطانيين مجرد خطوط على شاطىء الخليج على الرغم من ان الامتيازات البترولية على طول الساحل الجنوبي الغربي من سلطنة مسقط وشاطىء الهدنة وقطر كلها معطاة لشركات بريطانية متفرعة عن شركة بترول

العراق او شريكة لها ... وقطر وحدها بين هذه الاقطار هي التي بدأت تنتج منذ سنوات والتنقيب في الاقطار الاخرى ما زال مستمراً بصورة واسعة . وهذا يعني بالطبع ان المصور الذي وضعته الشركات البريطانية يختلف عن ذلك الذي وضعته الشركات الاميركية ، ويجعل حدود الامارات بعيدة الى الداخل بشكل ينتزع من الشركة الاميركية ثلث امتيازها ...

ان المسألة فائقة الاهمية لأن موضوع النزاع هو منطقة تبلغ مساحتها اكثر من ثلاثماية الف كلم مربع. ومن هنا وهناك يعمل المنقبون الانجليز والاميركيون . وعندما يلتقون ببعضهم ينفجر النزاع . وما اكثر المناوشات التي تقع بينهم هناك . ولكنها مناوشات لم تصل الى درجة الخطورة والاهمية لتتحدث عنها الاذاعات والصحف العالمية وهي كافية لتجعل الجو هناك ملبداً بالغيوم ، دائم التوتر .

هذا وقد وصل هذا النزاع بين الطرفين الى ذروته سنة ١٩٥٢ بشأن واحة البريمي حيث وقع الاحتكاك بين المتنازعين المتنافسين ...

واحتلال القوات البريطانية-العُمانية لهذه المنطقة موضوع الخلاف سنة ١٩٥٥ لم يحل دون استمرار المملكة العربية السعودية بمساندة شركة الأرامكو في المطالبة بحقها الطبيعي في واحة البريمي التي يقدر المنقبون وجود احتياطي بترولي عظيم فيها . ومنذ ذلك الحين رأينا الثورة الشعبية ضد الانجليز والسلطان المحلي في عُمان تشتد وتقلق راحة البريطانيين مدعومة بدون شك باموال الشركة الاميركية والمملكة العربية السعودية .

وتبدو هذه المناورات بالنسبة لمن ليس له إلمام ببواطن الامور غير مفهومة . وقد يحسب ان ما نقوله هو محض اختلاق . غير ان اروع رواية من روايات المغامرات الشهيرة تظهر في الواقع تافهة ازاء الحقائق الصارخة عن الاصطدام الخفي بين المصالح البترولية المتضاربة المتنافرة على شواطىء بحر الزمرد .

وهذه الحقائق لا يستطيع التوصل اليها المراقب الاجنبي بسهولة لأن دخول المراقبين الاجانب محظور الى تلك المنطقة . وحرب البترول لا تسمح مطلقاً بوجود مراسلين حربيين . ومن حين الى آخر تبرز مع ذلك مشكلة خطيرة كمشكلة البريمي وثورة ُعمان لتلقي ضوءاً على جانب من المعركة السرية المحتدمة بين الانجليز والاميركيين ؛ والغلبة فيها كما يُلاحظ لن تكون لهؤلاء او اولئك بل للاتحاد السوفياتي الذي يتربص بالحليفين المتنافسين الدوائر لينقض في الوقت المناسب .

فليتابع الانجليز والاميركيون صراعهم الرياضي حتى يخرجوا معاً لأن ذلك من تقاليد الخليج . وقد عاش مراراً صراعاً كهذا وانتهى الصراع باقصاء المتصارعين جميعاً .

٤

سَطحٌ قاحِلٌ وَجَوفٌ غنيٌّ

الساحل الايراني

ان المراقبَ الذي لا يعنيه الاثر مباشرةً يقبلُ بصعوبةٍ هذا النزاع المستمر بين الانجليز والاميركيين في الوقت الذي ينصرفُ فيه الاتحاد السوفياتي الى تحقيق احلام بطرس الاكبر في الوصول الى الخليج العربي والمياه الدافئة ... لقد استطاعَ الغرب بعد جهود طويلة بفضل تعاونه ان يُبقي المارد السوفياتي خارج الحدود الايرانية . ولكن الوصوليةَ السائدة لدى الغرب ومحاولة بريطانيا احتكار ثروات الشرق من جانب وكبرياءَ الولايات المتحدة الاميركية وعدم تنازلها واقرارها لبريطانية بما تسعى اليه من جانب آخر سيقود الغرب حتماً الى مستقبل مظلم اذا لم تتبدّل السياسة المتّبعة في هذه المنطقة الحيوية من العالم .

واذا اردنا لهذا الصراع العنيف بين الدولتين الحليفتين تفسيراً وجدناه في ضخامة الثروة البترولية المكتَشَفة التي لم يستطع الكبارُ حتى الآن ان يجدوا لتوزيعها حلاً يُرضي جميع الاطراف المعنية كما حصَل في ايران والعراق وقطر او في الكويت حيث تقاسمها الانجليز والاميركيون مناصفة في شركة بترول الكويت .

وعلاوةً على ما اكتُشفَ حتى الآن ما زالت منطقةُ الخليج العربي

تحوي اضخم احتياطي للبترول في العالم .

من شبه جزيرة قطر الى سفوحِ جبـال خوزستان نصفُ دائرة من الأرض الجرداء التي تغسلها مياه الخليـج تحوي في جوفها هذا الكنز الكبير الدفين . وقد استدعت التصفية النهائية للامبراطورية العثمانية التي كانت تلقّب بالرجل المريض ، اقامة بعض الحدود والدويلات ، جاءت المصالح البترولية فيما بعد تثبّتها وتدعمها وتزيد عليها ... ولكن على الرغم من كل ذلك ما زالت هناك مناطقُ مبهمة الحدود . واذا وضعنا الحـدود جانباً وكلها مصطنعةٌ خلقتها الظروف والمصالح وجدنا ان هذه المنطقة البترولية على الخليـج العربي تضم اكبرَ ثروة بترولية يحلم بها العالم .

كذلك هناك في ايران آبارٌ ممتدة على طول الساحل الشرقي للخليـج . وفي منظر بديـــع تتتابعُ من « غاش سارانــ » و « آغاجاري » و « حافت كل » و « مسجد سليمان » الى « لالي » على طول الساحل من الجنوب الشرقي الى الشمال الغربي على مسافـة بسيطة من الشاطىء تتراوح بين ثمانين ومئة وخمسين كيلومتر . وحتى لا نتكلم الآن عن الآبار المهمة نذكر ان بئر مسجد سليمان التي ما زالت تنتج منذ سنة ١٩٠٨ هي رمز ماضٍ مجيد . وآغاجاري بلغت ١٩٥٨ و سنة ١٩٥٩ نسبة عالية في الانتاج تجاوزت اربعين الف برميل يومياً . وغاش ساران تشير دلائلها الاولى الى انها بئر غزيرة . والمشكلة الوحيدة في تلك البقعة هي صعوبة المسالك وتركيب الطبقات الارضية ...

ان هذه الآبار الغزيرة جميعها كناية عن جيوب نصف دائرية سطحية كثيرة الحواجز . والشبكة المعقدة للطرقات الضيقة تتصاعد وتلف مع المنحدرات العامودية التي تذكرنا بالجبال الروسية . وهذه التجعدات الغربية تتلون بألوان عديـــدة حسب ساعات النهار من وردية الى خضراء الى حمراء . وفي السهل الذي يمتد عند اقدامها تكافح الرمال لتطغى على قسم باقٍ من ارضٍ بخيلة . وفي الليل ترى الجبل كأنه شعـــلة من نار دائمة

الاشتعال لكثرة ما يتصاعد من غاز فوق آبار البترول .

ان هذا المشهد فخم ومؤثر . وعندما نطير فوق هذه المنطقة البترولية التي تشكل مثلث عبادان مسجد سليان غاش ساران ، على علو منخفض . نكتشف سهلاً كثير المستنقعات فيه شبكة من الحفر والاخاديـد المعقدة تملأها المياه الخضراء... والتلال البترولية العارية التي حفرت فيها الميـاه شبكة من الاخاديد تنجو بعنفوان بعد جهد يأس للهرب مـن الصحراء القاسية . والمشهد بمجموعه مؤثر ويعجز عنه الواصفون ، لكنه كثير التشويش . وقبل خلق العالم كان يجب ان تكون الارض كلهـا مشابهة لهذه البقاع الشاسعة القاحلة حيث الرياح والرمال والصخور والامـــلاح والجبال والسماء ممتزجة لا تعرف الانفصال عن بعضها كما هي الحـال في العالم المألوف .

وعلى الرغم من هذا البخل ، هناك قسم من هذه المنطقة في جهات قارون بصورة خاصة عرف في الماضي ثروات طائـــلة سواء اتبع دولة عيلام في فارس او عندما خضع للدول التي قامت ما بين النهرين ... وقد وضعت الحكومة الايرانية حالياً مشروعات اصلاحية جبارة جريئة لاعادة الحياة الانسانية والزراعية في منطقة خوزستان . غير ان القسم الجنوبي من الساحل اية كانت المشروعات سيبقى حتماً صحراوياً في اكثر اجزائه وستبقى المرتفعات الجبلية الكثيرة الجفاف مسرحاً للمواشي فحسب ، لاسيما الماعز ، هذا الحيوان الذي يألف حياة الجبال...

ان البترول الايراني الذي يستخرج من هذه المنطقة بنسبـة مليون برميل كل يوم (احصاء سنة ١٩٥٩) يسيل الى انابيب مصفاة عبادان الضخمة حيث نجد بالقرب منها مرفأين بتروليين هما بندر ماشور والخرج . وطالما فاخرت عبادان بمصفاتها التي كانت تعتبر اكبر مصفاة في العالم ، وما زالت هذه حتى يومنا هذا من أكبر المصافي العالمية واهمها . وهناك عنـــد ملتقى نهر قارون بشط العرب حيث تعج المنطقة بالناس تطورت

الحياة وتقدمت المدنية تقدماً لا مثيل له على الرغم من ان مناخها حار جداً لا يطاق . فقد جمع الانسان هناك اكمل الوسائل لاستثمار البترول وثروات الارض . ولكنه في الوقت نفسه لم ينس ذاته ليموت من التعب والحر والضجر بل أعد لنفسه وأسرته جميع اسباب الراحة والسعادة والترفيه .

العراق الجنوبي

على الضفة الغربية من مياه شط العرب ، على مسافة خمسين كيلومتراً في خط مستقيم توجد بالقرب من البصرة التاريخية آبار البترول في العراق الجنوبي حول الزبير والرميلة . وهي احدث آبار في العراق لأن الأولى اكتشفت سنة ١٩٤٨ والثانية سنة ١٩٥٢ مع العلم بأن آبار كركوك تنتج منذ سنة ١٩٢٧ . وآمال العراق اليوم تنصبّ كلها على هذه الحقول الجنوبية اذ انه خلال خمس سنوات فقط ارتفع الانتاج فيها من ١٣٧ الف طن الى ثمانية ملايين ونصف المليون من الاطنان . وقد وصل عام ١٩٥٨ الى احد عشر مليون طن . ولا يعيق نمو الانتاج وزيادته سوى صعوبات النقل . وقد وضع من أجل تأمين نقل الكمية المستخرجة مشروع يقضي بانشاء جزيرة اصطناعية في الخليج امام مصب شط العرب تكون فيها نهاية خطوط الأنابيب ومنها تأخذ الناقلات الكبرى هذا البترول الى الاسواق العالمية لا سيما اوروبة الغربية وانجلترة على الأخص . وذلك بالاضافة الى مرفأ «الفاو» على مسافة خمسة كيلومترات من مصب شط العرب في البحر ..

ان انابيب البترول تمتدّ كالأفعى في صحراء مسطحة غبراء اللون تكوّنت مع العصور الطويلة بفضل ما يدفعه البحر الاخضر من رمال وما يحمله دجلة والفرات وقارون من مواد غرينية ورواسب ... وآبار البترول المنتجة موجودة هي الاخرى في الصحراء نحو الغرب على مسافة

بضعة كيلومترات من مدينة البصرة الجميلة الرابضة بين ملايين اشجار النخيل التي قال فيها الرحالة البندقي ماركو بولو انها تعطي أجود تمر في في العالم .

ان الارض التي تنتج البترول في العراق الجنوبي تشبه الى حد بعيد الأرض في الكويت ووسائل الاستثمار متشابهة ايضاً لتماثل البيئة الطبيعية .

الكويت الغنية

لم تتجمع الشروط التي من شأنها ان تجعل الثروة متوفرة في اي مكان كما تجمعت هنا في الكويت . وقد اكتُشفت اقدم الآبار «الاحمدي» و«البرقان» و «مقوع» جنوبي الجون الذي تقوم عليه مدينة الكويت التي أعطت اسمها للامارة كلها . وكلمة الكويت هي تصغير كلمة «كوت» أي الحصن الصغير . والحقول البترولية المنتجة توجد على مسافة خمسة عشر كيلومتراً على الاكثر من الشاطىء وعلى ارتفاع يقارب اربعماية قدم عن سطح البحر مما يتيح للبترول ان يندفع بقوة في الانابيب ليصب مباشرة في الناقلات الراسية في ميناء الأحمدي ... وثروة هذه الحقول تنافس ثروة الحقول السعودية على احتلال المركز الاول في العالم . وقد أتاحت للكويت ان تضاعف انتاجها مضاعفة هائلة من ثمانماية الف طن سنة ١٩٤٦ الى خمسة وخمسين مليون طن سنة ١٩٥٦ والى سبعين مليون طن سنة ١٩٥٨ . وعلاوة على ذلك فقد دلت التنقيبات التي أجراها الخبراء مؤخراً على مسافة خمسين كيلومتراً من بلدة الزبير فقط شمالي الامارة على وجود البترول بغزارة . وبعد اجراء الحفريات اللازمة تدفق البترول من «الردحتين» ليزيد من ثروة الكويت . ومُدت انابيب لتصل هذه البئر الجديدة بميناء الاحمدي . وكذلك شمالي الجون اكتشف البترول في « بحرة » قرب الخليج وفي «صبريَّة » مقابل جزيرة « بوبيان » .

وعلى الرغم من كل هذه الكنوز التي تتضاءل امامها كنوز مغارة

علي بابا الشهير ما زالت الحيـــاة صعبة في الامارة السعيدة القائمـــة على الرمال بسبب افتقارها الى المياه العـــذبة الحلوة . ويمكن القول على حد رأي الخبراء ان الكويت التي خلقتها العناية الإلهية فوق رمال حامية على ضفاف الخليـج الاخضر ليست سوى اسفنجة مشبعة بالبترول ... لذلك صرف الجيولوجيون النظر عن حفر اية حفرة في الارض لاستخراج المياه لأنهم واثقون من ان ما سيتدفق انما هو البترول وليس المـــاء ... وقد استطاعت شركة البترول الكويتية بعد جهود جبارة مضنية ومصروفات طائلة ان تجر مياه السقي من مسافة خمسة وعشرين كيلومتراً بأنابيب الى مدينة الاحمدي من اجل انبات بعض شجيرات وحيدة لتلطيف الجو هناك غير ان الرياح الساخنة التي تهب من الصحراء لا تلبث حتى تجففهـا . وهي تظهر عن بعد كأنها بستان حقيقي اخضر غض وهـــذا الاخضرار العجيب الذي يعتبر معجزة في هذه المنطقة يترك اثراً فعالاً في نفس كل قادم . فهل ندهش بعد ذلك اذا عرفنا ان امير الكويت عندما زار باريس للمرة الاولى كان اول ما طلبه رؤية غابة بولونيا التي كان لها في نفسه كبير الاثر .

المنطقة المحايـــدة

هناك على الخليج العربي مناطق اردأ بمراحل من حيث المناخ ، وتبقى الكويت جنة بالنسبة لها . واهم هذه المناطق على الاطلاق المنطقة الواقعة الى الجنوب المعروفـة بالمنطقة المحـــايدة . وهي مظهر من مظاهر الشذوذ في العالم الغريب ، وتتألف من مربّع من الرمـــال والمستنقعات احتفظ به على شاطىء الخليج منطقة عزلاء عازلة بين المملكة العربيـة السعودية والكويت اثناء تخطيط الحدود بـين الامارة الكويتية ومملكة نجد سنة ١٩٢٢ . وهناك ايضاً منطقة محايدة اخرى بين المملكة العربية السعودية والعراق . ومن اجل التمييز بين المنطقتين يطلقون على الاولى اسم

المنطقة المحايدة الجنوبية او السعودية — الكويتية وتخضع ادارياً لحكم مشترك من الجانبين . وتكمن الفائدة الوحيدة من هذه المنطقة الكثيرة المستنقعات الصحراوية غير الآهلة في بئر بترولية اكتشفت سنة ١٩٥٣ في « وفرا » في قلب المنطقة المحايدة . ويجري بترولها في انابيب الى ميناء سعود للحصة السعودية والى ميناء عبد الله للحصة الكويتية ... وقد يجتاز بعض البدو هذه المنطقة فيستغربون وجود اولئك الاجانب الذين يتولون العمل في استثمار البترول الاميركي .

وهنا في « وفرا » على الرغم من بعض التجهيزات الفخمة البترولية كل شيء اصطناعي وموقت . وتبدو مدينة الاحمدي البترولية في الكويت بالنسبة لها احدى المدن السحرية التي تأخذ بمجامع القلوب . وليس ذلك إلا لأن المستثمرين رجالٌ قدموا من بعيد ليمتصوا بسرعة الدم الثمين للحضارة الحديثة ، هذا الدم الدفين في قعر ارض كانت لمدة وجيزة اجمل بقعة في العالم . وحالما ينتهون سيفرّ هؤلاء تاركين في قلب الصحراء انابيب خربة لا منفعة لها بعد الآن .

الاحساء المدهشة

الى الجنوب من المنطقة المحايدة يمتد في المملكة العربية السعودية شاطىء لا يقل جدباً عن الأراضي الواقعة شماله ، وذلك على طول مقاطعة الاحساء حتى يصل الى شبه جزيرة قطر .. وعلى مسافة ستين كيلومتراً الى الجنوب من « وفرا » التي لا تبعد هي الاخرى اكثر من خمسين كيلومتراً عن البرقان في الكويت تصل الى اول بئر بترولية سعودية « صفانية » وهي واقعة تحت الماء في القسم الاكبر منها . وقد اكتشفت هذه على الخليج سنة ١٩٥١ . ومن ثم تكثر التعرجات على الشاطىء الممتد الى الجنوب . ووراءه في الداخل تجد بئراً كل عشرة كيلومترات اهمها ابو حدرية — قطيف — الدمام — ابقيق — العظيمة ، واخيراً

بئر غوّار المدهشة اغزر بئر في العالم وهي تشمل مساحة مائتي كيلومتر مقسمة الى اربع قطاعات انتاجية : عين دار ، شدقوم ، عثمانية ، حرد .

وهنا في هذه المنطقة يبدد الجمود الصحراوي نشاط المراكز البترولية المتقاربة حول عاصمتها الظهران على مسافة بضعة كيلومترات من الشاطىء. وعلى الرغم من وسائل التبريد التي لجأ اليها الاميركيون في بيوتهم لم يتوصلوا الى القضاء على صعوبة العيش هناك ... ومن الظهران في امكاننا ان نرى البحرين الجزر المباركة حيث الاشجار الظليلة والماء الوفير .

وفي بعض الامكنة يُصبح انعدام وجود النباتات امراً لا يحتمل . لذلك تبذل جهود متواصلة في هذا المضمار ؛ غير ان هذه الجهود المبذولة وما ينفق من مال لاستنبات بعض الشجيرات لم يف كل ذلك بالمقصد مما حمل الاميركيين على اهمال مزارع التجارب التي اقامتها بعثات اميركية زراعية خلال الحرب العالمية الثانية . ومع ذلك داخل تلك المنطقة بين الغوار والخليج على مسافة ثمانين كيلومتراً من الشاطىء تقوم الهفوف اكبر واحة في اواسط المملكة العربية السعودية . وهي مشهورة بينابيعها الغزيرة التي ليس لها مثيل حتى انه في بعض اراضيها يزرع الارز الذي يحتاج الى الماء الوفير . والهفوف التي اتخذتها المملكة السعودية مركزاً للحاكم العام لهذه المنطقة البترولية هي الأرض الوحيدة الصالحة للزراعة في دائرة شعاعها يزيد عن مئة كيلومتر . وبالقرب من الشاطىء يمكننا رؤية اشجار النخيل الحمراء من الغبار تحني رؤوسها بخجل امام رياح الصحراء ...

ينقسم الانتاج البترولي السعودي الى قسمين : قسم يسيل في انابيب ضخمة (يتراوح قطرها بين ثلاثين واثنين وثلاثين بوصة) الى شاطىء البحر المتوسط الشرقي يبلغ طولها الف وثمانماية كيلومتر . وهذه الانابيب الضخمة تقطع بموازاة الخليج العربي مسافة ثلاثماية كيلومتر ثم تتجه غرباً الى صيدا على المتوسط لتنقل ٤٥٠ الف برميل في اليوم الواحد .

وقسم ثانٍ وهو الاكبر اذ يزيد على مليون برميل يومياً يسيل الى رأس تنورا على الخليج والى مصفاة كالتكس في البحرين بواسطة انابيب تحت الماء .

تنافس هذه المقاطعة السعودية الكويت على المرتبة الاولى في الاحتياطي البترولي وتأتي بعد امارة الكويت بقليل . الا انه يجب ألا ننسى ان شركة الأرامكو لم تنقب بعد إلا في قسم من الأراضي التي تدخل ضمن الامتياز الممنوح لها من قبل السلطات السعودية . ويشمل هذا الامتياز مناطق برية وبحرية تعادل مساحتها ضعف مساحة فرنسة !

البحرين الاسطورية

قبالة هذه المنطقة الواسعة التي لا يمكن ان يقدّر كنوزها او يحلم بها انسان في العالم تبدو البحرين كأنها أصغر امتياز لأضعف امكانات ، اذ ان مساحة الأرخبيل بأسره لا تزيد على خمسماية وخمسين كيلو متراً مربعاً. وليس بين الآبار ما يذكر سوى حقل صغير يدعى « العوالي » في وسط الجزيرة الرئيسية التي اعطت اسمها للمجموعة وهي البحرين . ان معدل انتاج العوالي سنة ١٩٥٨ هو اربعين الف برميل في اليوم الواحد، ويضاف الى البترول الخام الذي يأتي من المملكة السعودية ويُصفى كله في مصفاة كالتكس ويصدّر مصفّى من مرفأ « سترة » . واذ كانت جزر البحرين الصغيرة لا تحوي احتياطياً كبيراً غزيراً من البترول كالكويت والأحساء فانها تمتاز من جاراتها الجافة بانها محظوظة جداً بوجود المياه العذبة فيها التي جعلت منها العناية كل شيء حي . والقسم الشمالي من الأرخبيل تراه بصورة خاصة دائم الاخضرار بفضل ما ينساب فيه من ينابيع . ومن غرائب القدر في هذه المنطقة ان الماء الحلو العذب ينفجر ايضاً من قعر الخليج تحت الماء ... وبحر الزمرد الأخضر يزداد روعة في هذه المنطقة حيث لا تضاهيها اية روعة في اي مكان آخر

من الخليج .

وهنا على العكس من سائر المناطق الواقعة على الخليج العربي لم تقضِ صناعة البترول على صناعة صيد اللؤلؤ التقليدية التي اشتهر بها ابناء الخليج ، في انحاء المعمورة ، لا سيا البحرين .

ان البترول موجود في الداخل ويشكل ثروة طائلة . اما الساحل فما زال مركز نشاط لصيادي اللؤلؤ . وترى هناك الصيادين الوديعين يصلحون سلاسلهم المعدنية وتشاهدُ الغطاسين ذوي البشرة المياالة الى السواد يعدّون مراكبهم لموسم الغطس القادم والى جانبهم نرى نجاراً بارعاً يصنعُ مركباً من خشب التك دون ان يستعمل اي مسمار ؛ وهو فخور بعمله مسرور به . هنا وعلى شاطىء الهدنة الذي طالما صال وجال فيه القواسم كان وما زال للاساطير شأن عظيم .

الجزّة الذهبية الحديثة

خلافاً للبحرين كان البترول في قطر ، هذه المنطقة التي تشكل شبه جزيرة على كتف شبه الجزيرة العربية الكبرى ، سبباً في ثورة اقتصادية اجتماعية حقيقية . وهو موجود على شاطىء البحر في «دخان» قبالة المملكة العربية السعودية وبالقرب من البحرين .. ولما كان الشاطىء الغربي صخرياً صعب المسالك لذلك مُدّ خط من الانابيب بين حقول البترول الى مرفأ « ام سعيد» البترولي على الساحل الشرقي .

والى الجنوب من ذلك على الساحل تغتسل الرمال الجافة بمياه شاطىء الهدنة الفاترة . وهو شاطىء – كما اسلفنا – كثير المستنقعات صعب المسالك تقوم فيه بعض البيوت التي كانت فيما مضى معاقل لأشهر قراصنة عرفهم التاريخ . وقد جرت بعد الحرب العالمية الثانية تنقيبات وحفريات متواصلة لكنها لم تؤدّ الى اكتشاف كميات كبيرة من البترول تجعله صالحاً للاستثمار التجاري ... غير ان الأمل لم يخب بعد والاعمال لا تزال مستمرة .. اما

في البحر على مسافة مئة وثمانية وعشرين كيلومتراً من ابو ظبي وعلى مسافة اثنين وثلاثين كيلومتراً من جزيرة «داس» الصحراوية فقد اكتشفت بئر بترولية عميقة (ام شعيف) في ربيع سنة ١٩٥٨ . وهي حتى الآن ابعد بئر الى الجنوب وتؤكد لنا اهمية الاعماق وغناها في الخليج العربي .

وقد حصلت كثير من الشركات البترولية حتى الآن على امتيازات بعيدة من الشاطىء داخل البحر في كل من ايران والكويت والعربية السعودية وقطر واماراتي شاطىء الهدنة ودُبي وابو ظبي .

وعلى الشاطىء الايراني بين لنجة وبندرعباس ظهر اخيراً المنقبون عن البترول . ولدى مخرج مضيق هرمز مُنحت ايضاً بعض المساحات الصغيرة . وفي عمان أخيراً لم تؤدّ التنقيبات عن شيء حتى اليوم . ولكن هذا لا يعني عدم وجود البترول طالما ان اقل شبر من الارض هناك يثير مشاكل لها اول وليس لها آخر ..

ان التجمع الغريب حقاً لكل هذه الثروات التي لا تقدّر يؤكد هكذا بصورة واضحة المصير الاسطوري لهذا الخليج السحري . لقد كان بحر الزمرد عبر العصور مركز الثقل للتنافس الدائم بين الدول الكبرى من اجل مسالك التجارة العالمية وهو الآن اكثر منه في اية مرحلة من مراحل التاريخ محط انظار الساسة ورجال الاعمال والقواد العسكريين . وعليه يتسابق ارباب المصالح في الشرق والغرب للسيطرة . لأن من يتحكم به يتحكم بالصناعة الحديثة وآلة المدنية ...

ان البترول حسب تعبير الكاتب الفرنسي بيير روندو «جزّة ذهبية حديثة» وهو بفضل الله يملأ الخزائن ولكنه يقضي على المغامرة . واحفاد البحارة المغامرين الذين روّعوا فيما مضى دول الغرب هم اليوم مواطنون مسالمون ينقلون البيض والبندورة الى المراكز البترولية . وغطاسو اللؤلؤ يتعلمون العمل في الحفريات بينما يعمل البدو في مدّ الأنابيب والمفتاح الانجليزي يدور بين ايديهم بمهارة لا تقلّ عن مهارة عمال « الجنرال

موتورز» . ووراء المشربيات الخضراء يبعث الهواء المكيف الاصطناعي برداً وانتعاشاً لا مثيل لها من قبل .. حتى ان مراوح المنامـــه ودبي بالنسبة الى ذلك اصبحت تحفاً اثرية ... والليالي الحالكة في الخليج يبدّد ظلامها الآن النور الاحمر المنبعث من المشاعل التي تعلن الانتصار الموقت للحضارة الحديثة . انها ماردٌ نهم لا يشبع ولا يرتوي من عب البترول يقف في الخليج العربي على رجلين من طين بفضل دعاية ارادتها لحكمةٍ ما العناية الالهية .

عليّ بَابَا لم يرَ شيئاً

٥

ايران جسر النصر

«ان الذي يسيطر هنا يصبح فعلاً السيد الحقيقي للعالم»

(بطرس الأكبر)

لقد تعرضت اركان ايران التي تعتبر من اقـــدم الامبراطوريات الى الاهتزاز مرتين خـلال عشر سنوات . وكان سبب الهزتين الكبيرتـــين امتلاكها لشاطىء طوله الف وخمسماية كيلو متر على الخليج العربي وخليج عمان ...

ففي سنة ١٩٤١ كانت الدول الغربية في حاجة ماسة الى طريق تعبرها بحرّية في ايران لتستطيع تزويد حليفتها الجديدة روسية السوفياتية بمعدات الحرب فأرغمت هذه الدول شاه ايران على التنازل عن العرش لولي عهده الشاب وحولت ايران من بلد محايد الى جسر للنصر على الرغم من ارادتها في البقاء على الحياد ... وفي سنة ١٩٥١ كان اعـلان تأميم البترول في ايران نذير معركة طويلة مرهقة كادت تدفع بهـــذا البلد للوقوع فريسة للفوضى ، دون الوصول الى اية نتيجة محسوسة لأن المنطقة التي شملهـــا الكونسورتيوم البترولي العالمي هي ذات المنطقة التي كان يشملها امتياز الشركة الانجليزية – الايرانية ؛ اذ انها تمتد على طول الخليج من مضيق هرمز الى الحدود الايرانية العراقية .

ان التذكير بهاتين الحادثتين الاخـيرتين اكثر من اي شيء آخر يظهر ببروز الاهمية الفائقة التي تعلقها الدول الكبرى الحديثة على السيطرة على هذا الشاطىء الشرقي للخليـج العربي . والتفوق البريطـــاني والتسرب الاميركي الى منطقة الخليج في الشرق الاوسط ما كانا إلا ليبعثا من مرقدها السياسة القيصرية في روسية السوفياتية التي وضع اسسها التاريخية بطرس الأكبر . واليوم ليس القـادة الماركسيون اللينينيون اقل طموحــاً من القياصرة بل هم يذهبون الى ابعد مما ذهب اليه اسلافهم ويعرفون كيف يصلون الى اهدافهم البعيدة المنشودة شيئاً فشيئاً ..

الطموح الروسي

كانت بريطانية عند اعلان الحرب العالمية الثانية تسيطر سيطرة تامـة على الخليج العربي . ولكن الخطر مع ذلك كان يحف بها من كل الجهات لان الدعاوة النازية كانت ناشطة جداً في ايران والعراق وجميع بلدان الشرق العربي . وبعد توقيع معاهدة عدم الاعتداء بين ألمانيـة وروسية عام ١٩٣٩ بدأت سلسلة من المفاوضات السرية في برلين لعقد معاهدة رباعية بين دول المحور الثلاث : المانية وايطالية واليابان وبين روسيا السوفياتية فاشترطت هذه الاخيرة لتوقيـع المعاهدة في مذكرة ارسلتها الى برلين في السابع والعشرين من تشرين الثاني ١٩٤٠ بأن يعترف الطرف الآخر بأن « المنطقة الواقعة جنوبي باطوم وباكو في اتجـاه الخليـج العربي هي مركز مطامح السوفيات وآمالهم التوسعية » بغية ضمها الى الاتحاد السوفياتي .

وفي الثاني والعشرين من حزيران سنة ١٩٤١ اجتاحت الجيوش النازية الهتلرية الحدود الروسية ، فلم تُضِـع موسكو الوقت بل ارسلت بعد مرور أربعة ايام فقط على دخولها الحرب ضد المحور مذكرة شديدة اللهجة الى ايران تحذرها فيها من النتائج السيئة التي قد تعود عليها اذا استمرت في صداقتها مع المانية ، وذلك لأن موسكو كانت تعلم جيداً بأن الشريان

الحيوي لمواصلاتها الذي سيزودها بالعتاد الحربي الضروري ، يجب ان يمر عبر الخليج العربي وايران ... وكان على سُدة الحكم في امبراطورية ايران في ذلك الحين رضا شاه بهلوي ، وهو زعيم محبوب كان سابقاً ضابطاً من القوزاق الفرس ،استطاع ان ينتزع العرش سنة ١٩٢١ على اثر انقلاب عسكري . وعلى الرغم من ميله الى الالمان ، الناشىء في الواقع عن حذره من الروس والانجليز قرر رضا شاه ان يبقى على الحياد في تلك الحرب المستعِرة بين الدول الكبرى . ولكن مركز بلاده الستراتيجي حال دون ذلك . . .

ففي الثاني عشر من تموز سنة ١٩٤١ تعهدت بريطانيا بتقديم المساعدة الى روسية . وفي التاسع عشر من الشهر ذاته طلبت الدولتان الى الحكومة الايرانية اقصاء جميع الالمان من ايران على اعتبار انهم من الجواسيس . ولكن الشاه لم يستجب الى هذا الطلب مما اضطر القوات الحليفة الى اجتياح ايران والتوجه الى العاصمة طهران في الخامس والعشرين من آب . . . وفي الخامس عشر من ايلول تنازل الشاه عن العرش لولده محمد رضا شاه بهلوي البالغ من العمر اثنتين وعشرين سنة . واثر ذلك فرضت عليه الدول الحليفة الاتفاق البريطاني — الروسي — الايراني الموقّع في التاسع والعشرين من كانون الثاني سنة ١٩٤٢ وهو يقضي بأن تضع ايران خطوط مواصلاتها البحرية والبرية والجوية كلها تحت تصرف القوات الحليفة ...

وهكذا تم وضع اول حجر من جسر النصر الذي كُتب له ان يشهد عبور اكثر من خمسة ملايين طن من العتاد الحربي عن طريق الخليج العربي عبر ايران إلى بحر قزوين بواسطة الخط الحديدي الضخم الذي يربط بندرشاهبور على الخليج العربي ببندرشاه على بحر قزوين . ويعود الفضل في مد هذا الخط الحديدي الى ارادة رضا شاه بهلوي الفولاذية البناءة ...

ولم يكتف الحلفاء بهذا الخط الحديدي الذي كان الوسيلة الرئيسية لتزويد روسية بالاسلحة ، حيث زيد عدد العربات العاملة وحسّن الجهاز الفني بل مدوا ايضاً خطوطاً ثانوية وحسنوا الخطوط الموجودة .

وفي آب سنة ١٩٤٢ تقرر ان يتسلّم الجيش الاميركي نفسه النقل عبر ايران براً وبحراً وجواً . وفي شهر تشرين الثاني من السنة ذاتها نظمت القيادة العليا للجيش الأميركي في الخليج العربي وكانت تضم نحواً من ثلاثين الف رجل ... على الرغم من كل هذه الاعمال التي وطد فيها الحلفاء سلطتهم في ايران لم تلق الجاسوسية الألمانية سلاحها بعد ، بل استطاعت ان تستميل الى جانبها نفراً من كبار الشخصيات الايرانية . وفي سنة ١٩٤٢ استطاع الجاسوس النازي الخطير « ماير » ان يثير قبائل جنوبي ايران على الحلفاء في الوقت الذي اوشكت فيه جيوش الرايخ على الوصول الى القوقاز . ووفق الى ان يربح الى جانبه الجنرال فضل الله زاهدي الذي لعب فيما بعد دوراً كبيراً ضد الدكتور مصدق بمعاونة الاميركيين . ولكن رغبة المانيا في احتلال الشرق الاوسط لم تتحقق لان الحلفاء استطاعوا ان يجمدوا نشاط العملاء النازيين في ايران ، وسارت جيوشهم من نصر الى نصر في سورية ومصر وليبيا وتونس الأمر الذي دفع الايرانيين دعاة المحور الى التفكير الطويل في مصيرهم . وانتهى المطاف اخيراً بايران ان اعلنت الحرب رسمياً على المانية في ايلول سنة ١٩٤٣ ... وبين ٢٨ تشرين الثاني وأول كانون الاول سنة ١٩٤٣ عقد في ايران أهمُّ المؤتمرات العسكرية خلال الحرب العالمية الثانية وقد ضم الاقطاب الثلاثة تشرشل وروزفلت وستالين . وعلى اثر هذا الاجتماع اعلن قادة الدول الحليفة ان « حكومات الولايات المتحدة الاميركية والاتحاد السوفياتي وبريطانية تعترف بما قدمته اليها ايران من مساعدة لمتابعة الحرب ضد العدو المشترك وخاصة في حقل المواصلات اذ سهلت نقل المعدات والعتاد والاغذية بين الخليج العربي والاتحاد السوفياتي » . ولا يستطيع المؤرخ ان ينسى ان هذه المشاركة التاريخية في النصر مع الاسف جاءت نتيجة تنازل رضا شاه عن العرش بعد ان رفض التعاون مع الحلفاء ... وهذا الخط الحديدي الذي كان سبباً من اسباب النصر يجتاز

في طرفه الجنوبي عند الخليج اوسع مناطق ايران واغناها ألا وهي منطقة خوزستان او عربستان كما تسمى ايضاً . ومن الاهواز عاصمة المنطقة ينقسم الخط الحديدي الى فرعين فرع يتجه الى بندرشاهبور وفرع الى هورام شهر وهما اهم مرفأين تجاريين في إيران . وبندرشاهبور التي ينتهي عندها الخط الجنوبي قائمة عند هور موسى في خليج ضيق محصن احسن تحصين بصورة طبيعية وهي مرفأ بترولي هام .. اما هورام شهر فهي الى الشمال قليلاً من عبادان على شط العرب عند مصب قارون . وهذا النهر صالح للملاحة حتى الاهواز على مسافة مئة واربعين كيلومتر من مصبه في شط العرب .

امجاد الماضي والمستقبل

تربط شبكةٌ من الطرقات المعبّدة الجيدة ايضاً انحاء هذه المنطقة البترولية بعضها ببعض من المرافىء التجارية والبترولية الى عاصمة الاقليم الى مراكز الانتاج البترولي وعلى رأسها بئر مسجد سليمان .

وسهل قارون مع المنطقة الملاصقة للحدود العراقية حتى « ديزفول » و « شوستار » قابلٌ كلّه لتطور اقتصادي كبير . وكان هذا الاقليم تابعاً فيما مضى لمنطقة ما بين النهرين الخصبة عندما كانت هذه الأخيرة خاضعة لسلطان الفرس ... وما زال السهل الغريني تجتازه اقنية الري وتقوم فيه السدود الفارسية والعيلامية والسومرية . وفي هذه الامصار اكتشف عالم الآثار الفرنسي « جرشمان » البقايا المدهشة « لزيغورات – تشوغا – زامبيل » التي تفوق « زيغورات » أو « جارتها الكلدانية . والى الشمال قليلاً من هذه الآثار الرائعة تقوم بقايا سوز المشهورة عاصمة مملكة عيلام القديمة .

ان الثروة الاثرية في هذه المنطقة والشواهد المهمة التي تقدمها عن ماضيها البعيد المجيد تؤكد ما يذهب اليه علماءُ الاقتصاد في عصرنا هذا

من امكانية تحسين الحالة فيها ... وحالياً يهيمن استخراجُ البترول على حياة عربستان . ولكنه في الوقت نفسه يدر الاموال اللازمة لمشروعات التحسين والتنمية الاقتصادية من اجل المستقبل . وقـــد بوشر فعلاً في تنفيذ مشروع تطويري خاص بهذه المنطقة غير مشروع السنوات السبع العام . وفي حيثيات المشروع ان هذه المنطقة كانت فيما مضى من اغنى مناطق الشرق الاوسط يشهد بذلك تلك الشبكة الرائعة من اقنية الري التي عاندت الزمن وبقيت حتى ايامنا هذه .

والثروات البترولية الحالية لو استخدمت في تطوير المنطقة لعاد اليها ازدهارها الزراعي . « ان هـذه الاراضي لا تحتاج الاّ الى الري لتعود من اهم المناطق المنتجة للحبوب » .

والى الجنوب من ذلك ايضاً افاقَ الساحل من غفوته مع التجهيزات الجديدة التي وضعتها شركات الكونسورتيوم الدولي لاستثمار البترول الايراني.

وبوشير التي عرفت فترة من الخمود بعـد ذهاب المقيم البريطاني منها سنة ١٩٤٦ عادت اليها الحياة من جديد بعد توالي اعمال التنقيب حولها وبناء مرفأ بترولي في جزيرة الخرج ... ان المسح الطبوغرافي والتنقيب الجيولوجي وحفريات الاستطلاع ، ان كل هذه الاعمال متوالية على طول الشاطىء الخالي تقريباً من اي اثر للحياة باعثة فيه الامل في المستقبل . وفي تلك القرى التي كانت فيما مضى ملاجىء للصيادين والبحارة العرب بدأ تطور سريع حتى ان السكان هناك لا يصدّقون عيونهم .

ان الطائرات العامودية اليوم تصارع الهواء الثقيل الحار ، والسيارات تروح وتجيء على الشاطىء الكبير المغطى بالمرجان الميت مفتشة عن ممر تعبر منه عندما يسدّ الجبل الساحل ويلامس مياه الخليج . من بوشير الى لنجة الى بندر عباس لا يـترك المنقّبون عن الذهب الاسود حبّة رمل او ملح دون ان يمرّوا بها ليفحصوها بآلاتهم الدقيقة لمعرفـة اذا كانت تشير الى وجود البترول .

التزاحم الدولي

لقد عرفت هذه الاماكن ، الصعبة المسالك ، التي لا تطاق الاقامة فيها ، ماضياً افضل مما هي عليـــه اليوم . ولقيت بوشير كمركز للمقيم البريطاني في الخليج دوراً مهماً حتى الحرب العالمية الاولى . وبـــين الحربين قلّت اهميتها على هذا الشاطىء . ومع ذلك ظلّ المقيم البريطاني فيها يوجه النشاط السياسي لمنطقة الخليج الاخضر . ومما يؤسف له ان هذه المدينة المنكودة الحظ التي تعد بين ثلاثين واربعين الف نسمـة لا تملك مرفأ ترسو فيه السفن بل تضطر هذه الى البقاء في عرض البحر . وعلى الرغم من ذلك فإن مركزها الستراتيجي على طريق الهند جعل لها اهميةً كبرى منذ دخول البريطانيين اليها سنة ١٧٦٣ وحتى خروجهم منها سنة ١٩٤٦ .

ان هذه المدينة الحديثة التي قامت مكان « ريشهر » القديمة على شبه الجزيرة الصغيرة ذاتها هي من اقدم المدن التي اقامها الانسان على ساحل فارس ، المنطقة التي أعطت اسمها لكل بلاد ايران والتي منهـــا انبثقت الحضارة الفارسية وانتشرت في ارجاء العالم القديم .

وبوشير في العصور الحديثة كانت قد اصبحت مدينة تجارية مزدهرة عندما استطاعت شركة الهند الشرقية ان تحصل من شيخها المحلي شبه المستقل على امتيازات تفوق الحلم حقاً . ومنها انطلق الانجليز للسيطرة على الخليج فقد حصلوا على امتياز عام يحرّم على الاهالي التعامل مع اية دولة اوروبية أخرى وسمح لهم برفع العلم البريطاني هناك مع اطلاق احدى وعشرين طلقة ابتهاجاً بذلك .

وقبل ذلك كان مركز الثقل في النشاط على الخليج قد انتقل شيئاً فشيئاً من الشاطىء الفارسي الجنوبي الى الشمال عند مصب شط العرب ، وعندما قصفت بندر عباس سنة ١٧٥٩ بقنابل الفرنسيين خرج الانجلـــيز المنهوكون منها بعد ان كانوا قـد اخرجوا بدورهم منهـــا البرتغاليين

والهولنديين . وبذلك فقدت المراكز التجارية على مضيق هرمز رونقها ونفوذها خلال قرون . وحتى بعد مرور الرحالة البندقي ماركو بولو الذي عرف بوصفه الرائع الدقيق كانت هرمز القائمة على اليابسة في البدء وعلى الجزيرة التي تحمل الاسم ذاته فيما بعد رمز الشرق السحري الجميل ، غير ان الاحتلال البريطاني الفارسي واخراج البرتغاليين منها سنة ١٦٢٢ تبعه تقهقر نهائي وسريع لتلك المدينة .

ولما تسلم الحكم الشاه عباس الاكبر مؤسس مدينة اصفهان العجيبة صمم ان يبني مرفأ ايرانياً كبيراً على الخليج واختار لمشروعه هذا النقطة التي انطلق منها « نيارك » اميرال الاسطول التابع لاسكندر المقدوني الكبير. وأطلق على المرفأ الجديد اسم الشاه عباس واصبح بندر عباس . وكانت بندر عباس محطة انظار الدول المتنافسة : البرتغال وفرنسا وهولندة خلال قرن ونصف القرن . وفي فترة من الزمن استطاع الهولنديون ان يفرضوا سلطانهم بوسائل غير مشرفة مثيرة للتنافس .

وفي أحد الأيام جاء التجار الهولنديون بستة مراكب محملة توابل نادرة وطلبوا ثمناً لها اسعاراً مرتفعة . ولما لم يتقدم احد لشرائها اشعلوا النار في شحنتين منها ورفعوا سعر الشحنات الاربع الباقية ولما تردد الزبائن احرقوا شحنتين أخريين واخيراً باعوا الشحنتين الباقيتين تحت الضغط بسعر يفوق ما كانوا يطلبونه للشحنات الست .

ان أعمالاً احتكارية كهذه كان من شأنها ان بغّضت الاهالي بهؤلاء التجار الدخلاء القساة الذين لا يرحمون ...

وأقام الفرنسيون بدورهم سنة ١٦٦٤ مستودعات لهم في بندر عباس ولكنهم لم ينجحوا حيث فشل الهولنديون . واخيراً جاء دور الانجليز فاستطاعوا ان يحتفظوا بسيطرتهم على المدينة حتى خروجهم منها سنة ١٧٦٢ وتجمّعهم في مدينة بوشير .

ولكن بندر عباس لم تفقد مع ذلك اهميتها نهائياً لخطورة مركزها

الستراتيجي . فهي تحرس مضيق هرمز من ساحل « كرمان » ولم يعرقل تطورها سوى صعوبة مسالكها وانعدام وسائل الاتصال بينها وبين الداخل من جهة وعدم صلاحية شاطئها لبناء مرفأ كبير . وكانت الاسماك الكثيرة في مياهها مورداً رئيسياً لسكانها يصدرونه ملحاً الى جنوبي شرقي آسية . وقد أقام اليابانيون هناك بعد الحرب مسمكة لحفظ السمك . وتشير الدلائل الى انه سيكون لها مستقبل زاهر . وقد يقلب اتساع نطاق التنقيب عن البترول في هذه المنطقة الاوضاع العامة رأساً على عقب اذا ما ثبت وجود الذهب الاسود في جوف الارض او في قعر البحر ..

ويوجد في الخليج أمام مرفأ بندر عباس التاريخي الذي طالما تنافست الدول الكبرى من اجل السيطرة عليه ، ثلاث جزر تقف قرب الميناء كأنها جنود تحرسه . وهي هرمز ولاراك وكشم . وجميعها ، جزر جدباء من الصخر المالح . وكانت هرمز فيما سلف من العصور تلقب درة الشرق إلا انها اليوم منفى للرجال السياسيين الخطرين . بل هي من اكثر المنافي السياسية رداءة في العالم اجمع بسبب الرطوبة والحرارة الشديدتين ..

وفيما عدا بلدة لنجة وهي مرفأ لصيد السمك يضم بضعة آلاف من السكان الذين يعيشون على هذا المورد الاقتصادي وحده ليس هناك أي تجمّع بشري على هذا الشاطىء يستحق الذكر . وهذه المنطقة عبارة عن ملاجىء موقتة للصيادين العرب الذين يعتمدون على البحر كمورد وحيد لهم.

وكثيرون من الناس فضلوا الانتقال من الساحل الى الداخل حيث انتشروا قرب شيراز عاصمة فارس . وابتعاد هؤلاء عن الساحل واستقرار العرب من صيادين وتجار فيه أعطيا الخليج الصفة العربية بعد ان كان في العصور السحيقة فارسياً مما حمل العرب على اعطاء اسمهم له .

٦

في اسطبل العِجْل الذهبيّ

« لو وُلدتُ انجليزياً لما سمحتُ لنفسي بألا اجمع ثروة »
« مونتسكيو »

تأميم الشركة الانجليزية الايرانية

في انتظار ذلك اليوم المبارك الذي ستقومُ به السدود وتمد الاقنية لتوزيع المياه على الأراضي العطشى ، ما زالت منطقة عربستان تكتفي بما يدره عليها البترول من ثروات . والقسم الاكبر من نشاط المرافىء والمراكز التجارية التي لا تعرف البترول يعودُ الفضلُ فيها ايضاً الى الازدهار البترولي المتزايد بصورة غير مباشرة .

بالقرب من هورام شهر في عبادان ، ابنةِ البترول المحاطة بطبقةٍ من البخار الاسود المشبع بالجراثيم ، ترتفع مداخن المصفاة الجبارة فوق العلب المرقمة التي يعيش فيها العمال . وكذلك الاحياء السكنية بالقرب من شط العرب الخضراء اللون والمريحة ذات هواءٍ فاسد هي الأخرى . ومن هناك لا تنقطعُ قوافل الناقلات والمراكب الشراعية تروح وتجيء الى مدينة الذهب الايرانية التي كانت فيما مضى الرمز المتعالي للسيطرة البريطانية .

سنة ١٩٥١ كان التأميم ضربة عنيفة اصابت السيطرة البريطانية في

الصميم على الرغم من ان سقوط الدكتور مصدق في الخاتمة كان انتصاراً للانجليز . ويجدر بنا هنا ان نُعيد الى الذاكرة مراحل تلك الازمة التي كان لها تأثيرها الكبير في تاريخ ايران الحديث ومصير الخليج العربي المجاور لها .

في الثاني من شهر ايار سنة ١٩٥١ نشر شاه ايران قانوناً كان قد تقدّم به الدكتور مصدق ووافق عليه المجلس النيابي الايراني . ويقضي هذا القانون بتأميم شركة الزيوت الانجليزية الايرانية تأميماً كاملاً ، والغاء كل ما كان لها من امتيازات دفعةً واحدة ، وتجريدها من كل ممتلكاتها التي تحوزها على الأرض الايرانية . وجاءت هذه البادرة كأنها أخذ بالثأر بعد اربعين سنة من الذل والهوان .

ان الايرانيين شعب لطيف ، مسالم ، ناعم ، ولكنه ايضاً شديد الافتخار بنفسه ومرهف الحسّ . لذلك ساءهم ان يروا أنفسهم يعاملون معاملة اسوأ من تلك التي يعامل بها العرب المنتجون للبترول في جوارهم . فقد حصلت الأمارات العربية الواحدة تلو الأخرى على اتفاقٍ يقضي بأن تنال نصف الأرباح كما كانت الحال في فنزويلا منذ سنة ١٩٤٨ بينما اصرت الشركة البريطانية الايرانية على الاكتفاء بزيادة العائدات زيادة زهيدة ابقتها بعيدة عن حل المناصفة الذي توصل اليه العرب جيران ايران . وهكذا طفح الكيل .

وبُغية ايجاد حلٍ لهذه الازمة قدّم الجنرال رازمارا رئيس وزراء ايران العرض البريطاني لزيادة العائدات الى اللجنة البرلمانية التي كان يرئسها آنذاك الدكتور مصدّق ويداه على قلبه ؛ كأنه كان يعرف مصيره ، فقتل بسبب تقديم ذلك العرض . عندئذ ارتفعت اسهم الدكتور مصدّق زعيم الحركة الوطنية وأحد كبار الملاكين الاغنياء . وبعد فترة وجيزة من الفوضى والتردد من قبل الشاه الشاب دُعيَ مصدّق وحلّ مكان رازمارا في رئاسة الوزارة . ولما عرضت الشركة أخيراً بالحاح فكرة

اقتسام الارباح مناصفة كان الوقت قد فات والفتيل قــد اشتعل . ولم يكن من الممكن القبول بذلك لأن الشارع كان يسيطر عليـه حزب « توده » المعـروف بميوله اليسارية ، فانفجـرت القنبلة في اليوم الثاني من ايار ١٩٥١ .

لقد كانت الشركة التي أممها مصدق واقعياً على الصعيد السياسي منبثقة مباشرة عن الحكومة البريطانية . فهي قد تأسست سنة ١٩٠٩ لتستثمر ما اكتشفه « دارسي » . وقبيل الحرب العالميـة الاولى ، بناء على الحاح ونستون تشرشل الذي كان آنذاك اللورد الاول في الامـيرالية البحرية البريطانية ولأسباب استراتيجية بحتة منها بل اهمها تزويد الاسطول البريطاني بالوقود ، قررت الحكومة البريطانية ان تصبح صاحبة اول شركة بترولية في الشرق الاوسط عن طريق شراء اكبر نسبة من الاسهم . فأقدمت على هذا العمل وانتدبت عضوين اداريين ليمثلاها في ادارة الشركة مزودين بحق الفيتو دون الاهتمام مطلقاً بالشؤون التجارية ... وكان عليهما ان يصرفا جهودهما الى الشؤون السياسية فحسب ليكونا همزة وصـل بين سياسة الامبراطورية البريطانية في الخليج وبـين السياسة البترولية التي اصبحت يوماً بعد يوم حجر الثقل في سياسة الامبراطورية العجوز تملي عليها تصرفاتها .

استناداً الى ذلك يمكننـا ان نتصور كم يجب ان تتـأثر وتغضب حكومة لندن إزاء تصرف الدكتور مصدق في ايران ، هذا التصرف الذي من شأنه ان يزحزح حكومة صاحبة الجـلالة سياسياً وتجارياً من شاطىء كان الانـكليز يعتبرونه وقفـاً على امبراطوريتهم . وكجواب على هذا العمل قُدم الى حكومة طهران كثير من العروض مـع التهديد ، واستُعرضـت القوى . ولكنه تبين مع كل ذلك ان لندن عـاجزة عن تسلم المبادرة من جديد في هذا الميـدان ... وبقيت الشكوى التي تقدمت بها الحكومة البريطانية الى محكمة العدل الدولية دون ان تبحث

بعد ان اعلنت الحكومة الايرانية عدم صلاحية هـــذه المحكمة للنظر في هذا الموضوع الداخلي البحت . ولم يتوانَ الدكتور مصدق مستنداً الى تأييد حزب « توده » الشيوعي عن الاحتكام الى الشارع المتظاهر المضطرب المستعد دائماً لاثبات وجوده . واستطاع هذا الرجـــل ذو الجسم الذي أنهكه المرض وأوصله الى حافة الموت ، استطاع ان يصمد في وجه الاسد البريطاني الذي راح يزمجر دون فائـدة . وشهد العـالم أجمع وهو يلهث ازمة فادحة الخطورة ، خسرت فيها بريطانية قسماً كبيراً من سيطرتها وهيبتها ونفوذها في نظر الشعوب الشرقية ووُفـّق مصدق الى حد بعيد الى ان ينتزع مركب النقص من مواطنيه إزاء الانجليز . ولكنه في سبيل ذلك اضطر الى مهاجمة فئة كبرى من الشعب الايراني .

في شهر تموز َقبِلَ مصدق وساطـة الرئيس ترومان رئيس الولايات المتحدة الاميركية . وفي شهر آب سكتت المصفاة وتوقف الانتاج . ووصل النزاع الى اشده عندما وجهت الحكومة الايرانية الى حكومة لندن انذاراً شديد اللهجة . وفي شهر ايلول اتبعت ذلك الانذار بطرد جميع الموظفين البريطانيين الذين يعملون في عبادان . وجواباً على ذلك أعلنت لندن حصارها للانتاج الايراني وأخطرت بذلك مجلس الأمن التابع لهيئة الامم المتحدة .

اجل قد تستطيع ايران ادارة الاعمال وانتاج البترول . ولكن اين المشتري ؟ واين الناقلات التي تحمله من الخليج الى امـــكنة الاستهلاك في اوروبة الغربية .

لم يجرأ احد على شراء البترول الايراني بسبب ذلك الحصار . وبذلت ايران كثيراً من المحاولات لجس النبض انتهت الى الفشل الذريع لأن حكومة لندن كانت تحقق مع كل الناقلات البترولية التي كانت تجتاز مياه الخليج العربي ، وما خرج بطريق التهريب كان زهيداً جداً لا يؤبه به ولا ثمن يذكر له .

وفي نهاية سنة ١٩٥٢ بعد ان انقطع الامل في ايجـــاد تسوية للنزاع قطعت الدولتان العلاقات الدبلوماسية القائمة بينهما . وفي آذار من السنة ذاتها رفضت حكومة الدكتور مصدق الذي كان يدعمه اليساريون للمرة الثانية العروض الانجليزية الاميركية لفض النزاع المستفحل .

اللعبـــة الاميركية

خلال هذه المرحلة العسيرة كانت الحالة الاقتصادية في ايران قد تدهورت وانخفض الانتـاج البترولي من اثنـين وثلاثين مليون طن الى مليون طن واحد ووصلت البلاد الى حافة الافلاس فطلب الدكتور مصدق في حزيران سنة ١٩٥٣ مساعدة مالية من الولايات المتحدة الاميركية . وكان جواب الرئيس ايزنهاور على هذا الطلب مشروطاً بتسوية النزاع اذ قال الرئيس الاميركي : « سوِّ النزاع مع بريطانيـة ولك ما تريد من مساعدات . وإلا فلن ترى بنساً . عندئذ وبعد ان أخـــذ قرضاً منحته اياه فرنسة تطلع مصدق نحو جاره الشمالي الاتحاد السوفياتي فبش له هذا الاخـــير واستقبله بحرارة زائدة . ومـا ان علمت الولايات المتحدة بهذا التقارب الايراني السوفياتي حتى دبَّ في نفسها الهلع وادركت ان مصدق ليس من الطراز الذي يخضع للتهويل والتهديد . وايقنت انه حان الوقت لوضع حـد لذلك التمثيل الدولي الذي استمر سنتـــين . وعلى الأثر تحركت الاجهزة الاميركية كلها ونشط العملاء من جميع الدرجات ..

وفي الثالث عشر من آب ١٩٥٣ أقال الشاه الدكتور مصدق ودعـا الجنرال زاهدي المعروف جيداً من اقـــلام الاستخبارات الحليفـة وكلفه بتشكيل حكومة جديدة . ولكن الشاه ملك الملوك لم يستطع الصمود بعد فعلته هذه أمام غضبة الجماهير فطار يحميه الظـلام مع زوجته ثريا الى روما تاركـاً بلاده فريسة القدر . وبعد ثلاثـة ايام ظل فيها مصير المملكة معلقاً على كف المجهول في ايران حدث انقلاب عسكري ملـكي

بمساندة سفارة صديقة فعاد الشاه الى قصر الورود وثبت زاهدي اقدامه في الحكم .

وفي اليوم الخامس من كانون الاول من السنة نفسها أعيدت العلاقات الدبلوماسية بين ايران وبريطانية . وأدت المفاوضات اللاحقة الى خلق نوع من « الكونسورتيوم الدولي » نال الاميركيون فيه نسبة اربعين بالمئة مكافأة لهم على وساطتهم . وفي الخامس من آب سنة ١٩٥٤ وقّع السيد « هاوارد باج » نائب رئيس شركة ستندارد اويل اوف نيوجرسي ممثلاً الكونسورتيوم الدولي مع السيد علي آمني وزير مالية ايران اتفاقاً ينظم كيفية استثمار البترول الايراني بواسطة اتحاد دولي من الشركات العالمية الكبرى . وقد وافق المجلس الايراني على هذا الاتفاق في جلسته المنعقدة في الثامن والعشرين من تشرين الاول سنة ١٩٥٤ ونشره الشاه في التاسع والعشرين منه بعد يوم واحد ...

وفي اول تشرين الثاني عادت مصفاة عبادان الى العمل والتكرير ... لقد كتب الكثيرون عن نشاط العملاء الاميركيين الخفي اثناء النزاع الانجليزي الايراني وبصورة خاصة اتهمت الصحافة البريطانية بمرارة الاميركيين بانهم حاولوا بكل ما يملكون من قوى ونجحوا جزئياً في زحزحة البريطانيين من ايران للحلول مكانهم . ولم تغير اعتراضات وزارة الخارجية الاميركية على هذه الاتهامات ودفاع الشركات البترولية الاميركية المستميت في التأكيد بأنها لم تدخل ايران إلا مضطرة . نقول ان ذلك كله لم يغير النتيجة النهائية في شيء . ان قسماً كبيراً من بترول ايران قد انتقل الى خزانات الاميركيين بعد ان كان كله تقريباً انجليزياً صرفاً ...

ومهما يكن فان عهد النفوذ البريطاني قد ولى في جنوب ايران وصار حدثاً من احداث الماضي حتى ولو بقيت اعمال شركة الزيوت البريطانية مزدهرة ... لقد انهى الدكتور مصدق فصلاً من فصول تاريخ الخليج وفُتحت صفحة جديدة في تاريخه تمتاز بدخول نفوذ الولايات المتحدة

الاميركية مصحوبة بفرنسة التي نالت نسبة ٦ بالمئة من البترول الايراني .

وفي غضون ذلك اغتنمت البلدان العربية المجاورة المنتجة للبترول الفرصة السانحة فضاعفت انتاجها اضعافاً مضاعفة مما عاد على الشركات البترولية وأغلبها اميركي بربح وفير ...

لقد كابدت ايران في هذه التجربة القاسية كثيراً من الجهد والعناء لا يتوازى مع الربح ولكنها تعلمت كيف تتبع سياسة الحذر والحيطة في المستقبل.

لقد حصلت بالاضافة الى ذلك على مراقبة عمليات الانتاج والتوزيع كلها لضبط الارباح في اهم مواردها الطبيعية لأول مرة في تاريخها البترولي .

خلال اربعين سنة من الاستثمار ما بين سنة ١٩١٢ الى سنة ١٩٥١ بلغ مقدار الانتاج البترولي الايراني ثلاثماية مليون طن مع العلم بأن انتاج سنة ١٩٥٠ كان وحده اثنين وثلاثين مليون طن . وقد صُدِّر هذه المدة كلها مئتان وتسعون مليون طن الى الخارج إما خاماً واما بترولاً مكرراً وبلغت قيمتها كلها ملياراً ومائتي مليون جنيه استرليني ... تناولت منها الخزينة الايرانية مئة واثنين وعشرين مليون جنيه استرليني فقط عائدات بترولية او ما يعادل عشرة بالمائة من الارباح العامة فحسب . وفي سنة ١٩٤٨ دفعت الشركة الانجليزية الايرانية المستثمرة ضرائب للخزينة البريطانية بلغت قيمتها ثمانية وعشرين مليون جنيه استرليني بينما لم تحصل حكومة ايران الا على ثمانية ملايين جنيه استرليني . وحسب رأي الخبراء والمراقبين الذين بحثوا مشكلة بترول ايران كان من الممكن تلافي التأميم لو برهنت الشركة على انها اقل بخلاً مع البلد صاحب البترول .

ووفقاً لمنطوق الاتفاق الجديد مع الكونسورتيوم الدولي لشركات البترول تنال ايران خمسين بالمئة على الاقل من الأرباح. وبين سنة ١٩٥٥ وسنة ١٩٥٩ بلغ الانتاج مئة وسبعة عشر مليون طن صدر منها الى الخارج حوالى مئة وعشرة ملايين طن . وكانت حصةُ ايران من ذلك مائتين وخمسين مليون جنيه استرليني . وفي سنة ١٩٥٧ التي تعتبر اعتيادية بعد التأميم

بلغ الانتاج خمسة وثلاثين مليون طن صُدّر منها ثلاثة وثلاثون مليون طن . وكانت حصّة ايران منها اربعة وسبعين مليون وثمانماية الف جنيه استرليني . وفي سنة ١٩٥٨ ارتفع الانتـــاج الى واحد واربعين مليون طن وربحت ايران نحواً من ثمانية وثمانـــين مليون جنيه استرليني . ففي مدة اربع سنوات فقط دخل خزينة الحكومـــة الايرانية من ارباح البترول ضعف ما دخلها خـــلال اربعين سنة في عهد الشركة الانجليزية الايرانية السابقة مع العلم بأنّ كمية البترول المستخرج لم تبلـغْ ثلث ما استخرج خلال اربعين عاماً .

الكارتل الدولي ومبدأ « ماتي »

إن ما حدثَ من جرّاء ذلك بالنسبة للامبراطورية هو اكثر اهمية ما دام ان القسَم الاكبر من عائدات البترول سَيُستخدم في تطوير البـلاد اقتصادياً واجتماعياً . فقد أنشيءَ جهاز خاص هـــو مؤسسة مشروع السنوات السبع . التي تأخذُ ستين بالمئة ثم ثمانين بالمئـــة مؤخراً من عائدات البترول لتنفق على تطوير البلاد . وقسم آخر من هذه العائدات يذهبُ الى الشركة الوطنية الايرانية البترولية ليُتاح لها التنقيب عن آبار جديدة . وهنـــاكَ ايضاً مشروعٌ آخر منفصل عن مشروع السنوات السبع هو مشروع تطوير خوزستان او عربستان ومعنى ذلك ان مستقبل ايران الاقتصادي والاجتماعي متوقف على استمرار سيلان البترول . واذا استطاعت حكومة ايران ان تنفـّذ مشروعها الاصلاحي الانشائي في منطقة خوزستان فانّها حتماً ستغير وجه الحياة في هذه المنطقة التي كانت في السابق من أغنى المناطق في العـالم . وسيؤثـّر ذلك بالطبع في مجرى الحياة في كل بلدان الشرق الاوسط ، وسيعودُ الخليـــج الى لعب دوره التاريخي الكبير الذي اعتاد ان يلعبه على ممر العصور .

وهناك نتائج راهنة اخرى نجمت عن التأميم . فقـد أوجد أشكالاً

جديدة للتعاون في الحقل البترولي وقضى على الطوق الاحتكاري الذي ضربته الشركات الكبرى حول هذه الصناعة الحسّاسة .

لقد كان هذا الاحتكار فيما مضى مجهولاً . وفي عام سنة ١٩٥٢ اي في إبّان احتدام ازمة التأميم اصدرت اللجنة الاتحادية التجارية وهي هيئة اميركية عُهد اليها محاربة الاحتكار ، أصدرت بياناً فضحت فيه كيف تخضع الصناعة البترولية العالمية لسيطرة سبع شركات بترولية عملاقة تشكل فيما بينها تحالفاً او اتحاداً بترولياً عالمياً . ومن هذه الشركات السبع خمس اميركية هي ستندارد اويل اوف نيوجرسي – ستندارد اويل اف كاليفورنيا – سوكوني – ستندارد اوف تكساس – الغولف او الخليج ؛ وواحدة بريطانية هي شركة البترول البريطانية وواحدة انجليزية– هولندية هي رويال دوتش شل . يضاف اليها شركة البترول الوطنية الفرنسية . وجميع هذه الشركات دخلت سنة ١٩٥٤ متعاونة الكونسورتيوم الدولي لتستثمر بترول ايران .

وإزاء احتجاجات الشركات الاميركية الصغرى « المستقلة » اضطرت الشركات الكبرى المتحالفة ان تفسح لها مجالاً عام ١٩٥٥ فأعطتها ٥ ٪ من البترول الايراني . وهكذا ، في الكونسورتيوم الدولي الذي يعمل اليوم في ايران حيث تسيطر الشركات الكبرى على ٩٥ ٪ من الانتاج ، خرق الاحتكار مبدئياً وخضعت اعمال الاستثمار لمراقبة شركة البترول الايرانية الوطنية .

وهناك ايضاً مسمار اشد إيلاماً وهو من نوع جديد . دق مؤخراً في جسم الاحتكار الدولي لصناعة البترول وهو مبدأ ماتيي الايطالي الذي ظهر على المسرح البترولي عام ١٩٥٧ في الخليج العربي . لقد أدخل هذا المبدأ لوناً جديداً الى العلاقات السياسية والاقتصادية بين الشركات البترولية والبلدان المنتجة للبترول . وكان هذا اللون الجديد بمثابة ثورة هزت اركان الصناعة البترولية في الخليج العربي . وهو يقضي بأن تقوم شركة بين

ايطاليا وايران تقدّم الاولى فيها الرأسمال والفنيين وتقدم الثانية حقول البترول ، وفي حالة نجاح التنقيب ينال كل فريق نصف الارباح . ولكن بعد أن تُعطى الحكومة الايرانية ٥٠ ٪ من الارباح العامة . وبذلك تكون في النهاية حصة ايطاليا ٢٥ ٪ وحصة ايران الحكومة والشركة معاً ٧٥ ٪ .

وعلى الرغم مما تعرضت له من هجوم استطاعت هذه المعاملة الجديدة ان تثبت وتصبح مثلاً يقتدى به . وبعد أقل من سنة على ظهورها تألفت شركة اميركية ايرانية على هذا الاساس الجديد .

وكانت صاحبة العرض الجديد احدى كبريات الشركات البترولية الاميركية التي لم تدخل عضواً في الاتحاد الاحتكاري العالمي . وهذه الشركة الاميركية هي «ستندارد اويل اوف انديانا» وذلك عن طريق ابنتها شركة « بانا امريكان اويل كومباني » واطلق على الشركة الجديدة اسم «ايران ـ بانا امريكان اويل كومباني» .

الدائرة المغمورة بالمياه

من بين الدوائر الثلاث التي ُمنحت الشركة الايرانية الايطالية فيها حق التنقيب ، دائرة تحت الماء وتقع على ساحل بحر ُعمان بالقرب من جاسك عند مخرج الخليج ، والثالثة على اليابسة في جبال زاغروس . واما الشركة الايرانية الاميركية فقد حصلت على منطقتين للتنقيب . وكلتاهما تحت الماء بين مصب شط العرب وشبه جزيرة بوشير . وكذلك نالت شركة ثالثة هي الشركة الايرانية الكندية امتيازين صغيرين مساحتها الف كلم مربع عند مضيق هرمز ...

وبالطبع من الخطأ التحدث عن امتداد السطح تحت مياه الخليج الذي يتكون من انخفاض بحري يزيد عمقه عن تسعين متراً . ومع ذلك فان دول الخليج وأماراته على اثر اعلان مبدأ ترومان الثوري بشأن

حقول البترول المغمورة بمياه البحر راحت تعلن حقها في منح امتيازا، للتنقيب عن البترول تحت المياه تصل الى خط وهمي يفصل الخليج طولاً الى قسمين شرقي وغربي . وعندما فتحت ايران امتيــازات للتنقيب عن البترول تحت الماء الى مسافــة ابعد من حدود مياهها الاقليمية لم تكن هي البادئة فقد سبقتها الى ذلك المملكة العربية السعودية الى ذلك سنة ١٩٤٨ وتبعتها سائر الامارات في الخليج العربي .

هذا وقد خلقت التنقيبات الجديدة نشاطاً اضافياً يلفت الانظار في رأس الخليج حيث يعمل الايطاليون والاميركيون الجــدد بدأب زائد مضحين باموال طائــلة لا يعوّضها سوى العثور على بــئر غنية جــداً .

الهدف الروسي

ان كل هذا يجري ويحدث على مرأى من أعين السوفيات الساهــرة التي تعد للمستقبل الوان نشاطها وبراعتها السرية . وهم ينتظرون اقرب فرصة سانحة ليعرضوا عضلاتهم امام طهران لإخافتها . وعندما انضمت ايران الى حلف بغداد المشؤوم في تشرين الاول سنــة ١٩٥٥ ربطت مصيرها بمصير الغرب نهائياً . ان ايران تملك زهاء الفي كيلومتر من الحدود المشتركة بينها وبين الاتحاد السوفياتي . فهل من مصلحتها ان تعادي هذه الدولة الكبرى التي بدأت تلعب دورها الخطير في السياسة الدولية ؟ أليس انضمامها الى هذا الحلف عملا انتحارياً كان يجب ان تتجنبه ؟ لا ريب في ذلك ولا شكّ . ولولا الموقفُ الصلب الذي وقفتهُ الدول الغربية في مساندة ايران لكانت الجيوش السوفياتية اجتاحت هذه الأراضي في طريقها الى الخليج العربي دون ان يُعيقها عائق سوى صعوبة المسالك .

ان الاطماعَ الروسية التي وُلدت منذ ثلاثة قرون قد افصح عنها بجلاء بطرس الاكبر . وهي بعد قرنين ما تزال تــتردد على لسان مولوتوف وخلفائه .. وروسيةُ تتطلع دوماً الى البحر المتوسط والخليــج العربي

الطريق الطبيعية الى الشرق والهند والصين . وأحواضُ الذهب الاسود في عربستان والخليج يجب ان تدفع الغرب اليوم اكثر من اي وقت مضى للحيلولة دون تحقيق احلام الروس في الوصول الى الخليج سواء كانوا قيصريين او سوفيات اشتراكيين .. وبين الدول الكبرى التي تتنافس على الذهب الاسود والمواقع الستراتيجية الخطيرة لتأمين السيطرة والتفوق تحاول ايران الحديثة وارثة امجاد الامبراطورية الفارسية القديمة ان تفعل المستحيل لتوثيق عرى الصداقة مع الجميع مكان العداوة ، وذلك لخير العالم بأسره .

لقد رأت ايران خلال خمسين قرناً من التاريخ الطويل على شواطئها وفي ربوعها بالتتابع الميديين والفينيقيين واليونان والرومان والعرب والمغول والبرتغاليين والهولنديين والفرنسيين والانجليز . وقد ذهب الجميع وبقيت ايران بعقيدتها الاسلامية السامية وفلسفتها الراقية وفنها الرفيع وشعرها الرقيق . ولمثل هذه المهمة التاريخية العالمية خلق الله هذا الشعب المحبوب الذكيّ في هذه المنطقة الحساسة من العالم .

٧

اللَيْـلة الثَـانيَـة بَعـدَ الألْف

« من بغـداد ذهبت الى البصرة
حيث سابحر على متن سفينة كبيرة»

« السندباد البحري »

البصرة وشط العرب

ما زال مرفأ البصرة منذ ايام الخلفاء العباسيين منطلقاً لتجارة واسعة مع الهند وجنوبي شرقي آسية والمحيط الهادي ؛ بل منذ اقدم العصور السحيقة والبقعة الجنوبية من بلاد ما بين النهرين دجلة والفرات نقطة تجمُّع تـُبذلُ فيها أوجهُ النشاط البشري من تجارة وصناعة وزراعـة . وعلى عتبة الخليج حلـّت البصرة مرفأ العراق الرئيسي محل « اوبولا » التي حصلت فيها المعركة الفاصلة بين الفرس والعرب في صدر الاسلام . ومنها انطلق هؤلاء الى بلاد فارس ليفتحوها ويضموها لأمبراطوريتهم . و « اوبولا » هذه نفسها كانت قد حلـّت مـــكان « ديريدوتيس » القديمة التي بناها نبوخذ نصر الثاني لتكون همزة الوصل بين بابل العريقة والعالم الخارجي ...

ان المدينة الحديثة الحالية البصرة قد غيرت موقعها منذ تأسيسها الذي يعود الى الف وخمسماية سنة تقريباً . والعشـّار ، الحي الحديث الذي بني

في عصرنا الحاضر على شاطىء المياه هو خارج البصرة القديمة . ولم تعد البصرة المرفأ الوحيد على رأس الخليج العربي تستقبل القطارات الحديدية من هنا والسفن من هناك ... فقد انشأ العراق الحديث مرفأ آخر هو « الفاو » الخاص بالبترول ليخفف الضغط عن مرفأ البصرة ..ثم هناك مرفآن آخران هما عبادان وهورام شهر الايرانيان اللذان يجذبان اليها قسماً غير يسير من النشاط التجاري . ولكن البصرة على الرغم من كل ذلك تبقى مرفأ العراق الرئيسي تربطه بالشرق والغرب تماماً كما كانت حالها عندما زارها الرحالةالبندقي ماركو بولو وقـــال :

«ان بغداد مدينة كبيرة يقيم فيها خليفة المسلمين كما يقيم في رومـا المرجع الروحي للمسيحيين . وفي وسط المدينة يمر نهر كبير يمكن ركوبه الى بحر الهند عن طريق الخليج الذي يبعد عن بغداد مسير ثمانية عشر يوماً . وهكذا يروح ويجيء عدد كبير من التجار مع بضائعهم ويصلون الى مدينة اسمها «شيزي» ومن هناك يدخلون بحر الهند . وهنـاك أيضاً على النهر بين بغداد وشيزي مدينة كبرى اسمها البصرة وتحيط بهـــذه المدينة غاباتٌ من النخيل تعطي أفضل تمر في العالم » .

يبدأ شط العرب عند القرنة على مسافة ١٥٠ كلم تقريباً من الخليج وهي نقطة التقاء دجلة بالفرات . واثرها يجري الرافدان في مجرى واحد يحمل معه نسبة عالية من الغرين . وتجمّع هذا الغرين الراسب مع الزمن في قعر الخليج وتعالى فانحسرت المياه ما يقرب من مايتي كيلومتر خلال خمسة آلاف سنة . وبعد ان كان يصب الرافدان ونهر قارون القـــادم من ايران كل على حدة في الخليج انضمت الانهر الثلاثـة في مجرى واحد بين هذه الأراضي الغرينية التي تكونت بفضل مـا تحمله هذه الانهر . وعلى هذه الأراضي على جانبي النهر الذي سمي شط العرب حيث قامت المرافىء العراقية والايرانية ترتفع اشجار النخيل بالملايين يزيدها روعــة وجود «الدفلى» الابيض والأحمر مع الأكاسيا الصفراء وشجيرات الموز الخضراء..

واذا شاهدت هذا المنظر من الجو ألفيته خطاً عريضاً متعرجاً اخضر اللون يمتد وسط صحراء رملية حتى ميـــاه الخليج الزمردية ؛ ثم يترك وراءه سلسلة من المستنقعات يقيم فيها اغرب اناس عرفتهم الأرض ويقول توينبي : « ان هـذه المستنقعات التي تكونت شيئاً فشيئاً خــلال ألفين او ثلاثة آلاف سنـة بقيت على حالها البكر لم تتحوّل ولم تتطور حتى ايامنا هذه ، لأنه لم توجد خلال هذه المدة الطويلة يدٌ واحدة عزمت على مقارعتها والانتصار عليها . لقـــد اعتاد سكان المستنقعات الذين يعيشون في هذه المنطقة على ذلك بطريقة سلبية وهم كأجدادهم السومريين القدماء تماماً منذ خمسة او ستة آلاف سنة لم يتسلحوا بأي سلاح عصري يستطيعون بـه ان يحسّنوا هذه الاراضي التي تغمرها الميـــاه وتحولها الى مستنقعات ... »

وهذه المخلوقات البرمائية ما زالت تعيش اليوم في اكواخ بدائية من البامبو كتلك التي تصفها لنا الاساطير البابلية عن خلق العالم والطوفان ، والتي دلت عليها الاكتشافات الاثرية في انحاء أور . وبينما سكن السومريون في اخصب المناطق بين النهرين ليبنوا اول حضارة عرفها التـــاريخ . خاطر خلفاؤهم العرب بأنفسهم وعـــاندوا الطبيعة وسكنوا المستنقعات مبرهنين بذلك على قدرة الانسان على التكيف الطبيعي الذي لا حد له .

لقد اصبح سكان هذه المستنقعات موضع اهتمام علماء اصول الشعوب ويعتقد توينبي ان «حوض دجلة والفرات كحوض النيل هو بمثابة متحف ثمين يمكننا ان ندرس فيه المظهر العادي للطبيعة البكر التي تسلط عليها الانسان .. وفي بلاد ما بين النهرين ما زالت بقايا الانسان القديم تعيش في المستنقعات عند الخليج العربي » .

ويلاحظ السيد «وولي» مؤرخ سومر « ان وصف سفر التكوين لخلق العالم يطابق مطابقة تامة تطور تكوين اراضي ما بين النهرين »

ظل السندباد البحري

يؤلف القسم الذي تغسله مياه قارون من عربستان مع القسم الاسفل من بلاد ما بين النهرين وحدة جغرافية اقتصادية شاركت سابقاً في الازدهار السومري والكلداني ، كما انها وقعت كلها تحت سلطان الفرس عندما اسسوا على يد كورش وداريوس امبراطوريتهم العظيمة . واثر انحطاط هؤلاء خضعت للعرب الذين امتد سلطانهم خلال العصر العباسي عبر ايران حتى الهندوس .

ان عربستان الغربية هي طرف الهلال الخصيب الذي يبدأ عند السهول الفلسطينية وينتهي عندها ماراً بلبنان وسورية والعراق كما وصفه بيير روندو . وهو يجتاز ما بين الخليج العربي والبحر المتوسط منطقة هي في ثلاثة ارباعها صحراوية .

وفي العصور الحديثة لم تستطع المركزية المتطرفة التي تتبعها كل من بغداد وطهران ان تحول دون اظهار الروابط الوثيقة المشتركة بين سكان ضفتي شط العرب ، هذه الروابط التي خلقها عندهم النهر العظيم والبحر الزمردي .

ويضاعف في ايران تلك الوحدة التاريخية والجغرافية والاقتصادية لمنطقة الشط وحدةُ اللغة وطريقة التفكير عند سكانها ووجود البترول في جوفها وروحُ المغامرة التي تجلتْ عند السندباد البحري صاحب الرحلات السبع التي وصلت إلينا عن طريق قصة الف ليلة وليلة . وهي تروي لنا على طريقة الاساطير قصص السندباد البحري التي تتضمّن حقائق غريبة عن السفر في البحر وابطالها جميعاً تجار شجعان من بغداد والشمال لا تثنيهم صعوبة عن ركوب البحر والسفر الى اقصى انحاء المعمور سعياً وراء مبادلات تجارية رابحة .

لقد كان للبصرة في عهد الخلفاء العباسيين المركز الهام ذاته الذي تتمتع به اليوم . ويقول المؤرخ الشهير السيد ارنولد ويلسون : « ان قصص

الف ليلة وليلة صورة لا تخلو من الحقيقة لتلك الحياة الزاهية المنوعة التي كانت تحياها المدينة الكبرى » وفي هذه القصص الاسطورية نجد في الواقع الخيط الذهبي للحقيقة المنشودة ...

ومع ذلك لو عاد السندباد البحري اليوم الى شاطىء الخليج الزاخر بالحياة لوقع نظره على مفاجآت لم يكن ليحلم بها في رحلاته السبع ...

بالطبع سيجد رفاق البحر كما كانوا في ايامه تجاراً موسرين يعتمرون عمامة من الموسلين ومغامرين لا يهابون ... وسيجد بالقرب منهم سماسرة لا ينقصهم الدهاء وتجاراً اقعدهم الكسل فتناحروا بالأرجل في ظل الحوانيت المظلمة . وسيسمع الاصوات الموقعة لقطّافي التمر المعلقين بين اغصان النخيل يقطفون التمر الحلو تماماً كما كانوا يفعلون عندما مرّ ماركو بولو بهذه البقعة الفريدة ... وسيجتاز على جسور خشبية صغيرة الأقنية المائية الصافية التي تزدحم فيها الزوارق الشبيهة بجندول البندقية ... وسيرى البيوت القديمة الجميلة المتباهية ...

ولكن الى جانب المراكب العربية ذات الشراع الابيض التي ترفع العلم الاحمر ، علم الكويت ومسقط ، سيجد السفن الحديدية الجبارة ترفع اعلام الدول المختلفة في الشرق والغرب . وسيدهش من رؤية الزوارق البخارية ترسم خطوطاً عابرة بيضاء على صفحة الخليج الخضراء .. واذا ما دوّى في اذنه الهدير ورفع نظره الى العلاء فسيرى الطائرات تنهب الفضاء لتحط في مطاري « المعقل » وعبادان . وسيشم الرائحة الكريهة التي تفوق رائحة نفس ابليس كراهة ، المنبعثة من المداخن الملساء حيث يتصاعد الدخان الاسود واللهيب البرتقالي ...

وسيسير مذهولاً على طرقات ضيقة مغطاة بالاسفلت حيث يرى سيارات زاهية من كل الألوان تجتاز هذه الطرقات ، على مهل كالدواب ، لامعة كالتيجان الامبراطورية ...

سيشاهد كل ذلك ولن يكون لدهشته حدود ...

سيصرخ السندباد البحري مستغرباً ويقول : « اقسم بالنبي الكريم ان ما أراه الآن أغرب من كل ما رأيت في رحلاتي السبع . وسيبقى فصل ناقص في الف ليلة وليلة اذا لم تُروَ قصة الليلة الثانية بعد الألف ... »

فهل يبعث السندباد البحري مجدداً من مرقده لينطلق من هنا فيروي للعالم قصته الجديدة ... انني واثق من انه لن يصدق احد حرفاً مما يقول لأنه كي يشرح ما حصل سيضطر أن يعيد على الأسماع قصص البترول التي تفوق بغرابتها كل شيء معقول !

التغلغل الألماني

ان ما كُتب قد كُتب والمقدر لا بدّ من ان يحصل .

في عاصمةٍ يغطيها الضباب بصورة دائمة قائمة في جزيرة كبيرة وفي مكان يدعى وزارة الخارجية جلس السادة المبجلون المحترمون يتدارسون.. إن أنداداً لهم لا يقلون عنهم ثقافة وحضارة يقيمون في « ولهلم شتراس » في عاصمة باردة ثانية تقوم في اواسط اوروبة ، بدأوا يتطلعون بنهم الى مناطق نفوذهم ... واطماعهم ونواياهم مخيفة ترعب .

كان هذا في اواخر القرن الماضي ... لقد صمم سادة « ولهلم شتراس» على مد خط حديدي يربطُ عاصمتهم برلين بالبصرة على الخليج العربي عبر بغداد ... وهذا المشروع البريء الذي اطلق عليه اسم خط بغداد الحديدي كان يهدف ايضاً الى الوصول الى شاطىء الكويت المرفأ الطبيعي الوحيد في تلك المنطقة على الخليج ... فهل يتركهم سادة لندن الذين كانوا قد بدأوا يتغلغلون في جنوبي الخليج منذ مئة سنة ؟ هل يتركونهم يحققون ذلك؟ ان الالمان يريدون ويعملون على مزاحمتهم بالتغلغل في القسم الشمالي . وكان ضعف الامبراطورية العثمانية آنذاك يتيح المجال لتقومَ الدول الاوروبية بمناوراتها في ممتلكات الرجل المريض . وفي سنة ١٩٠٢

أعطى السلطان عبد الحميد سيّد بلاد ما بين النهرين موافقته النهائية على مشروع خط بغداد الحديدي الذي تقدم به دوتش بنك ووجد الألمان انفسهم ينصبون راية النصر على جون الكويت لمراقبة الخليج في اندفاعهم السريع الذي لا يقاوم نحو الشرق ، فأزعج ذلك البريطانيين الذين لم يهنأوا بعد بتثبيت اقدامهم في الكويت بعد معاهدة سنة ١٨٩٩ اذ كانوا يسعون جاهدين لتدعيم مركزهم في الخليج بعد أن تخلصوا من الفرنسيين والروس إن في ايران وإن في مسقط ؛ وبعد ان قضوا في شاطىء الهدنة على كل نشاط للقراصنة وتجار العبيد . وكان نفوذهم آنذاك قد بدأ يمتد بطريقة سرية حتى بغداد . وأوشكوا ان يصلوا اليها . فكيف يمكن ان يسمحوا لسواهم ، لا سيا للالمان ، بمد خطٍ حديدي في منطقة كانوا يطمحون اليها منذ مئات السنين ووصلوا اليها مؤخراً بشق النفس ؟

دق الانجليز عندئذ ناقوس الخطر ، وأعطيت الاوامر المشددة بوجوب ايقاف الألمان ومنعهم من الوصول الى الخليج بأي ثمن . ووفقاً لتكتيكهم السياسي المألوف الذي يحرصون عليه في الشرق أرفقوا تهديداتهم وانذاراتهم بعروض التعاون الأخوي وتوزيع المغانم وتقسيم مناطق النفوذ للالهاء . وقد اوجز احد المعلقين السياسيين سياسة الانجليز في الشرق الاوسط بما يلي : « عندما كانت انجلترة تصر على وجوب الإبقاء على الرجل المريض كانت تستهدف من ذلك قطع طريق التدخل في شؤون الشرق الاوسط على الروس والفرنسيين .. وهل من المعقول ان تسمح لهم او لسواهم بذلك ؟ »

لقد تفجر البترول في فارس واحتكروه لأنفسهم بواسطة امتيازات انتزعوها وشرعوا في استثماره . وأصبح لهذه المنطقة اهمية اقتصادية جديدة لا تحد الى جانب اهميتها الستراتيجية . فكيف العمل لصيانة النفوذ البريطاني في الشرق الاوسط من الخطر الالماني الذي تستر بمشروع خط بغداد الحديدي ؟

لقد كانت السياسة البريطانية خـــلال الاربع عشرة سنة الاولى من هذا القرن حائرة بين معارضة المانية معارضة فعالة وبين التعاون معها لاقتسام مناطق النفوذ ... وبزوال الدولة العثمانية وانهيار المانية وانكماش روسية بعد الثورة البلشفية خلا الجو لبريطانية فاستأثرت بمنطقة الشرق الاوسط بأسرها ، وعلى مضض منها قبلت ان تتخلى الى فرنسة عن قسم يسير من المنطقة على شاطىء المتوسط تاركة لها حصة زهيـــدة من بترول العراق .

في سنة ١٩٠٤ عندما كلف السلطان الأحمر الشركة الاناضولية للخطوط الحديدية او بالأحرى «دوتش بنك» بالتنقيب عن البترول في ولاية الموصل، قلقت بريطانيا قلقاً عظيماً وازداد الضغط الى درجة لا يقبلها العقل على الباب العالي . فتراجعت المانية . ودخل الاميركيون الحلبة سنة ١٩٠٩ عن طريق الاميرال « شستر » الذي حصل على عقود لمد خطوط حديدية وعلى امتياز للتنقيب عن البترول ثم الغيت بعد ان ثبت وجود البترول في المناطق الداخلة ضمن حدود الامتياز ..

وفي سنة ١٩١٢ اشتد التزاحم بين اربعة فرقاء للحصول على امتيازات في ولاية الموصل التي دل وجود البترول فيها على ما تحوي من ثروات . وهؤلاء الفرقاء : دوتش بنك (المانيـــا) الشركة الانجليزية — الفارسية (بريطانيا) رويال دوتش شل (بريطانيا — هولندة) و شستر (الولايات المتحدة الاميركيـة) وكان الأرمني كالوس كولبنكيان المعروف بدهائـه وديناميكيته يمتلىء حقداً على فريق شستر الاميركي وخاصة روكفلر ملك البترول الاميركي بلا منازع . لذلك سعى لخلـــق ائتلاف من اصحاب المصالح الاوروبيين . وكان في الوقت نفسه صديقاً لمرقص صموئيل وهنري ديترونغ من شركة رويال دوتش شل فدبرا له استقبـالاً في القصر الملكي البريطاني ؛ إلا ان حكومة صاحبة الجلالة التي اخذت على عاتقها بعـد مدة وجيزة ادارة شؤون الشركة الانجليزية الفارسية فضلت ان تأخـــذ

الحيطة اللازمة وتتعاون مع الفريق الالماني محتفظة لنفسها بالمركز الاول ، على ان تحتكر كل شيء لنفسها وتتعرض لمناورات المانيا وعدائها وحملاتها.

وفي سنة ١٩٠٨ كانت جماعة تركيا الفتاة قد قامت بثورتها واستلمت الحكم في الآستانة . ولم يكن من السهل ان تنتزع وزارة الخارجية البريطانية من أسياد الآستانة الجدد الذين لا يخضعون للتهديد فرماناً لامتياز التنقيب عن البترول . واخيراً بعد أخذ ورد مع الباب العالي وبعد مباحثات بين برلين ولندن تم التفاهم . ومن يدري ؟! ربما كان ذلك ايضاً مناورة من مناورات الانجليز ...

وفي التاسع عشر من آذار سنة ١٩١٤ وقع في وزارة الخارجية البريطانية اتفاق بترولي بين بريطانيا والمانيا حول حصة كل منهما في شركة البترول التركية . فأسهمت بريطانيا فيها عن طريق الشركة الانجليزية الفارسية بنسبة ٥٠ ٪ والنسبة الباقية وهي ٢٥ ٪ تركت لشركة رويال دوتش شل التي تملك بريطانيا ٤٠ ٪ منها ايضاً . وهكذا تكون حصة بريطانيا الصافية ٦٠ ٪ واما الأرمني كولبنكيان فقد نال ثمناً لأتعابه الطويلة نسبة ثابتة من الأرباح هي ٥ ٪ دون ان يكون له حق المشاركة في التصويت لذلك أطلق عليه اللقب المشهور : السيد خمسة بالمئة.

اثر ذلك اصبح الانجليز مستعدين لتوقيع اتفاق خط بغداد — برلين الحديدي مع المانيا بعد ان امنوا سيطرتهم على شركة البترول التركية . والآستانة التي كانت غارقة في الديون لبريطانيا والمانيا وفرنسا ايضاً ارادت ان تقبض ثمن موافقتها ؛ ولما نالت وعداً قاطعاً بذلك اعلنت موافقتها الاولية على المشروع في الثامن والعشرين من حزيران سنة ١٩١٤ وفي غضون ذلك وصل خط برلين — بغداد الحديدي الى الموصل ويئس الانجليز من ايقاف التقدم الالماني نحو الشرق . عندئذ اندلعت نيران الحرب الكونية الاولى بين بريطانيا والمانيا واشتركت فيها فرنسا مع بعض الدول الأخرى كما نعلم .

لعل من حسن حظ البريطانيين ان سلطان العثمانيين اختار الجهة الخاسرة ووقف الى جانب المعسكر الالماني في الحرب العالمية الاولى . ولم تكد النار تستعر حتى اسرع البريطانيون واحتلوا بلاد ما بين النهرين عسكرياً ثم شرعوا في إثارة القلاقل في أنحاء الامبراطورية المتداعية في وجه الباب العالي . ووصلت ألاعيبهم الى الحجاز واليمن . ومنها الثورة التي حدثت في الصحراء بتدبير وإيحاء العميل البارع الكولونيل لورنس . لقد كان الهدف الحقيقي لكل هذه الاعمال تأمين السيطرة البريطانية على حقول البترول في الشرق الاوسط . وأُطلقت من اجل ذلك الوعود يميناً ويساراً الى جميع الذين كانوا يطمحون الى التخلص من النير العثماني . وعُقدت اتفاقات سرية مع الدول التي كانت تطمع في مخلّفات الرجل المريض ؛ اذ انه كان المهم قبل كل شيء بالنسبة لبريطانيا هو ان تتأكد من وجود حلفاء لها ... وهكذا نال العرب والصهاينة وعوداً متضاربة بشأن فلسطين ، وقدأخذوها بعين الجد لقصر ادراكهم . وكان السعوديون والهاشميون معاً مطيةً لعميلين بريطانيين سريين دون ان يدروا ، اذ انه بينما كان لورنس يوغر صدور الهاشميين على السعوديين كان فيلبي يقوم بعمل معاكس في بلاط السعوديين حتى تفاقم الخلاف بين الاسرتين المالكتين العربيتين ، ووقعت الواقعة بينهما ، وخُدعت كذلك فرنسا إذ أعطيت بناء على اتفاق سايكس بيكو السري سنة ١٩١٥ وعداً بريطانياً بترك ولاية الموصل الشهيرة لها ؛ الامر الذي لم ينفّذ مطلقاً ...

والحقيقة كما اثبتت الوقائع فيما بعد ان هذه الوعود كلها ظلت وعوداً فحسب ، لم يؤخذ منها بعين الاعتبار إلا وعد بلفور . اذ انه كان لدى انجلترا مخطط سياسي قديم العهد مدروس منذ مدة طويلة ، واحتفظت لندن لنفسها بالعراق مضافاً اليه ولاية الموصل . وحاول البريطانيون بالاضافة الى ذلك ان تشمل منطقة نفوذهم سورية التي برزت قوة في الشرق

الاوسط ، وذلك لتحقيق حلم قديم يقول بإقامة وحدة الهلال الخصيب السياسية بمنافذه على المتوسط والخليج ، وبتروله في شمالي العراق ، ووضعهـا تحت تصرف ملك يحركونه في الخفاء كدمية في ايديهم لصيانة مصالحهم . غير ان تعنت فرنسا ومطالبتها بتنفيذ اتفاقيات الحرب السرية وتصلب الجنرال غورو ، كل ذلك حال دون تنفيذ المشروع البريطاني بأكمله . هـذا ولا تزال وزارة الخارجية البريطانية التي لم تُلقِ سلاحها حتى الآن تحاول بشتى الاساليب والطرق بعث مشروعها بعناد وبصور متعددة ...

لقد كانت نهاية الحرب العالمية الاولى كما هو معروف انهيـار الدولة العثمانية وتقسيم مخلفاتها ؛ ففرض الانتداب الفرنسي على لبنـان وسورية ، والانتداب البريطاني على فلسطين والعراق وشرقي الاردن . وفي العراق دامت الحماية البريطانية عملياً في الخفاء حتى ثورة الرابع عشر من تموز سنة ١٩٥٨ على الرغم من انتهاء الانتداب واعلان الاستقلال في سنة ١٩٣٠ .

أما النهاية غير المعروفة التى أهملها التاريخ فهي التي تتعلق بالمساومات حول البترول العراقي التي أدت الى تأسيس شركة بترول العراق وتوزيع حصصها واتفاق الخط الاحمر سنة ١٩٢٨.

في مؤتمر سان ريمو المنعقد سنة ١٩٢٠ تم الاتفاق على ان تحل فرنسا مكان المانيا في شركة البترول التركية وفي هذه الاثناء نشط الاميركيون في المنطقة واخذوا يطالبون بحصتهم . وفي سنة ١٩٢٣ حصل فريق شستر ممثلاً شركة ستندارد اوف نيوجرسي على امتياز للتنقيب عن البترول في تركية. وبقيت ولاية الموصل موضع خلاف ونزاع وعُرضت على مجلس عصبة الامم في جنيف . وبعد أخذ ورد أُلحقت بالعراق الخاضع للانتداب البريطاني سنة ١٩٢٥ ومن ثم أُلغي الامتياز الامـيركي بعد ضغط فرنسا وبريطانيا فدعمت الخارجيةُ الاميركية شركاتِ البترول الاميركية في مطالبتها بسياسة الباب المفتوح في الشرق الاوسط .. وفي السنة نفسهـا حصل البريطانيون في الرابع عشر من آذار على امتياز للتنقيب عن البترول من حكومة العراق

مدته خمس وسبعون سنة . وذلك تحت ستار شركة البترول التركية التي بدُل اسمها سنـــة ١٩٢٩ واصبح شركة البترول العراقية . ولم تدخل ولاية البصرة طبعاً ضمن هذا الامتياز .

في الحادي والثلاثين من تموز سنة ١٩٢٨ تمّ الفصل الاخـــير من الرواية عندما تخلّى الاميركيون عن مبدأ « الباب المفتوح » ليوقّعوا اتفاق الخط الأحمر . ولقاء ذلك أتيحت لهم المشاركةُ في استثمار بترول العراق بعد ان تفجّر من بئر بابا غرغور في الثالث والعشرين من تشرين الاول سنة ١٩٢٧ .

عندئذ تكتّلت سبع شركات بترولية اميركية وألّفت هيئة دُعيت « التعاونية الاميركية لانماء الشرق الادنى » ثم انتدبت شركتين منهـا همـا نيوجرسي وسوكوني لتمثيلها في الشركة الجديدة . وهكذا تكوّنت شركة البترول العراقيـة من الشركات الاربع التالية : الشركة الانجليزية الايرانية (انجلترة) وروريال دوتش شل (انجلترة — هولندة) الشركة الفرنسية البترولية والتعاونية الاميركية . وكانت حصة كل منها ما يعادل ٢٣,٧٥٪ وأُبقيت حصة قدرها ٥٪ للسيد كولبنكيان الذي مرّ ذكره .

واتفاق الخط الأحمر الذي وقـع لدى تأسيس شركة بترول العراق يحظّر على الشركات التي أسستها ان تسعى اي منهـــا منفردةً الى عقد اتفاقات للحصول على امتيازات لنفسها داخل دائرة واسعة تجمع بـــين اطرافها بلدان الشرق الاوسط كلها عدا مصر والكويت . وقـــد عمل بهذا الاتفاق حتى الحرب العالمية الثانية . وفي سنة ١٩٤٦ عندما وضعت الحرب اوزارها أصبح حبراً على ورق وأعلن الفريقُ الاميركي في شركة بترول العراق انه في حلٍ من اتفاق الخط الأحمر منذ البدء . ثم وافقه على ذلك فيما بعـد الفرقاءُ الآخرون بغية المشاركة في الاعمال البترولية الواسعة التي بدأتها الشركة العربية الاميركية للبترول (الارامكو) في المملكة العربية السعودية .

ومهما يكن من امر فقد كانَ لاتفاق الخط الاحمر نتائجه المألوفة في فرض قيود على الاتحادات والاحتكارات البترولية . وقد اتاح ارتباط الشركات الاميركية السبع التي ألفت التعاونية الاميركية المشار اليها للشركتين الاميركيتين ستندارد اوف كاليفورنيا و ستندارد اوف تكساس اللتين لم توقعا ذلك الاتفاق ، اتاح ذلك لهما ان تعملا بحريَّة في الجنوب ، حيث حصلا على امتيازات ثمينة في البحرين اولاً ثم في المملكة السعودية فيما بعد .

شركة بترول العراق تنمو

في اليوم الرابع عشر من تموز ١٩٥٨ عندما انتهى العهد الملكي بمذبحة دامية في العراق وأُعلنت الجمهورية ، أسرع ممثلو شركة بترول العراق حالاً الى أسياد العراق الجدد يفاوضونهم من اجل المحافظة على مركز الشركة وتأمين استمرار اعمالها ؛ اذ ان هذه الشركة خلال ثلاثين عاماً كانت قد نمت وتكاثرت وانشأت شركة بترول الموصل ، وشركة بترول البصرة . وشركة بترول قطر .

في سنة ١٩٣٩ قبيل الحرب العالمية الثانية بقليل ؛ تأكد الخبراء من وجود البترول في قطر . وكان يؤمل استثماره . ولكن الاعمال الحربية حالت دون ذلك . ولم تعد الشركة الى العمل الا سنة ١٩٤٦ وبدأ الانتاج فعلاً سنة ١٩٥٠ . وهكذا يكون القطاع المنتج لاعمال شركة بترول العراق قد بقي محصوراً حتى نهاية الحرب العالمية الثانية في شمالي واواسط العراق ...

وفي اليوم الثلاثين من تشرين الثاني سنة ١٩٣٨ كانت شركة بترول العراق قد حصلت من الحكومة العراقية على امتياز مدته خمس وسبعون سنة للتنقيب عن البترول في متصرفية البصرة ؛ وتألفت لذلك شركة بترول البصرة المنبثقة عن شركة بترول العراق . وكان محيط امتيازها

واسعاً يضم سهل ما بين النهرين . ولكن الـثروة السوداء لم تنفجر إلا في القسم الجنوبي عند شط العرب والخليج العربي .

وفي ايلول سنة ١٩٤٨ اكتشف البترول في بلدة الزبير قرب البصرة. وفي سنة ١٩٥٤ اكتشفت في الرميلة بئراً اكثر غزارة من الاولى . وفي سنة ١٩٥٩ لم يعد هناك ادنى شك في ان مستقبل العراق البترولي يكمن في الجنوب قـرب الخليج العربي وليس في الشمال كما كان الاعتقاد سائداً قبل عشرين عاماً .

وبالنسبة للعراق – كما هي الحال في ايران – يمـكن القول ان التقدم الاقتصادي والتطور الاجتماعي منوطان بمستقبل البترول فيه . وفي العراق ايضاً جهاز خاص هو مجلس الاعمار (التنظيمات الاخيرة ألغت هذا المجلس واستبدلته بهيئة اخرى هي وزارة التخطيط) مهمته استصلاح الاراضي بما يأخذه من عائدات البترول بنسبة ٧٠٪ . وفي سنـة ١٩٥٨ جمعت الحكومة العراقية مبلغاً قدره اربعة وثمانون مليون جنيـه استرليني من عائدات البترول على انتاج قدره اثنان وثلاثون مليون طن . وقد يصل هذا الانتاج اذا لم يحصل ما يعوقه الى سبعين مليون طن واكثر . وقـد وُضعت مؤخراً مشروعات ضخمة لمضاعفة الانتاج في الجنوب وذلك عن طريق ايجاد وسائل للنقل والتعبئة والتصريف ؛ لأن مرفأ «الفـــاو» البترولي وحده لا يفي بالمقصد ولا يستطيع استقبال ناقلات تزيد حمولتها عن ستة وعشرين الف طن على الرغم من انه يقع خـارج شط العرب تقريباً . وكذلك كان من غير الممكن زيادة حركة النقل من شط العرب لأن الناقلات الكبرى تستطيع ان تدخله .

حـــدود حساسة

ان وجود منفذ للعراق على الخليج هو بالنسبة اليه اكثر اهمية من اي بلدٍ آخر من البلدان الواقعة عليه . انـه المخرج الحر الوحيد لهـذا البلد

على البحار ومهما يكن هـــذا المنفذ صغيراً فانه يؤمن له حرية تامة في العمل . وإلا كان عليه ان يرسل شحناته عبر سورية ولبنان لتصل الى البحر او عن طريق خط طوروس الحديدي السريع الذي يحاذي الحدود السورية التركية . وفي عدة مناسبات كان وضع العراق الذي يرتبـــط بالعالم الخارجي عن طريـــق جاراته سبباً في الكثـــير من الاضرار التي لا مجال لتلافيها . وكلما اندلعت ازمة في قطر من اقطار الشرق الاوسط كلما ازداد قلق العراق يوماً بعد يوم . وقد نال العراق القسط الاوفر من الاضرار على أثر ازمة تأميم قناة السويس عندما نسف الوطنيون السوريون انابيب البترول التي توصل الانتـاج العراقي الشمالي الى المتوسط عند طرابلس في لبنان وبانياس في سورية ..

ولم يعد من العسير فهـم السبب الذي من اجله يستميت العراق في تحقيق هدفه الأسمى في وحدة الهـلال الخصيب التي تفتح امامه طريق المتوسط . انه نفس السبب الذي يسعى اليه السوفيات منذ ايام بطرس الأكبر للوصول الى البحر المتوسط والخليج العربي .

وفي انتظار تحقيق هـــذا الحلم العزيز على العراق ان يكتفي اليوم بنافذته الضيقة على الخليج العربي .

وكذلك يسعى العراق منذ مدة طويلة لاسترجاع المنطقة الواقعة شرقي شط العرب على مسافة ثمانـــين كيلو متراً ، التي تتبع اليـوم الدولة الايرانية . ان هـــذه المنطقة تشرب مياهـاً عربية ، وسكانها يتكلمون اللغة العربية . وهذا ما جعل الحدود الايرانية العراقية كثيرة الحساسية في تلك المناطق الواقعة بين الدولتين .

شيخ المحمّرة الراحل

في فجر هذا القرن ، كانت الضفة الشرقية لشط العرب بما في ذلك جزيرة عبادان وحوض نهر قارون خاضعة لسيطرة شيخ عربي لبق شبه

مستقل هو شيخ المحمّرة التي اصبحت فيما بعد هورام شهر ... وكان هذا الشيخ يتبع طهران شكلاً . وعندما وصل الانجليز بنفوذهم – الذي كان يمتد ليشمل الخليج بأسره – عندما وصلوا هذه المنطقة عقدوا مع الشيخ خزعل بعد اكتشاف البترول اتفاقاً يتيح لهم استخدام جزيرة عبادان لبناء مصفاة بترولية فيها ومد انابيب البترول عبر اراضيه . وفي سنة ١٩٢٠ بدأت مصفاة عبادان تعمل وسال الذهب الاسود في الانابيب . وهكذا نال الشيخ خزعل سنة ١٩١٤ وعداً من الحكومة البريطانية بمساعدته وحمايته . فاحتجت طهران على هذا التطاول على سيادتها وارتفعت في مجلس العموم البريطاني اصوات ضد تصرفات شركات البترول الانجليزية الفارسية .

وبعد الحرب العالمية الاولى على الرغم من نشوءِ سلطة ايرانية حاكمة قوية في شخص رضا شاه بهلوي استمرت شركة البترول البريطانية في التعامل مباشرة مع خزعل شيخ المحمّرة متجاهلة حكومة طهران . فاتهمت الحكومة الايرانية المسؤولين الاداريين عن الشركة بتشجيع شيخ المحمرة على فصل بلاده عن ايران ... وكانت الشركة الانجليزية – الفارسية تأمل في الواقع ان تعيد في المحمرة ما جرى في بوشير سنة ١٧٦٣ بنجاح على ايدي شركة حكومية بريطانية اخرى هي شركة الهند الشرقية . ومن اجل اللعب بورقة الامير ضد سلطة بعيدة كان يفترض ان تكون هذه السلطة ضعيفة ، الأمر الذي لم يكن كذلك بالنسبة الى ايران بعد اعتلاء رضا شاه بهلوي ، ذلك الضابط المغامر ، عرش الأكاسره القدماء .

لقد كان جواب رضا شاه بهلوي السريع سنة ١٩٢٥ ان نفى الشيخ خزعل الى طهران حيث مات محاطاً بكل مظاهر الشرف محروماً في الوقت ذاته من كل حقوقه كأمير مستقل . أما أراضيه فقد ضُمتْ الى الامبراطورية الفارسية واضطرت الشركة الانجليزية الفارسية الى التعامل بعد ذلك مع حكومة طهران . وقد احتجت بريطانيا في البدء ثم سرعان

ما سكتت وانصرفت الى المطالبة بقسم من تركة الشيخ خزعل لضمّه الى العراق الخاضع للانتداب البريطاني . ولـكن رضا شاه بهلوي بقي مصرّاً على الاحتفاظ بما حصل عليه فسكتت بريطانية على مضض وانتقمت منه سنة ١٩٤١ عندما اضطرته الى التنازل عن العرش ونفته الى جزيرة موريس .

واذا سرنا جنوباً في شط العرب من البصرة يمكننا ان نرى قبل الوصول الى هورام شهر وهو الاسم الايراني الجديد للمحمرة بناء ضخماً تحفّ به اشجار النخيل الباسقة المتعالية الى السماء ثم بناء ثانياً وثالثاً بلون الورود .. واذا تمكنا من الاقتراب من الضفة وتركنا الزورق لندخل بستان النخيل وجدنا ان ذلك ليس سوى بقايا قصور خربة نبت فيها العشب . لقد كان البناء الضخم الاول قصر الامير خزعل شيخ المحمرة والثاني بيتاً للحريم والثالث اسطبلاً للخيل التابعة للأمير .

ولا بد من ان نرى هناك صبية صغاراً ممزّقي الثياب يلعبون ويغنّون بين آثار لم تفقد اهميتها على الرغم من اندثارها . وهي آخر ما تبقّى من ذكريات شيخ فخور ، كل ذنبه ان إمارته قائمة في مكان استراتيجي بترولي في عالم اليوم ، عالم البترول الذي لا يحفظ حقاً ولا ذمة .. ان المحمَّرة تسيطرُ على القسم الصالح للملاحة من نهر قارون . وهي ملتقى هذا النهر بشط العرب وتمسك في قبضتها على مفترق طرق هامة . وهذا ما دفع بالانجليز سنة ١٨٩٠ الى إقامة نيابة قنصلية في امـارة الشيخ خزعل وفي اواخر القرن الماضي كانت المحمَّرة مركزاً تجارياً يلفت الانظار ومستودعاً رئيسياً لتجارة تهريب الأسلحة الى ايران وبلاد ما بين النهرين .

وكان الانجليزُ يأملون ان تكون ضفتا شط العرب وهما اخطر مركز حساس على الخليج في ايديهم ليتحكموا بهـذا الطريق الستراتيجي ويطمئنوا الى مستقبلهم ؛ غـير ان المحمّرة اصبحتْ ايرانيةً وبقيت

البصرة عراقية عربية . وذلك بعد اتفاق سنة ١٩٦٦ الذي حدّد الحدود الايرانية على شط العرب .

في بقايا قصرٍ متداعٍ هناك في المحمرة ما زال الصبية الصغار المحرومون من نعم الحياة وخيراتها ينتظرون البخشيش من الضيوف القادمين الى بلادهم من مختلف انحاء العالم .

انهم يجهلون قصة الامير الأبي صاحب القصر الذي انتزعه رضا شاه بهلوي امبراطور ايران من كرسيه واراضيه وامارته . واذا علموا بذلك وبما فعلته حكومة طهران بأمارتهم واميرهم فإنهم لا يكترثون لأنهم يفكرون في اشياء اخرى تتعلق بهم مباشرة . ان وجود البترول الذي قامت وتقوم عليه الحضارة الحديثة ، او عدمه ، وجميع الخطط الستراتيجية المرسومة للسيطرة عليه والاستئثار به ، ان كل ذلك لا يهمهم في شيء . ومطلبهم الوحيد هو البقاء وتأمين الاستمرار في العيش هنا ، في هذا المكان ، مع الاعشاب التي بدأت تطغى على ما تبقى من الجدران والفسيفساء . . . وما ان يغطوا اجسادهم العارية بقميص بالٍ ويسدوا رمقهم بقطعة من الجبن وكسرة من الخبز وحفنة من التمر ويَعبّوا من مياه شط العرب الملوثة الموحلة حتى يعلنوا اكتفاءهم ويشكروا رب العلاء على نعمه . ومن وقت الى آخر يذهب احدهم طعاماً لسمك القرش . وينام الآخرون في العراء ساندين رؤوسهم الى ارض رطبة تحوي في جوفها ثروات لا تقدّر . وكجميع الفتيان في العالم يحلم هؤلاء الصبية بالسفر والمغامرات حباً بالمغامرة ليس الا . فترى عيونهم مسمّرة دائماً بصفحة المياه الخضراء . تُرى هل يسيرون يوماً على خطى جدهم الاعلى السندباد البحري الذي ما انفكوا يروون قصصه ومغامراته الغريبة ؟! واذا قدر لهم وذهبوا سيدهشون عندما يجدون عالماً مترامي الاطراف غير ما كانوا يحسبون .

ومن يدري ؟ قد تكون مغامراتهم الجريئة في المستقبل موضوعاً لروايات مدهشة يتناقلها الاحفاد عنهم ويروونها خلال آلاف الليالي . .

٨

رواية صادقة من القرن العشرين

« ان المهم ان تكون
محبوباً في الشرق الاوسط »
(عبد الله السالم الصباح)

القديم والجديد

ان اغربَ الروايات العربية واكثرها مدعاةً للدهشة لم تكن من نتاج خيال سكان بحر الزمرّد الواسع . ان ما سيأخذ بلبّ السندباد البحري اذا ما عاد اليوم ورأى البصرة المرفأ الذي كان ينطلق منه في مغامراته الغريبة ، يُصبحُ شيئاً تافهاً اذا ما قيس بالتقدم والتطور اللذين أصابا تلك البلدة الصغيرة الواقعةَ على الخليج التي كانت فيما مضى ملجأ للصيادين فاذا بها تصبح فردوس الذهب الاسود .

ان هذا الجونَ الرائع بمياهه الفيروزية العميقة الذي يشق قلب الصحراء قد جذب في الماضي فريقاً من البدو البائسين الفقراء للاقامة فيه عند ساحله . وحاولت الصحراء مراراً ان تصبّ عليهم جام غضبها لتلقي بهم في البحر نافخة عليهم رياحها القاتلة التي تحمل الرمال والقيظ ... ولكن هؤلاء البدو صمدوا في وجه غضبات الصحراء وتمسكوا بتلك البقعة القاحلة .. إننا لا ندري لماذا فعلوا ذلك ؟... ربما كانت العناية

قد أوحت اليهم منذ ذلك الحين عما تنطوي عليه الارض في جوفها من ثروات طائلة .

كانت الكويت منطقة محرومة حرماناً كاملاً من المياه العذبة الحلوة والنباتات الظليلة ، بلداً منسياً مهملاً لا أهمية له على الرغم من كونها المرفأ الطبيعي الوحيد للصحراء . وولى الكويتيون وجوههم شطر البحار بسبب الحصار الذي فرضته عليهم الأرض البخيلة القاحلة الصحراوية ... واصبحوا من اشجع البحارة وابرع بناة السفن والمراكب واجرأ الغطاسين وراء اللؤلؤ . وأخيراً منّ الله عليهم بالبترول .

وفي ظرف عشر سنوات لا غير انهالت على هذا البلد الفقير ثروة لا تقدر ولا يحصيها حساب وصبت في خزائنه كما كان يتدفق البترول غزيراً من آباره . وفي هذه الحقبة القصيرة التي لا تقاس في حياة الامم والشعوب غيّرت هذه الثروة الطائلة معالم الحياة كلها في الكويت الجديدة .

ان الاميرَ الذي يحكمها يتناول كل يوم نصف مليار فرنك .. وهو يشيد القصورَ ويشق الطرقات المعبدة الواسعة ويبني المدارس والمعاهد وينشىء المستشفيات وينشر الثقافة مجاناً بين مواطنيه ويؤمن لهم التطبيب المجاني . وهو كحاكم مسلم مطلق السلطة والصلاحية يصرف الامور في الامارة السعيدة الصغيرة وفقاً لمبادىء وتقاليد ورثها عن الاجداد .

واذا سألت : « كم من الوقت يمكن ان يدومَ هذا الحكم ؟ » أجابك الأمير الشيخ : « ان المهم هنا في الشرق الاوسط ان يكون المرء محبوباً . »

ان بين سكان الكويت الذين يتجاوزون بعددهم مائتي الف نسمة ثمانين الف مهاجر جديد خرجوا حديثاً من ظلمات القرون الوسطى . والذين تفتحت مداركهم في هذه الامارة كثيرون ، وهم قد فهموا ان الثروة البترولية يجب ان تستغل اليوم لا غداً ؛ لأن هذا المنّ

الذي ارسله الله لهم من السماء قد يفقد غداً قيمتـه وينزل عن عرشه . ويجب ان لا ننسى انه في الخمسة عشر الف كيلو متر مربـع التي تشكـّل مساحة الكويت والتي لا تزيد على محافظتــين في فرنسة او ولاية نيوجرسي في اميركا يتجمّع اكبر احتياطي بترولي عرفه العالم .

وهكذا في ظرف سنوات قلائل تحوّل البحارة القدمـاء والصيادون البائسون الى تجار ميسورين وملاكين اثرياء . وبيوت الطين الحقيرة أخلت مكانها للأبنية الفخمة الزاهية الألوان ؛ وعلى الطرقات ، عوضاً عن الجمال، أصبحت ترى السيارات الرائعة من طراز البويك والكاديـلاك وكلها مزوّدة بمكيفات الهواء تتهادى على طرقات فسيحة معبّدة يغطيها الاسفلت لتقطع جمود الصحراء وسكونها . واخذت معامل التكرير تجود بملايين الليترات من المياه العذبة يومياً لسد حاجة الامارة الى الماء الذي جعل الله منـه كل شيء حي . كما ان الغاز والكهرباء قد دخلا ابسط البيوت . واذا تجـولت اليوم في الاسواق وجدت البضائع والمنتوجـات الاوروبية والاميركية في محلات تبهرك انوارها المتعددة الالوان .. والهـواء المكيف والبراد والراديو والهاتف ، حتى التلفزيون ، كل ذلك عرف طريقـه الى اكثر البيوت دون استثناء .

ومدينة الكويت التي يسكنها مئة الف نسمة ونيف تقوم على الضفة الجنوبية من الجون . وقد اعيد بناؤها من جديد ودُفعت اسعار خيـالية ثمناً لقطع الارض فيها . وكان ذلك سبباً في اثراء عدد غير قليـل من ابنائها . واندثرت الاسواق القديمة بأوساخها وحلت مكانها اسواق حديثة تكتظ بشبان يرتدون الزيّ الاوروبي المستغرب في تلك المنطقة الحارة وعلى رؤوسهم الكوفية التقليدية الناصعة .

وعلى طول الارصفة حيث يملك الامير قصراً ايضاً ترى الآلاف في المراكب الشراعية تتهادى على صفحة المياه الفيروزية وذلـك للدلالة على ان الكويتي الذي اعتاد حياة البحر لم يُهمل هذا النشاط تماماً . ويراقب

الكويتي بدون كبير تأثر كل هذه الانقلابات تحدث في حياته الاجتماعية وعاداته كأن ذلك لا يعنيه . وقد حصلت الامور بسرعة مُذهلة الى درجة لم يستطع الكثيرون معها ان يفقهوا شيئاً مما يحدث . ولذلك يتابعون حياتهم التقليدية المحفوفة بالمخاطر ناقلين على مراكبهم الشراعية تمر العراق اللذيذ الى الهند ليعودوا من هناك حاملين خشب التك الذي يستعملونه في بناء مراكبهم التي طالما فاخروا بها .

وخارج مدينة الكويت ما زال هناك على طول الشاطىء بعض القرى التي ما تزال على الفطرة حيث السكان لم يتوصلوا بعد الى الاختيار بين الطين والاسمنت المسلّح .

والمآذن السامقة للمساجد الصغيرة قد قضت على النفوذ البيزنطي الذي حمله الاتراك الى هناك ، وما زال الطراز الخليط هو السائد في فن البناء الجديد . وهذه القرى القائمة كلها على شاطىء الخليج ما زالت تضم اناساً متأخرين جداً ، ولكنهم يتقدمون بخطوات واسعة جداً الى الامام . وما زال هناك عشرون او ثلاثون الف بدوي يترددون على الامارة ويتنقلون في حلهم وترحالهم على الشاحنات عوضاً عن الجمال . ولكنهم حتى الآن لم يتخلوا عن الخيمة التقليدية المنسوجة من وبر الجمال . وقد يقيمون في مكان ما من الامارة مدةً طويلة وما ان يمن الله على الصحراء بزخة من المطر ينبت على اثرها العشب وتكتسي الرمال في البادية بحلة خضراء حتى يترك هؤلاء كل شيء ويعودوا الى صحرائهم التي ألفوها كأن فيها نداءً لهم لا يقاوم ... وقد ترى الى جانب خيامهم اكواخاً من التنك وسعف النخيل تأوي اليها السيارات الحمراء المنكلة . ان هذا الخليط المدهش من القديم والجديد الذي يستأثر بالألباب هو أصدق صورة للكويت اليوم ...

وكثيراً ما يجد الشرطة الأباة بكوفياتهم التي تلونها خطوط حمراء وبيضاء ، صعوبة فائقة في تنظيم السير في شوارع الكويت الحديثة

الفسيحة على الرغم من ان السير هو في اتجــاه واحد وذلك لكثرة ما ينساب من سيارات ، كلها من الانواع الاميركية الفخمة . واذا رأيت المنظر المحزن لمئات هياكل السيارات الصدئة على طول الطريق بين مدينة الكويت وميناء الأحمدي البالغ طولهـــا اربعين كيلومتراً تذكرت ان قيادة السيارة السريعة اصعب بكثير من قيادة مركب الصحراء . وعلى الرغم من هذا المنظر المروع تدفع الطرقات الفسيحة الملساء سائقي السيارات الى تحطيم ارقام السرعة والانتهاء إما الى احد المستشفيات المجانية التي لا مثيل لها بأطبائها وتجهيزاتها وإما الى المقابر التي تفتح ذراعيها لكل ضيف قادم .

الصناعة البترولية في الكويت

تقع الأحمدي المدينــة البترولية الى الجنوب من العاصمة وهي محاطـة بخزانات البترول اللماعــة التي تشرف على ميــاه الخليج الخضراء ، وتضم ثروة الكويت الاسطورية ... وعند اقدام المدينة الى الشرق يقوم الميناء البترولي المعروف الذي يعتبر احدث مينــاء بترولي في العالم بطاقته التي لا تضاهى في التعبئة السريعة .

وهناك رصيفان بشكل « T » يستقبلان بدون انقطاع ناقلات بترولية ضخمة تعبُّ ليلاً نهاراً ملايين البراميل من البترول لتحملهـا الى اوروبة واميركا وآسية . والى الجنوب من ميناء الأحمدي يقوم ميناء عبدالله الذي ينتهي عنده خط الانابيب القادمة من المنطقة المحايدة السعودية الكويتية . وفي قطاع لا يتجــاوز عشرات الكيلومترات المربعة يدوس الانسان بدون اكتراث ارضاً رملية جافة تختزن في جوفها اكبر ثروة قد يستطيع ان يتصورها خيال انسان في الوجود ...

وتدعى الشركة التي تستثمر هــــذه الثروة الاسطوريــة شركة بترول الكويت . وهي مناصفة بين شركة البترول البريطانية (الشركة الانجليزية

الايرانية سابقاً) وشركة بترول الخليج الاميركية المساهمة التي يشرف عليها الملك البترولي المشهور ميلون والتي تنافس شركة ستندارد نيوجرسي وملكها روكفلر المعروف . والانتاج الكويتي خاضع ضمناً للسيطرة البريطانية بموجب المعاهدة « المانعة الأبدية » التي اشرنا اليها سابقاً . وهكذا حالت بريطانيا دون تسرب ذهب الكويت الأسود الى خزائن غريبة عنها .

وللبترول في الكويت قصة طريفة . ففي سنة ١٩٢٠ دخلت شركة بريطانية تدعى «النقابة الشرقية العامة» يديرها شخص طريف غريب الاطوار هو الماجور النيوزلندي هولمز . وقد أمنّت هذه الشركة لنفسها عدداً من الامتيازات للتنقيب عن البترول في انحاء الخليج العربي خاصة في البحرين والكويت . وعندما عرض هولمز هذه الامتيازات على شركات البترول البريطانية هزئت به وسخرت منه فتوجه الى الشركات الاميركية حيث وجد آذاناً مصغية . وكادت المفاوضات تنجح عام ١٩٣١ مع شركة بترول الخليج المساهمة فأعلنت بريطانية معارضتها لكل اتفاق من هذا النوع متسلحة بالمعاهدة الموقعة مع امير الكويت ...

وبعد قليل من الوقت اي في سنة ١٩٣٢ اظهرت الشركة الانجليزية الفارسية التي تملكها الحكومة البريطانية اهتماماً فائقاً بالكويت ، وارسلت منقبين عن البترول الى هناك معلنة عن عزمها على الحصول على امتياز للتنقيب عن البترول في الكويت . وعند سماع هذا النبأ غضبت الشركة الاميركية واشتكت الى نظارة الخارجية فقدمت واشنطن مذكرة شديدة اللهجة الى وزارة الخارجية البريطانية حملها السفير الاميركي في لندن الذي لم يكن سوى اندريه ميلون . وهو رجل كما نعرف تعنيه القضية بصورة خاصة لأنه رأسمالي كبير يملك اسهماً كثيرة في شركة الخليج ... وبعد عدة اشهر من المناورات والمداورات وقع اتفاق بين شركة بترول الخليج الاميركية وشركة البترول البريطانية ولدت بموجبه

شركة جديدة هي شركة بترول الكويت . وكان هذا العمل نوعاً جديداً من التعاون في انتاج البترول لا يقيـد حرية تصرف اي من الشركاء، ومزاحمته لسواه خارج الامارة الكويتية . ولما كانت الكويت خارج نطاق الاتفاق المعروف باتفاق الخط الاحمر الذي وقع لدى تأسيس شركة بترول العراق لذلك لم يستطع شركاء الشركة الانجليزية الفارسية في شركة بترول العراق ان يفعلوا شيئاً معها، وكذلك شركة بترول الخليج لم تكن بين الشركات الاميركية الموقعة على ذلك الاتفاق ...

وهكذا حصلت هذه الشركة الجديدة الاميركية البريطانيـة مناصفة سنة ١٩٣٤ على امتياز للتنقيب عن البـترول واستثماره في كل الاراضي الكويتية مدته خمسة وسبعون عاماً . وفي سنة ١٩٥١ جـدد الاتفاق ومدد خمسة وسبعين عاماً جديدة . وللمحافظة على الحقوق البريطـانية المكتسبة وخاصة تجديد الجنسية سجلت شركة بترول الكويت في كندا احدى دول الكومنولث البريطاني ...

بعد التنقيب الجيولوجي في سنتي ١٩٣٥ – ١٩٣٦ أدت الحفريات التي أُجريت شمـالي جون البحرة الى نتائج مخيبة للآمال . وتجـددت اعمال التنقيب سنة ١٩٣٨ في الجنوب عند « البرقان » وجاءت النتائج هـذه المرة مشجعة تبشر بالأمل . ولكن الاهمية الحقيقية للاحتياطي البترولي الكويتي لم تعرف إلا سنة ١٩٤٢ بعد حفر ثماني آبار هناك . ثم جاءت الحرب، فسدّت الآبار وتوقف العمـل حتى سنة ١٩٤٦ . وبعد العودة الى الحفر تبين ان « البرقان » هو من اهم حقول البترول في العالم . فأخذ الانتاج ينمو وبدأ يتصاعد رقمه وامتدت الحفريات الى منطقة اخرى هي منطقة «المقوع» سنة ١٩٥١ والى منطقة الاحمدي سنة ١٩٥٣ غير ان بئر «البرقان» بقيت المنطقة الاغنى وحقل البترول الرئيسي .

والطبقات المنتجة الرئيسية التي يبلغ عددهـا ثلاثاً موجودة على عمق يتراوح بين ٣٥٠٠ و٥٠٠٠ قدم، او ما يتراوح بين الف والف وخمسماية

متر . وقد ساعد قربها من السطح وجيولوجية الارض البسيطة ووجود خزانات طبيعية لحصر البترول ؛ كل ذلك ساعد على تخفيض التكاليف وتوفير الوقت في الحفر . وأتاح كذلك قرب هذه الحقول البترولية من الشاطيء واشرافها عليه تصريفها بدون حاجة الى دفع . ووفر ايضاً العمق الملائم وطبيعة المياه الهادئة في الخليج على الشركة بناء ميناء اصطناعي خاص . كل هذه الاسباب جعلت استثمار بترول الكويت من افضل الاستثمارات البترولية العالمية وأقلها كلفة . انه يسيل بصورة طبيعية بعد ان يطفح الى السطح . وبعد مراقبته مراقبة دقيقة يمكن تعبئة بترول الدرجة الاولى الخالي من الكبريت في الناقلات مباشرة بعد تبخير الغازات منه وتركيده دون القيام بأية عملية خاصة ...

ولم تكتشف امكانات الكويت البترولية التي لا حد لها إلا بعد تأميم بترول ايران من قبل الدكتور مصدق سنة ١٩٥١ وتوقف الشركة الانجليزية الايرانية عن العمل في بئر مسجد سليمان . لقد نقلت هذه الشركة بعد ان تحولت الى شركة البترول البريطانية كل نشاطها الى الكويت خوفاً من ان يمر العالم وبريطانية خاصة بازمة بترولية . لقد كان تأميم بترول ايران حظاً هبط على الكويت من السماء ... تماماً كما حول احتلال البصرة بواسطة الفرس في القرن الثامن عشر الميلادي كل تجارة الخليج الى الامارة الصغيرة .

اذا كان التقدم الاقتصادي والاجتماعي في الكويت لا يجاريه أي تقدم في العالم ، فما ذلك إلا لأن انتاج البترول قد تضاعف بأرقام هائلة بلغت تسعين ضعفاً خلال ثلاث عشرة سنة . والمستقبل القريب لا يترك اي مجال للحيلولة تكنيكياً دون هذا التطور . والاحداث الاقتصادية او السياسية وحدها تستطيع ان تؤخر دولاب التطور ...

في حزيران سنة ١٩٤٦ أرسلت اول شحنة من بترول الكويت الى اوروبة . وفي تلك السنة بلغ الانتاج ثمانماية الف طن ، درت على خزينة

الكويت ثمانماية الف دولار . وفي سنة ١٩٥٦ اي بعد مرور عشر سنوات صدّرت الكويت خمسة وخمسين مليون طن على الرغم من ازمة قناة السويس وتعطيلها . وبلغت عائدات الخزينة الكويتية اكثر من ثلاثماية مليون دولار يضاف اليها عائدات المنطقة المحايدة . وفي سنة ١٩٥٨ وصل رقم الانتاج سبعين مليون طن . ومن المنتظر ان يصل الى مئة وخمسة وسبعين مليون طن سنة ١٩٦٢ . وهكذا نجد للانقلابات الحياتية المتتابعة في الكويت بسرعة فائقة منذ عشر سنوات ما يفسرها ويبررها . ان انتاج البترول قد تضاعف وضرب رقمه بعشرة وهو يسير بخطوات جبارة الى الامام . غير ان العائدات تسرع اكثر منه وتسير بخطوات العمالقة ، لا سيا بعد ان دخل الاتفاق الجديد موضع التنفيذ سنة ١٩٥١ وهو القاضي بأن تنال الكويت نصف الارباح . وهناك أمل كبير في زيادة هذه النسبة في المستقبل القريب . وستجد هذه الامارة نفسها قد زاد معدل دخل الفرد فيها ثلاثة اضعاف عن اعلى معدل للدخل في العالم ..

وحسب تقديرات الخبراء وتقاريرهم تعتبر الكويت البلد الذي يحوي اغزر احتياطي بترولي في العالم . فقد قدر هذا الاحتياطي عام ١٩٥٣ بما يعادل ١٨،٢ مليار برميل وارتفع سنة ١٩٥٥ الى اربعين مليار برميل او ٥،٧ مليار طن . وهذا الرقم يمثل ُخمسَ البترول المكتشف في العالم حتى ذلك التاريخ . وبعد سنة ١٩٥٥ على الرغم من اكتشاف حقول جديدة للبترول وخاصة في صحراء الجزائر فإن النسبة لم تتغيّر وقدّر احتياطي الكويت سنة ١٩٥٧ بسبع مليارات طن . وذلك لأنه اكتشفت آبار جديدة في شمالي الكويت في الردحتين بعد عملية تنقيب واسعة النطاق بدأت سنة ١٩٥٦ . وما ان تفجّر البترول حتى ُمدَّت الانابيب لايصاله الى ميناء التصدير على الخليج العربي ... واحتياطي منطقة الردحتين بعد ان يتمّ تقديرُه َمضافاً الى الاحتياطي الذي سبق وقدّر في آبار « البرقان » و « الاحمدي » و « مقوع » وما يمكن العثور عليه في

« البحرة » و « صبريّة » حيث تنتظر النتائج الايجابية ؛ سيبقي كل ذلك الكويت في رأس البلدان الغنيّة بالبترول ويجعلها في الطليعة من حيث الاحتياطي الذي لا مثيل له ...

الآلة في الصحراء

يقيم الرأس المدبّر لهذا العمل الضخم في وسط اقدم منطقة للإنتاج في بـلدة « الأحمدي » بين « البرقان » و « مقوع » ... وتشرفُ بناياتُ الادارة على مدينة بترولية مزوّدة بكل وسائل التسلية والراحة . ولكن يجب على المرء ان يكون انجليزيَّ المزاج حتى لا ينفجر من الملل والضجر . اذْ لا شيءَ يقطع الرتابة التي تضجر في البر والبحر . وكلاهما مسطحٌ . واحياناً تهب رياح الشمال حاملةً الرمالَ فتحجب كل شيء عن النظر بحجاب اكثف من الضباب اللندني . ولكنّ هـذه الرياح لا تقتصر على الكويت فقط وانما تهب على كل بلدان الخليج بما فيها عبادان والبصرة على شط العرب . وهنـاك رياحٌ اخرى مزعجة هي الرياح الشرقية التي تهبّ من الشرق والجنوب الشرقي وتحمل معهـا الرطوبة والحرارة واللزاجة في جوٍ متلبدٍ بالغيوم . ولكن هـذه الرياح هي في الكويت اخف منها في الاماكن الاخرى من الخليج . وعندما تكون السماء صافيةً والرؤية حسنة يبدو المشهد فعلاً رائعاً من الأحمدي اذ يتبع النظرُ المنحدرَ البطيء حتى صفحةِ المياهِ الفيروزية حيث تتهادى المراكب الشراعية بين ناقلات البترول الضخمة . وقد يتعلق المرء بهذا المشهد غير البارز ولكنه ملـّون زاهٍ وهادىء .

يَتبعُ البترول المنحَدر ذاتـه الذي يتبعه نظرنا ويسيل من المخازن الضخمة المنشأة على حقول البترول في انابيب الى شاطىء المياه . وإما ان يصب في ناقلاتٍ متوسطة الحجم وإما ان يتابـع سيلانه في انابيب تحت الميـاه الى عرض الخليـج حيث تنتظره الناقلات الضخمة . وفي

بضع ساعات تملأ أكبر الناقلات جوفها بالبترول وتمخر عباب البحر الاخضر حاملة الدماء الى شرايين الصناعة الحديثة في العالم. وعدة آلاف منها تعبُ من ميناء الأحمدي كل سنة (ثلاثة آلاف في عام ١٩٥٩) وبالقرب من الميناء حيث تقوم خزانات البترول بنت شركة بترول الكويت مصفاة للتكرير لتسدّ حاجة السوق المحلية ، وتزود الناقلات بما يلزمها من وقود . وقد ارتفعت قدرة هذه المصفاة الانتاجية سنة ١٩٥٨ الى ثمانية ملايين طن وهي تكفي لسد هذه الحاجات . وهنا كما على ارصفة الميناء ، وفي حقول الانتاج ، تسيطر الآلة سيطرة تامة وتتعب نظرك في التفتيش عن العمال فلا تجد سوى عدد ضئيل منهم يراقبون سير الآلات في عملها الجبار .

وعلى الرغم من اللجوء الى الآلة الحديثة في عمليات انتاج البترول وتصريفه ، تستخدم شركة بترول الكويت ما ينيف على ثمانية آلاف شخص بينهم الف بريطاني وبضع عشرات من الاميركيين (جلُّهم من الفنيين) .

ويتقاضى العمال العرب اجوراً مرتفعة ويقيمون في مساكن مريحة تعدها الشركة ، اذا هم ارادوا ذلك . أما الخدمات الإدارية والفندقية فيؤمنها المستخدمون الهنود والباكستانيون والغوانيون وهم يشكلون طبقة «متوسطة» في كثير من المراكز البترولية في الخليج العربي .. وفي الادارة والمحاسبة ايضاً هناك عدد من الفلسطينيين والعراقيين والسوريين والمصريين.

وبطريقة غير مباشرة يؤدي استثمار البترول الى افادة قسم كبير من السكان باستخدامهم في مجالات شتى او فتح مجالات العمل امامهم .فحركة البناء مزدهرة وتجارة الاستيراد رابحة جداً ، لأن على الامارة ان تستورد من الخارج كل ما تستهلك حتى ثمرة البطاطا ودبوس الشعر وغرام الطحين الى ما هنالك من مواد لا عد لها ولا حصر ...

ان الكويت غنية بالبترول وغنية جداً ولكن ليس فيها سوى البترول . والشجرة الوحيدة التي تنبت هناك هي ذلك الجهاز الحديدي

المتعالي فوق آبار البترول ...

ولا يمكن ان تمر هذه الحالة دون ان تذكرنا بمجالات اخرى في اماكن مختلفة من الخليج عرفت بدورها هي الاخرى حقبة من الازدهار، ومنها هرمز وبوشير ...

وعلاوة على البترول الموجود بكثرة فان الكويت لا تستطيع ان تقدم شيئاً يذكر مقابل ما تأخذه من البلدان المتقدمة صناعياً الا قليلاً من اللؤلؤ والصوف والجلود وكلها تتضاءل كميتها سنة بعد سنة .. ولتحاشي استغلال ابناء الامارة ، وكي لا تسد هذه الموجة الجارفة من التجار الجشعين التي اجتاحت الكويت من الخارج سبل العيش امام الكويتيين انفسهم سنّ الامير قانوناً عادلاً حكيماً يقضي بألا يسمح لاية شركة ان تعمل في الكويت الا إذا كان احد ابناء الكويت شريكاً فيها ... وكانت النتيجة ان اصبح استخدام اسم اي مواطن كويتي لفتح شركة او فرع شركة عملية رابحة بالنسبة له دون ادنى مشقة او تعب او خسارة في هذا البلد الفريد ...

ولكن هناك حوالى مئة وخمسة وعشرون الف كويتي بين ذكر وانثى لا يعملون ولا ينتجون . ولذلك يفكر المسؤولون في خلق زراعةٍ غذائية من لا شيء بجر المياه من شط العرب واستخدامها في ري هذه المزروعات. غير ان هذا المشروع الموضوع تحت الدرس منذ عدة سنوات اصطدم بالحذر من قبل حكام الكويت خوفاً من نوايا حكام العراق التوسعية التي كثيراً ما برزت الى حيز الوجود بشكل مطالبة جديدة لضم الكويت الى العراق . ولكن السؤال الذي يتبادر الى الاذهان علاوة على ذلك هو اين تجد الامارة فلاحين متطوعين للقيام بأعمال الزراعة في هذا البلد الذي ينام فيه المرء فقيراً ويصحو مليونيراً . ان الذين يبقون فقراء في الكويت هم الصيادون والبحارة المغامرون او بدو الصحراء ، هؤلاء السكان المتنقلون الرحل الذين تسبب قطعان الماعز معهم

اضراراً تفوق بمراحل كثيرة اضرار الجراد على الرغم من ان لحمها اسوأ من لحمه ...

وعوضاً عن البحث والكد من اجل ايجاد توازن اقتصادي يظهر ان الكويت كتب لها ان تعيش بضع سنوات أخرى وتحيى قصتها المدهشة، قصة تفوق على الرغم من واقعيتها اغرب الروايات والاساطير غرابة ...

ان ثروة الكويت حاليـــاً لا تبقى فيها . وانما تذهب الى بيروت والقاهرة ونيويورك وبصورة خاصة الى لندن .. وبالطبع لن تدوم هذه الحالة التي تحياها الكويت الى الأبد ...

يقام اليوم في امارة الرمل والملح « ديكور » باهظ التكاليف والابقاء عليه باهظ اكثر . واذا توقف تفجر البترول يوماً فلا بد انه سينهار كل شيء وتعود القصور هباء يختلط بالرمال ، والمياه العذبة الى أجاج مالح ، وسيارات الكاديلاك الصدئـــة ستلقى على جانب الطرقات التي رجعت مسالك للجمال . عندئذ يعود الملاحون الشجعان الى التفلسف في ظـلال اشرعة مراكبهم المثلثة متناقلين من شفة الى شفة ومن اذن الى اذن عبر الأجيال قصة من اغرب القصص كلهـــا ملاحم وغرائب .. تلك هي قصة البترول في الكويت .

٩

لا تسوّل

« لماذا تبدو الصحراء ساكنة صامتة ؟؟
هل لأنها غير مأهولة ؟؟ كلا »
(شكسبير)

حكم فردي بناء

هناك في مدينة الكويت – وما يقال الآن ليس رواية من الروايات – حيث الشمس الصفراء والبحر الاخضر ، قصرٌ قاتم محاط بالورود ، يحرسه عدد كبير من الجنود يفخرون بقمصانهم الحمراء وسراويلهم السوداء وكوفياتهم البيضاء .. واذا سألهم احد الاجانب الذين يجهلون الامر عن المكان أجابوه بكل بساطة : ان هذا القصر الهادىء انما هو مسكن امير شيخ له ميله الخاص الى التقشف في الحياة . ان لديه كثيراً من المال وهو مصاب بداء المفاصل . وله نظرة الأب الحنون . انه يصلي كثيراً ويعيش ببساطة ويعتقد ان الله غمره بنعمه . وهو فخور بتطور الاوضاع في امارته بهذه السرعة المذهلة ولكنه يتألم لجحود نفرٍ من رعاياه .

لقد قضى الامير عبد الله السالم حاكمُ الكويت على الآفات الثلاث التي تهدم المجتمع : الفقر والجوع والمرض . ولكن يمكنه ان يتساءل ترى ألم أكن أسعد حظاً وأحسن حالاً في الماضي قبل ان يفسد هذا الذهب

النفوس الطاهرة والقلوب البريئة حيث قضى على الوفاء والولاء ؟

نعم انه يستطيع ان يطمئن الى سلامة شخصه ومركزه دائماً بفضل ولاء حراسه الزنوج الذي لا يدانيه ولاء ... وهو يريـــد ان يبقي كل ثقته في رجال شرطته المتنقلين الذين يجزل لهم العطـــاء ، هؤلاء العمالقة السمر الذين يعتمرون الكوفية الحمراء والبيضاء .

وعندما يُرخي الليل سدوله وتطغى اشعة الغاز الحمراء المنبعثة من البترول على النجوم الوضاءة يجب على امير الكويت الشيـخ عبد الله السالم ان يطرح على نفسه هذا السؤال : « ترى هل أنا محبوب ؟ » .

لقد اعطى الشيـخ عبد الله السالم شعبه مدارس فريدة من نوعها في بلدان الشرق الاوسط تفوق مدارس كثير من البـلدان الغربية المتقدمة تنظيماً وتدبيراً وعلماً ... وهناك خمسة وتسعون بالمئة من الذين هم في سن الدراسة يذهبون الى هذه المدارس الحديثة حيث يربو عددهم على عشرين الفاً . وهم يتناولون بالاضافة الى العلم الطعام والكساء مجاناً من الأمير دون مقابل .

وفي الحقل الصحي أمّن الامير لشعبـه المستوصفات المنظمة الحديثة الجيدة وعددها يزيد على الخمسة والعشرين واعد له خمسة مستشفيـات لا مثيل لها من حيث الاعداد والتجهيزات لا في اوروبة ولا في اميركا ؛ والتطبيب مجاني للجميع . وقد يتنـاول ايضاً بعض الاجانب بادخالهم سراً الى المستشفيات ...

وكذلك اعطى الامير رعيته ميـاه الشفة بتكرير مياه البحر المالحة بملايين الليترات . وأدخل النار عن طريق الغاز الى المطابخ في البيوت والمنازل ومعها الضوء والموسيقى بفضل الكهرباء ...

وهيأ الامير ايضاً للشعب الهاتف الآلي والتلغراف اللاسلكي والمساكن الصحية اللائقـة بالشعوب المتمدنة في القرن العشرين والطرقـــات الفسيحة المعبـــدة المزفتة ، والمرافىء الآمنة ، والمطارات الواسعة ،

والمسابح النظيفـــة والمساجد الطاهرة والاسواق الجديدة والمعـــاهد التكنيكية الفخمة . فماذا يريد الشعب فوق هذه النعم والاصلاحات التي يتمناها كثير من بلدان الشرق الاوسط ، ماذا يريد فوق ذلك ؟!.

وهو يتساءل بعد كل ذلك لماذا لا يزال البعض غير راضين ويطالبون بأنظمة تمثيلية وحريات يصونها الدستور .

لقد احدث الامير أيضاً مخافر للشرطة وسيّر دوريات مسلحة بالاسلحة الآلية السريعة ويرئس هذه الوحدات الشيخ عبدالله المبارك .

ان كل شيء بالنسبة للكويتيين العجولين يبدو حسناً طالمـا انه يحمل بعض التغييرات وَيعدُ بعدالة اكثر... لقد تعبوا من نظام عشائري موروث لا يتلاءم مع العصر الحديث وحاجاته ومتطلباته ... انهم متعطشون الى العدالة ، عدالة لا تقوم على التقاليد ويريدون ان ينتهوا من الرجم والجلد لأبسط الزلات . كما انه لم يعد من المفيد اجتماعياً ان تقطع يد السارق لشبهة او سرقة تافهة .

ولم يكن فيما مضى للحياة الانسانية أية قيمة في بعض امارات الخليج ..

ويروي احد رجال الاستخبارات الانجليز حادثة وقعت له بالذات في احدى الامارات منذ سنوات متعددة فيقول : « حصل بيني وبين الامير الحاكم نزاع لأمر لا مجال لذكره ، فانقطعت عن زيارة القصر الأمر الذي احزن الامير كثيراً ...

وفي احد الايام صدمت بسيارتي أعرابياً وقتلته . وفي الحال توجهت الى القصر مرتبكاً مضطرباً لأعتذر الى الامير ... وفي البداية استمع الي وهو مقطب الجبين منعقد الحاجبين ، ثم انفجـر ضاحكاً وفتح ذراعيه وضمني قائلا : « يا بني ، اذا كان قتل احد ابناء رعيتي يسعدني بزيارتك فاقتل واحداً كل يوم . افعل ذلك طالما انت حي اذا كان يحلو لك ... ولا تضطرب ولا تكترث لمثل هذه الاعمال ... » .

قد تكون هذه الحادثة حقيقية فعلاً وقد تكون مختلقة اصلاً من قبل

العميل الانجليزي لاظهار مكانته ونفوذه وعظمة دولته . ومهما يكن فإن مثل هذا الحادث اليوم لا يمكن ان يقع لأن الوضع قد تغير .

ان الامير يحكم اليوم بلده حكماً فردياً بنّاء ويحيط نفسه بالمستشارين من ابناء عائلته الذين يبلغ عددهم ثمانية عشر .

والشيخ عبد الله المبارك مدير الامن العام هو الشخص الثاني في الامارة لما له من نفوذ . واما الشيوخ الشباب فإنهم يؤيدون فكرة الاصلاحات الضرورية في السياسة والحكم ...

الروح التقدمية

لا يهتم الكثير من الكويتيين الذين غمرهم الذهب بالدستور بمقدار ما يهتمون بحماية مصالحهم . وهم من أشد المحافظين حزماً . وقد كان اصحاب المصالح هكذا دوماً وابداً في كل زمان ومكان .. والتيار التقدمي الذي يدعو الى الاصلاح العميق والتغيير الجذري يأتي من بقية البلاد العربية المتحررة ويجد له صدى مستحباً عند الشبيبة الكويتية المتحمسة للتقدم والانطلاق .

وكل ما قلناه بهذا الخصوص ينطبق كل الانطباق ايضاً على البحرين وقطر ، الامارتين البترولیتین المتجاورتين اللتين تعيشان نظماً سياسية واجتماعية مشابهة مع بعض الاختلاف الطفيف . في هذه الاقطار الغربية حيث نفتش عبثاً عن متسول يستجدي ، نجد خميرة التطلع نحو الاحسن تنمو وتتكاثر اكثر من اي مكان آخر .

وفي الامارات الثلاث لم يرافق التقدم الاقتصادي والاجتماعي وارتفاع مستوى العيش والصحة والتربية والثقافة والتعليم والفن اي تغيير سياسي أصيل ، إلا ان الجهاز التعليمي في اكثريته والجهاز الاداري الاميري في نسب مختلفة يتألفان من حملة شهادات ينتسبون الى الاقطار العربية الشقيقة الاكثر تقدماً ، من استهوتهم الاجور والرواتب المرتفعة في امارات الخليج العربي . وهؤلاء على العموم رُسل متطوعون للقومية العربية الناهضة.

وهم يُعدون الاجيال الصاعدة الشابة من طلابهم اعـــداداً جديداً تقدمياً ويؤيدون توحيد اجزاء الأمة العربية المتفرقة لكي يقوى ساعدها ويزداد ثقلها في الميزان الدولي .

وفي أعقاب هــذا الجيل الشاب المندفع المتوثب يسير عمـال البترول وصغار البورجوازيين وقد اصبحوا جميعـاً شديدي التأثر بما تطلقه الاذاعات العربيــة في كل يوم اذ تذكرهم بماضي بـلادهم المجيد واجـــدادهم الافـذاذ الذين حكموا من الخليج الى المحيط ، مصوّرة لهم المستقبل الزاهر اللامع الذي ينتظر الأمة العربية اذا مـــا توحدت صفوفها المتراصة . وتكاتفت لتقود الانسانية جمعاء الى النور الحق والحضارة المثلى التي تؤمن السعادة للمجتمع البشري .

ومن قادة الحركة القومية التقدمية في الكويت الدكتور احمد الخطيب الذي يصدر صحيفتين اسبوعيتين ويؤيد فيهما السياسة العربية التحررية التي تسير في مخطط الرئيس جمال عبد الناصر الوحدوي القومي الحيادي .

الأمارة الغنية

لقد تأسست امارة الكويت سنة ١٧٥٦ بفضـل جهود اسرة عربية نشيطة تنتسب الى قبيلة « عنزة » القوية ، وهي اسرة الصباح من فرع « عتيبة » . والى نفس هذه القبيلة ينتسب آل سعود ملوك المملكة العربية السعودية وآل خليفة امراء البحرين ...

وحتى ذلك الوقت كان الجون الذي استهواهم يسمى « القرن » ... ونجد هذا الاسم ايضاً على مصوّر وضعه « كارستن نيبور » مع الاسم الجديد . وكانت لا تزال تحمل الإسم القديم عندما اشتهر احد ابنائها رحمة بن جابر كربّان بحري جريء محارب يعمل في المياه المجاورة لشمالي الخليج العربي بين سنة ١٨٠٠ — ١٨٢٠ .

في ذلك الحين بنى اسيادها الجدد حصناً صغيراً اي (كوت) ومنه اشتق

اسم الكويت .

وأول فرصة تاريخية سنحت للكويت جاءت عندما احتل الفرس مدينة البصرة وفر عدد كبير من تجارها الأغنياء الى جارتها الكويت اذ بقيت الامارة بفضل ذلك الحـادث طيلة سنوات تحتكر التجارة البحرية في الخليج ، وبرزت على اثر ذلك اهمية مرفأها الطبيعي . ومنذ ذلك الوقت لم تنفك امارة الكويت تلعب دوراً رئيسياً في التجارة فتحسنت احوالها نوعاً ما وأمّها ايضاً عدد كبير من المهاجرين الايرانيين .

والفرصة الثانية كانت عندما اظهرت الدول الكبرى كلها اهتماماً زائداً بالكويت وذلك في نهـاية القرن التاسع عشر . ففي سنة ١٨٩٠ ألحق الباب العالي الكويت اسمياً بممتلكاته . وفي سنة ١٨٩٨ أراد فعلاً ان يضمها الى امبراطوريته فجرد حملة لغزوها . وتطلعت برلين اليها لتكون نهاية خط برلين بغداد الحديـدي . ووضعت موسكو مشروعاً لمد خط حديدي عبر ايران ينتهي في مدينـة الكويت . وكذلك فان الفرنسيين حاولوا التسرب فأكثروا من الزيارات اليها . غـير ان ذلـك كله لم يكن شيئاً يذكر ازاء ما قامت به بريطانيا التي كان نفوذها يزداد في منطقة الخليج العربي حول الكويت .

وبموجب معاهدة الثالث والعشرين من كانون الثاني ١٨٩٩ وضعت انجلترة الامارة الصغيرة تحت حمايتها . وهكذا وجد الألمان والاتراك والروس والفرنسيون أنفسهم امام الأمر الواقع ...

اجل لقد ترتب عن هـذا العمل نتائج اقتصادية بترولية مر ذكرها ولكنه في الوقت ذاته أتاح للكويت ان تبقى مستقلة امام التهديد التركي . وبفضل هذه الحماية البريطانيـة صانت الكويت حدودها مـع السعودية والعراق بموجب معاهدة « عقير » الموقعة سنة ١٩٢٢ التي كانت اعترافاً باستقلال الامارة الكويتية لاول مرة في التاريخ ..

ويجب التذكير في هذه المناسبة بأن المعاهدة البريطانية الكويتية لا

تمنع الأمير من حرية التصرف على الصعيد الداخلي . ومنذ سنة ١٩٠٤ أقام ضابط سياسي بريطاني في « فيلكة » وكان المقصود من ذلك حماية بترول ايران الذي حصلت بريطانية آنذاك على امتياز استثماره ... وفي سنة ١٩١٣ كتب الأمير الى المقيم البريطاني في بوشير يعلمه بأنه : « لن يعطي اي امتياز بترولي إلا لشخص او شركة ترسله الحكومة البريطانية » وفي مقابل ذلك ارسلت الحكومة البريطانية مذكرة الى امير الكويت في الثالث من تشرين الثاني سنة ١٩١٤ تحدد فيها موقفها من الأمارة وتعلن حمايتها لاستقلالها اذا ما تعرضت لهجوم خارجي . واشارت معاهدة جدّة المعقودة بين المملكة العربية السعودية والمملكة البريطانية المتحدة عـــام ١٩٢٧ في مادتها السادسة الى ان المملكة السعودية تتعهد باحترام سيادة امارة الكويت واستقلالها . في كل هـذه الاعمال يعلن امراء الكويت امتنانهم ولكنهم مع ذلك يؤكدون ارادتهم ورغبتهم الخاصة في المحافظة على حرية التصرف والعمل الداخلي في أمارتهم السعيدة .

ان محاولات التطور والتحرر لا يمكن ان تذهب بعيداً حتى لو ارادها الانجليز وعملوا لها . فانهم أعجز من ان يفرضوا على الامير الحاكم ارادتهم فيمايتعلق بشؤون البلاد وتصريف امورها على الطريقة الديموقراطية . بل على العكس ان ضخامة المسؤولية تدفع الانجليز الى الحذر الكبير والتكتم التام في علاقاتهم بالامير الحاكم ... وذلك لأن استمرار الوجود الانجليزي في الكويت اصبح من اكبر مشاغل السياسة البريطانيـــة ليس فقط في الخليج العربي بل في الشرق الاوسط بأسره .

ان الأمارة الصغيرة تنتج من البترول ما يفيض عن حاجة بريطانيا ؛ والكمية الفائضة يدفع ثمنها بالجنيه الاسترليني ويوفر على الخزينة البريطانية ملايين الجنيهات من القطع النادر . بل هنـــاك اكثر من ذلك ، ان الكويت تزوّد بريطانية بالقطع النادر عن طرق أخرى . فما يجنيه الامير الكويتي يحوّل الى نقد نادر ثابت القيمة متوسط وبعيد المدى ، ويوظف في سوق

المال في لندن . وما من احـــد يجهل هنـاك ان الكويت هي افضل عميل للسوق المالية . والمرجح ان الكويت ايضـاً تملك عـدداً كبيراً من اسهم شركة البترول البريطانية وشركة الخليج الاميركية وشركة رويال دوتش شل الانجليزية الهولندية . ومن ناحية ثانية تحتكر الشركات والمؤسسات والمصانع البريطانية للاشغال العامة والمفروشات والاثاث اكثر العقود مع الكويت لا سيما الضخم منها . وهي كثيرة جداً يعجز عنها الاحصاء ، وقد أملاها على الامارة تقدمها السريع والضرورة الملحة والوضع الطبيعي ... واما الاعمال الثانوية التي لا يؤمل فيهـا بالارباح الفاحشة الكبرى فيتركها الانجليز الخبراء في الشؤون الاقتصادية لبعض الشركات العربية الوحيدة التي لا يستطيع الانجليز شيئاً تجاهلها لأنهـا تحت حماية الامير الحاكم . وهناك اخيراً شركة البترول البريطانية التي تشرف عليهـا الاميرالية البحرية ووزارة الحربية نفسها ، فإن لها مصالحها الرئيسية في امارة الكويت التي تقدم لها تقريباً اكثر من نصف انتاجهـا العالمي العام اذ تأتي بعد ايران التي تحتل الدرجة الاولى . واما حصة شركة الخليج الاميركية من بترول الكويت فقد تخلت هذه عنها وباعتها الى شركة رويال دوتش شل بموجب عقد طويل المدى .

ان المهم بالنسبة لبريطانية ان تبقى اطول مدة ممكنـة في الكويت ، لذلك يمشي البريطانيون هناك على رؤوس اقدامهم حذراً وتحفظـاً واذا حصل حادث ما وأُهين بسببه احد رعايا الامبراطورية العجوز ، التي كانت الشمس لا تغرب عن ممتلكاتها ، من قِبَل احد رجال الشرطة الكويتيين ، وذهب الى المقيم البريطاني يشكو له سوء المعاملة اكتفى هذا الاخير برفع حاجبيه الاشقرين وأطلق عبارة : «آه انني آسف يا عزيزي لذلك ...» ثم تبرّم وتضجّر ونسي الموضوع كله كأنه لم يكن ولم يحدث ...

بترول « وفرة »

تملك امارة الكويت علاوة على ثروتها البترولية الخاصة نصف ثروة

المنطقة المحايدة السعودية الكويتية ...

في سنة ١٩٢٠ اثر محاولة الغزو السعودي توّلد حذر كبير في نفوس الكويتيين من النزعة التوسعية السعودية . واثناء اجتماع عقير المنعقد سنة ١٩٢٢ كان من المستحيل التوصل الى اتفاق تام حول تخطيط الحدود بين امارة الكويت والمملكة السعودية والعراق على الرغم من ان الفرقاء الثلاثة كانوا في دائرة النفوذ البريطاني .

وكحل لهذه المشكلة المعقدة تركت هناك منطقتان محايدتان في انتظار حلٍ تام لاحق ... والمنطقة التي تهمنا هنا تمتد جنوبي الكويت وتفصلها عن الاحساء السعودية على شاطىء الخليج العربي ...

في ألاصل كانت هاتان المنطقتان جرداوين مقفرتين من السكان والمالكين إلا من بعض البدو الرّحل الذين كانوا يقيمون هناك فترة من الزمان... وفي المدة الاخيرة عندما بدأ عهد البترول توصل العاهل السعودي والامير الكويتي الى اقتسام خيرات هذه المنطقة المحايدة مناصفة .

وحصة الكويت مُنح امتياز استثمارها سنة ١٩٤٨ الى فريق يضم عشر شركات اميركية هي الشركات المستقلة غير المشتركة في الاحتكار البترولي الدولي . وبعد احجام الشركة العربية الاميركية (الارامكو) بهذا الخصوص مُنح امتياز استغلال الحصة السعودية سنة ١٩٤٩ الى شركة « الباسيفيك ديسترن اويل كوربورايشن » التي اصبحت تدعى فيما بعد « جيتي اويل كومباني » . ويعمل الفريقان الاميركيان منفصلين عن بعضهما ولكن تجمعهما وحدة المصالح المشتركة في منطقة واحدة ...

ولدى توقيع الامتياز قبلت الشركات الاميركية المستقلة (امينويل) ان تدفع للكويت ٣٣ سنتاً عن البرميل بينما كانت تدفع الارامكو للمملكة السعودية ٢٢ سنتاً عن البرميل فقط . ثم جاءت « جيتي » التي تحمل اسم اغنى اغنياء اميركا وقدمت ٥٥ سنتاً للبرميل الواحد عدا رسوم النقل وقبول القيام بخدمات جديدة . فصممت الشركات الاخرى على

ان تقضي عليها بسبب هذه المنافسة الجريئة وكثر الكلام عن إفلاس « جيتي » ... ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث بل استمرت الشركة في العمل واضطرت الشركات الاخرى من جراء ذلك ان تتبعها في النهج وكان ان نالت البلدان الاخرى المنتجة للبترول بعد قليل من الوقت نصف الارباح بناء على قاعدة المناصفة الجديدة . هذا وقد عثرت شركة « جيتي » في آذار سنة ١٩٥٣ على بئر غزيرة في وسط المنطقة المحايدة في « وفره » وفي كانون الثاني سنة ١٩٥٤ جرى تصدير اول شحنة من البترول الخام . وفي سنة ١٩٥٨ كان الانتاج قد وصل الى اربعة ملايين طن سنوياً ..

الى الجنوب يمتد الاوتوستراد الواسع الجميل المزفت الذي يربط مدينة الكويت بميناء الاحمدي ويجتاز حقل « البرقان » البترولي . وهنا ، عوضاً عن ان يشتعل الغاز دون هدف في الفضاء ، يشكل صفوفاً افقية من الأضواء طويلة على جانبي الطريق تجعل الليل نهاراً. وتخال هذا المنظر كأنه تنانين هرمة تلهث وتلفظ انفاسها الحارة اللاهبة على طرف الصحراء المديدة القاحلة الشاحبة .. وعندما يخيم الظلام ويرخي الليل سدوله على هذه المنطقة التي لا يدانيها في الثراء مكان ، ترى الانوار تتراقص كأنها الجن حول السيارات الذاهبة الآيبة التي تمر هناك . وما ان تجتاز حقل « البرقان » حتى يختفي الاسفلت فجأة ، وتشعر وكأنك سقطت في حفرة حمراء من الغبار وتتحول الطريق الحائرة الى جحيم لا يطاق يصطدم بالصخور الرملية الناتئة .

وعندما تمر سيارة هناك وتزعج احد الجمال بهديرها ، يحول هذا نظره عنها ويرخي شفته الغليظة كأنه ناسكٌ يتطلع الى العالم الفاني الرخيص بازدراء واحتقار ...

١٠

الاحساء والسّعودية

« من الحماقة ان تكون ملكاً ،
المهم ان تخلق مملكة »
(اندره مالرو)

من البحر الاحمر الى البحر الاخضر

أتدري ما هي الحدود التي تفصل بين دولتين في هذه الصحراء المديدة ؟ أنها برميل قديم طلي باللون الابيض ، وقلب على جانبه فيا بعد. وهو الاشارة الوحيدة للحدود .

الى الجنوب من الكويت تمتد طريق غير معبدة تكسوها الرمال الحمراء ، ويمكن اجتياز المنطقة المحايدة الكويتية السعودية في اقل من اربعين دقيقة . وفي الجهة المقابلة يبدأ عالم آخر ... اننا ندخل اليه كما ندخل الى اي ارض مشاع . وهي فراغ يمتدّ امامك عشرات الكيلومترات . غير ان هذا الفراغ الذي يبدو نسياً منسياً مهملاً تحرسه دوريات دائمة من حرس الحدود الاشداء في المملكة السعودية . وهؤلاء قد استعاضوا منذ مدة طويلة عن الجمال بسيارات الجيب السريعة . ومع ذلك ما تزال الحدود بعيدة عن قواعدهم ...

وعلى ابواب المملكة السعودية تشكل المنطقة المحايدة آخر

منطقة مأهولة مقبولة . والبيوت المتنقلة التي اقامتها شركة « جيتي » تخلق ديكوراً جديداً في الصحراء الباهتة . وكلها مزودة بالهواء الاصطناعي المكيف والبرادات . انهـا ظاهرة هزيلة للحضارة الانسانية تُرى قبل ثلاثماية كيلومتر تفصلها عن « القطيف » و «الظهران» ، مركز الاستثمار البترولي الاميركي في المملكة العربية السعودية والقاعدة الجوية الذرية لسلاح الجو الاميركي .

أُلحقت الأحساء بنجد بعد ان غزاهـا ابن سعود سنة ١٩١٣ وهي اولى ملحقات المملكة العربية السعودية . ويدير شؤونها حـاكم شبه مستقل . وهي صحراء مسطحة متعددة الألوان بين وردي واشقر واحمر واصفر وكستنائي . ويتجمع السكان في طرفها الجنوبي عند قطر والبحرين وفي عرض الخليج هناك توجد الجيوب التي يتكاثر فيها اللؤلؤ الذي كان وراء امجاد البحرين الغابرة . وبحارة الأحساء يتقاسمون مع بحارة البحرين احتكار صيد اللؤلؤ والغوص للتفتيش عنه . وهم لا يقلون عنهم جـرأة ومهارة في مهنة ركوب البحر والصيد . وفي امكانهم كباقي سكان الخليج ان يتباهوا بالانتساب الى جدودهم «السفّارة» البارعين .

كانت الاحساء فيما مضى موطن اولئك القرامطة الغزاة الذين طلعوا بما يشبه الشيوعية قبل ماركس ولينين وتروتسكي . وكانت شيوعيتهم اقرب الى الواقع والعقل . واسم الاحساء منبثق عن مدينة محصنة صغيرة بناها في القرن العاشر الميلادي الرئيس القرمطي ابو طاهر الجنابي كما يقول المؤرخ ولسون . ولكن في هذه المنطقة الشرقية مـن المملكة العربية السعودية يُسيطر اليوم المذهب الوهابي ، وسكان الساحل يتفقون مع أسياد الصحراء في التفكير والاتجاه . والقسم الشمالي من الاحساء بالنسبة لكثيرين من بدو المملكة هو آخر ملجأ لهم في حلهم وترحالهم لهم ولجمالهم وماشيتهم . وفي الاحساء منطقة زراعية ايضاً هي واحة «الهفوف» الكبرى حيث يزرع الفلاحون الخضر والاثمار والارز وبعض الحبوب ويقطفون التمر الجيد من مختلف

الأصناف . ولكن هذا الانتاج على كثرته وتنوعه لا يكفي الحاجة المحلية .

ان هذه الموارد من الناحية الاقتصادية ليست شيئاً يستحق الذكر . وأهمية الأحساء الاقتصادية تكمن في ثروتها البترولية الطائلة ، هذه الثروة التي تجعل المملكة العربية السعودية في المرتبة العالمية الثانية في احتياطي البترول بعد الكويت مباشرة . واذا كان الحجاز على البحر الاحمر يفخر بأنه يحوي المدن المقدسة في التاريخ الاسلامي (مكة المكرمة والمدينة المنورة) ومراكز تجارية حضرية استطاعت ان تحول كثيرين من البدو الى الحياة الحضرية في التجارة والزراعة ، فإن الاحساء المقفرة قديماً أصبحت اليوم خزاناً طبيعياً للبترول لا يقل اهمية عن الكويت . وبفضل نجد والاحساء امتدت المملكة العربية السعودية من البحر الأحمر الى البحر الأخضر. وبفضل سيطرتها على الاماكن الاسلامية المقدسة وعلى مليارات الاطنان من الذهب الاسود تبوأت هذه الدولة مرتبة فريدة خاصة اعطتها اهمية سياسية لا تتيسر لغيرها من الدول في العالم . وهذا الجمع بين نجد والاحساء كان عمل نابوليون الصحراء عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود المعروف بابن سعود .

وليس هنا في هذا الكتاب مجال كتابة سيرة حياته المليئة بالامجاد واذا فعلنا خرجنا عن نطاق بحثنا . ولكننا لا بد ان نتناول هذه السيرة من آنٍ الى آخر في مجال الابحاث التي نهتم بها في هذا الكتاب .

لورانس ضد فيلبي

لم يُثِر ابن سعود امير نجد اهتمام البريطانيين وقلقهم إلا عندما وصل سنة ١٩١٣ الى شواطىء الخليج العربي .

كان قبل ذلك زعيماً بدوياً كغيره من المشايخ والامراء فغزا الاحساء واحتلها دون معركة تذكر بعد تجريده الحامية التركية المأخوذة من سلاحها . ثم استخدم الامير الشاب هذا السلاح المنتزع من أيدي اعدائه في غزواته

الجديدة تاركاً في الاحساء بعض رفاقه الشجعان لتدبير امور المنطقة وتصريف شؤونها . وخلال هذه الفترة كان الى جانب الامير الفاتح «مستشار» بريطاني يقدم له كل شهر هدية صغيرة هي خمسة آلاف جنيه استرليني . ولما نشبت الحرب العالمية الاولى بين الحلفاء والالمان شجعه هذا المستشار البريطاني على سحق اعدائه الشمَّريين بني رشيد في الشمال ، حلفاء الاتراك . ولكن ذلك البريطاني المغامر الكابتن شكسبير قتل في أول اصطدام مسلح لتهوره فتلاشى عمله بموته وذهابه . واما في الطرف الآخر من شبه الجزيرة العربية أي في الحجاز فعلى العكس لقد استطاع العميل البريطاني لورنس ان يبدأ سياسة مساندة وتعاون مع شريف مكة الحسين بن عبد الله الهاشمي الذي أشعل الثورة العربية ضد الباب العالي . . .

في ذلك الحين اخذت بريطانية كل ما يمكن من حيطة وحذر وحكمة لتتأكد من حسن نية امير نجد الذي كانت تدفع له معونة مالية كل شهر . وفي اليوم السادس عشر من كانون الثاني سنة ١٩١٥ ربطته بمعاهدة مماثلة للمعاهدات التي كانت قد عقدتها مع جيرانه سائر امراء الخليج العربي . وبموجب المادة الرابعة من هذه المعاهدة لم يعد في امكان امير نجد ابن سعود ان يمنح او يبيع او يؤجر او يرهن اي قسم من اراضيه الا بموافقة الحكومة البريطانية . وفي سنة ١٩١٧ بينما كانت اوضاع الحلفاء العسكرية وعلى رأسهم بريطانيا تتحسن في الشرق الاوسط اصرت الحكومة البريطانية في كل العهود التي قطعتها (اتفاق سايكس بيكو ، اتفاق حسين — ما كماهون) على الاحتفاظ بحرية التصرف في الخليج العربي . . .

في تلك الاثناء هبط الكويت قبل ان يتوجه الى الاحساء ضابط سياسي بريطاني شاب يدعى هاري سان جون بريدجر فيلبي . ثم سافر الى المملكة العربية السعودية ليلعب اغرب الادوار واخطرها في شبه

الجزيرة العربية . وقد قدّر لهذا الضابط ان يكون المثل الاعلى لكبار رجال الاستخبارات الانجليز الذين استطاعوا ان يقدموا خدمات جلى لبلادهم . وتبدو مغامرة لورنس القصيرة مهزلة تافهة إزاء الدور الفريد الذي كتب لسان جون فيلبي ، غير ان التناقض السياسي اراد ان يجعل من آراء لورنس اساساً ترتكز عليها قواعد السياسية البريطانية في الشرق الاوسط الحديث . لقد استطاع هذا الاخير بعلاقاته الوثيقة بأولي الامر وحماسته واندفاعه القوي ان يقنع رؤساءه بصواب سياسته ، الامر الذي ندم بسببه القادة البريطانيون كثيراً فيما بعد لإخلالهم بوعودهم المضروبة .

وبينما كان كولونيل المكتب العربي في القاهرة يعتمد في الحجاز على الشريف حسين والهاشميين ، كان الضابط السياسي فيلبي مبعوث حكومة الهند يخطّط تاريخ الخليج الذي ليس له قرين ، ويؤكد اهميته القصوى بالنسبة للامبراطورية البريطانية . وقد تمكن فيلبي من ان يصبح صديق الأمير عبد العزيز بن سعود بعد أن نال ثقته واعتنق الدين الاسلامي تحت اسم عبد الله واختار السعودية موطناً له . واصبح اقرب المقرّبين لأسد الصحراء واخلص مستشاريه له .

وهو بالاضافة الى عمله خلال ثمانية وثلاثين عاماً في رسم الخطوط العريضة للسياسة العربية خاصة في منطقة الخليج انصرف ايضاً بفضل الصداقة المتينة التي تربطه بالملك عبد العزيز بن سعود الى اكتشاف مجاهل شبه الجزيرة العربية حتى اصبح من اشهر المكتشفين . وكيف يمكن له ان ينشر نفوذه الخفي اذا لم يرافق الملك مرافقة طويلة في جولاته الصحراوية هنا وهناك ؟

وبعد اقامة دامت ثماني وثلاثين سنة اظهر فيها انه لم يكن اقل حماسة دينية عن اي وهابي صحيح اصبح عبدالله فيلبي شخصاً اسطورياً تتناقل ذكره الالسن في مختلف انحاء المملكة العربية السعودية .

وانتصار ابن سعود على الشريف حسين وابنه علي ملك الحجاز سنة ١٩٢٥ كان ايضاً نصراً لفيلبي وانتصاراً لسياسة بريطانية جعلت مدارها الخليج العربي . وبعد هزيمة الهاشميين أصبح ابن سعود ملك الحجاز فطلب من بريطانيا ان تعترف له بصفته الجديدة أسوة بالدول الأخرى وأصر على المطالبة بالغاء معاهدة سنة ١٩١٥ المهينة التي تضعه في مصاف الامراء الصغار . وفي العشرين من ايار سنة ١٩٢٧ عقدت بريطانيا مع العاهل السعودي « معاهدة جدة » اعترفت بموجبها بكامل السيادة والاستقلال لمملكة نجد والحجاز وملحقاتها . ونظمت المادة السادسة من المعاهدة علاقة الملك العربي بسائر امراء الخليج . وأعطت معاهدة جدة لمملكة نجد والحجاز وملحقاتها صفة دولية وجاء قرار فرنسة برفع قنصليتها في جدة الى مفوضية سنة ١٩٢٩ ، يؤكد تلك الصفة . وبعد ذلك اختفى اسم مملكة نجد والحجاز وملحقاتها ليظهر في المحيط الدولي اسم المملكة العربية السعودية ... واحتفظت بريطانية لمدة طويلة بالمركز الأول هناك . وكانت تمثل الى جانب نفسها العراق والأردن والهاشميين وامارات الخليج العشر وسلطنة مسقط وعُمان وهي تُجاور المملكة العربية السعودية في اكثر جهاتها . وقد بقي الملك السعودي وفياً لصداقته مع الانكليز وصادقاً فيها . غير ان اخطاء السياسة البريطانية ونشاط الاستخبارات الاميركية سعياً وراء الذهب الأسود أفقدا بريطانيا كل ما كان لها من نفوذ في المملكة العربية السعودية . وفي سنة ١٩٥٣ عندما اغمض الملك عبد العزيز بن سعود جفنيه للمرة الأخيرة بعد حياة طويلة حافلة بالاعمال والمعارك والمغامرات وذهب للقاء ربّه قرير العين فخوراً بما بنى ، تاركاً العرش والمملكة امانة في عنق وليّ عهده العاهل الحالي سعود بن عبد العزيز ، محا هذا آخر أثرٍ للنفوذ البريطاني في المملكة بنفيه سان جون فيلبي خارج مملكته .

التنافس الانجليزي ـ الاميركي

لقد كانت المملكةُ العربية السعودية ميداناً مقفلاً تصارع فيه الانجليز والاميركيون من اجل الحصول على امتيازات لاستغلال بترول الاحساء السعودية وأخيراً ربح الاميركيون الجولة الأخيرة بعد صراع دامَ خمساً وعشرين سنة ثم اعتمدوا الأحساء قاعدةً لهم انطلقوا منهـا الى البحث عن ميادين رابحة جديدة . والاحساء السعودية هي المنطقة الوحيدة على الخليج التي بقيت خارج نطاق النفوذ البريطاني اقتصادياً وسياسياً . وفيها تمكن الاميركيون من ربح المعركة وتنمية نفوذهم . وعلى الحدود غير الواضحة في الحقبة الحاضرة بين الاحساء السعودية وإمارات الخليج يجري تمثيل الفصل الأخير من حرب البترول الفاترة .

لقد كان في امكاننا ان نعتقد ان الشركة العربية الاميركية (الأرامكو) ستكتفي بالاحتياطي الضخم الذي اكتشفته لأنها استطاعت ان تحصل على امتياز للتنقيب في منطقة تزيد مساحتها على مساحة فرنسة والمانية الاتحادية مجتمعتين ... ولكن هنا في الصحراء ليس من حدود جنوبية وشرقية تفصل بين منطقة التنقيب الاميركية ومناطق التنقيب البريطانية . لذلك ما ان يلتقي المنقّبون الاميركيون اثناء تقدمهم المستمر وعملهم المتواصل في التنقيب والحفر بزملائهم الانجليز صدفةً او عن قصد حتى تشهد شواطىء الخليج العربي معارك كلامية لا مثيل لها تردّد الامواج صدى الشتائم ، هذا اذا لم يلعلع الرصاص وتشتغل رشاشات (برن) ويبدو ان البريطانيين الذين لم يغفروا لأنفسهم حتى الآن غلطتهم في السماح للاميركيين باقتطاع الاحساء السعودية العائمة فوق بحر من البترول ، قد قرروا أن يحولوا دون توّسع مناطق النفوذ الاميركي مهما كلفهم الامر...

والذين يتصارعون اليوم ما كانوا قد ولدوا عندما بدأ الصراع . ففي سنة ١٩٣٢ تضاعف النشاط في بلاط الملك السعودي . ولولا برودة الانجليز وتمهلهم لما أتيح للاميركيين الذين يتميزون بحركتهم ونشاطهم ان

يربحوا المعركة . ولا ريب ان النفوذ الشخصي لفيلبي الذي استطاع الاميركيون ان يربحوه الى جانبهم كان له الفضل الاكبر في ترجيح كفة الاميركيين على الانجليز . وقد روى فيلبي بنفسه فيما بعد كيف جرت المفاوضات الاميركية السعودية واي دور لعب هو فيها لحساب شركة ستندارد اويل كومباني اوف كاليفورنيا التي اسهمت في انشاء كالتكس ...

ولما كانت أراضي المملكة العربية السعودية واقعة ضمن الاطار الذي رسمه اتفاق الخط الأحمر ، لذلك لم يستطع الموقعون لذلك الاتفاق وهم الشركاء في شركة بترول العراق ان يسعوا وراء اي امتياز آخر بانفراد . ولكن الشركة الاميركية المعروفة باسم ستندارد اوف كاليفورنيا غريبة عن تلك الشركات المتضامنة في شركة بترول العراق ولم توقع اتفاقية الخط الأحمر . وهذا ما أتاح لها ان تقف في وجه منافسيها . وفي ذلك الحين كانت هذه الشركة قد حصلت على امتياز للتنقيب عن البترول في البحرين ونجحت في اكتشاف الزيت . وكان ذلك دافعاً لها على القيام بنشاط زائد من اجل الحصول على امتياز للتنقيب في الاحساء السعودية القريبة من البحرين على الضفة الغربية للخليج .

وبدأت الشركة الاميركية نشاطها بأن جسّت نبض المخبر البريطاني السابق المعروف بصداقته للعاهل السعودي سان جون بريدجر فيلبي الذي تنازل عن جنسيته البريطانية ليُصبح سعودياً وعن دينه المسيحي ليعتنق الاسلام والمذهب الوهّابي على الأخص ؛ فقبل فيلبي ان يقوم بالمفاوضات مع الملك لحساب الشركة الاميركية . وارسلت هذه ممثلاً عنها الى جدّه المهندس كارل تويتشل . غير ان تويتشل هذا عندما وصل الى جده وجد منافساً خطيراً له هو السيد ستيفن همسلي لونغريك مدير شركة بترول العراق ... وبعد عشرة اشهر من الأخذ والرد والمناورات والمكائد والضغط السياسي اتضح ان حظ الشركتين كان متعادلاً في احدى أمسيات شهر ايار ١٩٣٣ .

في تلك الليلة ، على الرغم من التردد الظاهر ، قدّم الملك السعودي لكل من الممثلين المتنافسين رسالة يُشير فيها الى ان الأمتيــاز سيُمنح للشركة التي تتعهد بان تدفع حالاً وفوراً مبلغاً قـــدره مئة الف جنيه استرليني ذهب كسلفة على العــائدات التي ستستحق فيما بعد اذا اكتشف البترول . لقد كان هذا المبلغ ضخماً الى درجة جعلت الشركة البريطانية تتردد بينما أقدمت الشركة الأميركيـة وأعلنت انها وضعت حساباً باسم الملك السعودي في احد المصارف مقداره خمسون الف جنيه استرليني ذهب أي نصف المبلغ الذي طلبه الملك . ونجحت المساومة على هذا الشكل وربحت ستندارد اوف كاليفورنيا . وفي ٢٩ ايار ١٩٣٣ وقّع الملــك عبد العزيز بن سعود على امتياز التنقيب عن البترول للشركة الاميركية ... ولا يستطيـع فيلبي ان يتجاهل بان الجيولوجيين الانجليز كانوا متشائمين بشأن وجود البترول في الاحساء . وشركة بترول العراق قد قدمت الى العاهل السعودي كرماً منها مبلغاً قدره عشرة آلاف جنيه استرليني ذهباً عوضاً عن المئة التي وضعها الملك شرطاً للامتياز . لقد كانت الشركات المساهمة في شركة بترول العراق تضغط على يد مديرها لونغريك بينما كانت ستندارد اوف كاليفورنيا يحدوها أمل كبير بعد نجاحها في البحرين . ولذلك كانت مجلية في الدفع والسخاء. وعندما أشار الانجليزي الاميركي المستعرب عبدالله فيلبي على العاهل السعودي ان يطلب مبلغـاً ضخماً كان يرمـي بذلك الى خدمة وطنه السعودي الجديد من جهة وخدمة موكليه الاميركين من جهة ثانيــة . وقد كان ذلك لعبةً طريفة ممتعة تمخّضت عنها شركـة كاليفورنيا أرابيان ستندارد اويل كومبـــاني - كازوك - مع شركة تكساس اويل كومباني وكوّنا باتحادهما شركة كالتكس . وبعد بضع سنوات تحوّلت شركة « الكازوك » الى شركة الزيوت العربيـــة (الأرامكو) وأصبحت واحدة من كبريات المؤسسات الصناعية البترولية في العالم اجمع . وقد بيعت سنة ١٩٤٧ ٤٠ ٪ من اسهمها بمبلغ قدره خمسماية مليون دولار

منها ٣٠ ٪ الى شركة ستندارد اوف نيوجرسي و ١٠ ٪ الى شركة سوكوني . وفي سنة ١٩٥٧ اصبحت هذه الأسهم ذاتهـــا تساوي مليارين وخمسماية مليون دولار ، اي ان قيمتها التجارية زادت خمسة اضعاف وتُقدّر قيمة الثروة البترولية السعودية في حدّها الأدنى بألفين وخمسماية مليار فرنك .

مستقبل النهضة السعودية

لم يكن يعرف المهندسون المنقبون الشبـاب الذين نزلوا في الاحساء سنة ١٩٣٣ ان في جوف الارض السعودية هذه الثروة الطائلة . لقد بدأوا ابحاثهم وتحرياتهم حول الظهران العاصمة الحالية للمنطقة البترولية الاميركية ووجدوا هناك بريقاً من الأمل . وبعد استقصاء دام خمس سنوات حُفرت خلالها ست آبار دون فائدة يئست الشركة واوشكت ان تتراجع عمـــا ربطت نفسها به . فاذا بالبئر السابعة تبشر خيراً فتراقص مندوبو الشركة فرحاً على الرمال التي بللها البترول المتفجر من البئر . لقد كانت الثروة فعلاً هناك . وكان ذلك في آذار سنة ١٩٣٨ ...

وفي ايلول من السنة نفسها جرت تعبئة اول شحنة من الزيت السعودي الخام وحملتها ناقلة بترول الى مصفاة البحرين للتكرير ..

وفي سنة ١٩٥٨ تخطى الانتاج معدل المليون برميل يومياً ووصـــل الانتاج السعودي السنوي الى واحد وخمسين مليون طن . لقد كان معدل الانتاج اليومي في البدء ولعدة سنوات في حدود عشرة آلاف برميل فاذا به يرتفع ارتفاعاً هائلاً بعد الحرب العالمية الثانية . وقـد زادت الارباح واستخدم قسم منها لتوسيع نطاق التنقيب مما أدى الى اكتشاف آبار جديدة غزيرة لم يكن يحلم بها اي منقب . وفي الوقت الحاضر تستثمر الأرامكو بئر غوّار اوسع بئر في العالم مـــع بعض الآبار الاخرى التي تقل عنه اتساعاً ، وأول بئر تحت الماء في قعر الخليج العربي هي بـئر « صفانية » التي اكتشفت ١٩٥١ . واما البئر الثانية تحت مياه الخليـج

فهي بئر « منيفة » التي اكتشفت منذ عامين ...

ويحتل الميناء البترولي في المياه العميقة عند رأس تنورة مركزاً جيداً على الخليج عند طرف شبه جزيرة صغيرة حيث تقوم مصفاة للبترول تستطيع ان تكرر اكثر من عشرة ملايين طن سنوياً . ومصفاة رأس تنورة تنتج في الدرجة الاولى بنزين الطائرات لتزويد قاعدة الظهران الجوية الاميركية بما يلزمها من وقود لتسيير طائراتها . واما الزيت الخام فيذهب قسم منه في خط انابيب تحت الماء طوله خمسة وثلاثون كيلومتراً الى مصفاة البحرين التابعة لشركة كالتكس . والقسم الآخر وهو الأهم يسيل في انابيب ضخمة تابعة لشركة التابلاين الى صيدا في لبنان على شاطىء البحر الابيض المتوسط الشرقي . وهذه الانابيب التي تمر عبر الاردن وسوريا ولبنان هي التي مكنت المنتجين الاميركيين من زيادة الانتاج السعودي..

وكانت انابيب التابلاين التي يبلغ طولها الفاً وثمانماية كيلومتر وقطرها ٣٠/٣٢ بوصة عند الانتهاء من مدها سنة ١٩٥١ اضخم انابيب لنقل الزيت الخام في العالم ... وما زالت حتى الآن اطول خط انابيب في الشرق الاوسط . وقدرة استيعابها تقل قليلاً عن الخطوط الخمسة التي تملكها شركة البترول العراقية مجتمعة . وذلك بفضل محطات الضخ الاضافية التى تعمل آلياً . وفي امكان هذه الانابيب ان تنقل عشرين مليون طن سنوياً وليس هناك ما يمنع ان ترتفع الكمية الى اثنين وعشرين مليون ونصف المليون من الاطنان . وتنتهي هذه الانابيب كما اسلفنا عند مدينة صيدا على الشاطىء اللبناني وتوفر على الشركة الاميركية عشرات الملايين من الدولارات سنوياً . ويقدر الشيخ عبد الله الطريقي مدير مصلحة البترول في المملكة العربية السعودية الربح الصافي الاضافي الذي يتحقق بفضل هذه الانابيب بثمانية وعشرين سنتاً بالبرميل الواحد .. اي ما يعادل اربعين مليون دولار . لذلك يثور على الشركة التي تصر على

الاحتفاظ لنفسها بكل هذه الأرباح الاضافية غير المنتظرة مطالباً بحصة بلاده من هذا الوفر الذي تحققه انابيب التابلاين عبر الصحراء العربية .

وليس للشيخ الطريقي وغيره من كبار الموظفين السعوديين من مآخذ على الشركة الاميركية سوى ذلك .. والمدير السعودي ذو ثقافة بترولية عالية حصل عليها في تكساس بالولايات المتحدة الاميركيـــة حيث بقي عشر سنوات وهو اكثر مواطنيه اطلاعاً على هذه الشؤون الفنية وخاصة شؤون استغلال البترول وما يرافقه من ظروف وعقبات ومشكلات . وعندما يقارن الشيخ الطريقي بين ظروف استثمار البترول في المملكـة السعودية ومشكلاته وبين مشكلاته في فنزويلا مثلاً يخرج من هذه المقارنة باستنتاجات قاسية جارحة ..

وفي كثير من المناسبات اعلن صراحة عن قراره بوجوب جعل شركة الارامكو شركة سعودية مع مجلس ادارة كامل يقرر هو ما يجب عمله في الاراضي السعودية ولا يتلقى اوامره من الخارج تماماً كشركة « الجريول » المنبثقة عن ستندارد نيو جرسي والتي تعمل بحرية كاملة في حقول فنزويلا البترولية .

وتجدر الاشارة الى ان هذه المطالبة قد ادت الى زيادة حصة المملكة السعودية مبلغاً محترماً من ملايين الدولارات وذلك نتيجة اهتمامها بأمور لم تفكر فيها من قبل .

ويرمي ايضاً مدير الشؤون البترولية في المملكة العربية السعودية الى هدف آخر هو خلق صناعة بترولية كيماوية على غرار فنزويلا . لقد فهم الشيخ الحكيم سريعاً ان شركة الارامكو والولايات المتحدة معها لـــن يتورعا عن ترك المملكة السعودية وحدها تواجه مصيرها المحتوم كما يترك المرء آلة مكسورة اصبح استعمالها ضرباً من المستحيل عندما يستغنيان عن بترولها . وهذا الخوف المزعج المقلق هو من احتيــاطات المستقبل وليس من شؤون اليوم . ولكن حياة الشعوب والدول لا تقاس بالسنوات

كما يقاس عمر الانسان ويجب ان يحسب فيها حساب المستقبل البعيد . وبعد انتهاء عهد البترول وقد تعرف المملكة السعودية اياماً حالكة السواد ليس لها مثيل من قبل . لأن الحاجات التي وُلدت مع البترول لن تجد بعده ما يسدّها . وكل اولئك الذين تمكنهم وسائلهم سيرتحلون للتفتيش عن مكان أفضل للعيش خارج البلاد السعودية .

لذلك يسعى الشيخ عبد الله الطريقي منذ الآن بشتى الوسائل الممكنة الفنية لخلق ثروات جديدة ثابتة وسمّر عيونه عن عقل بأفضل ثروة واغزرها ألا وهي ثروة البترول والغاز التي تتيح للسعودية مورداً ثابتاً وغزيراً .

١١

جشع لا يحدّ

« في الماضي كان الناس يحبون الذهب لأنه طريق القوة ، وعن طريق القوة يمكن تحقيق الكثير من الاعمال الكبرى ... اما اليوم فانهم يحبون القوة لأنها تعطي الذهب ، وبه يمكنهم تحقيق كثير من الاعمال الصغرى ... »

(هنري دي مونترلان)

الشركات والحكومات

اثناء الحرب العالمية الثانيـــة كانت الشركة الاميركية قد قررت ان تتخلص من بقايا النفوذ البريطاني . وبعـد جهود مضنية متواصلة ودأب ملحوظ استطاعت ان تميل الى جانبها وتربح في تلـــك المعركة الخطيرة المستر كنوكس ناظر البحرية الاميركيـة والمستر ايكز ناظر الداخليـــة ورئيس ادارة الاحتياطي البترولي وقسمـاً من موظفي الادارة البترولية ونظارة الداخلية . وبعد ثلاث سنوات من النشاط الخفي السري والضغط والمناورات والمداورات توصلت الشركة ذات العلاقـــة الى ما تصبو اليه وتتمناه . ففي اليوم الثامن عشر من شهر شباط سنة ١٩٤٣ اي بينما كانت الحرب في ذروتها وقع الرئيس روزفلت قراراً جعـل من المملكة العربية

السعودية من البلاد التي تستفيد من قانون القروض ؛ الأمر الذي لم يكن له ما يبرره من الوجهة القانونية الدولية ، لأن ذلك المشروع كان قد وضع لمساعدة البلدان التي اعلنت الحرب على المحور ودخلت الصراع ضده ، الأمر الذي لم تفعله حتى ذلك الحين المملكة العربية السعودية . غير ان شركة الأرامكو التي كانت تريد أن تقوي مركزها في بلاط الملك السعودي لتقضي على النفوذ البريطاني حوله لم تكن لتأخذ تلك الاعتبارات القانونية على محمل الجد .

ولاستدراج الحكومة الاميركية واستغلال نفوذها عرضت شركة الأرامكو عليها ان تشتري منها الامتياز كما فعلت حكومة صاحب الجلالة البريطانية خلال الحرب العالمية الاولى بالبترول الايراني . ومالت واشنطن الى ذلك واوشكت ان تفعله ولكن الشركة لما حققت غرضها المنشود أغفلت الأمر وصرفت النظر عن قضية البيع وابقت الامتياز في حوزتها ورفضت ان تدخل هذا البحث مطلقاً ... لقد كان هدفها ان تلزم الحكومة الاميركية بدفع الثمن اللازم للحصول على رضى الملك السعودي ليس الا . وليست هذه الحادثة فريدة من نوعها في حقل العلاقات بين الشركات الكبرى والسياسة الخارجية الاميركية ولكنها فيما يختص بالمملكة العربيـــة السعودية قد وصلت الى حد الفضيحة ...

ففي سنة ١٩٥٧ استقبل الرئيس الاميركي ايزنهاور الملك السعودي سعود كما لم يُستقبل اي رئيس او ملك من قبل ومنح السعودية قرضاً قيمته مايتان وخمسون مليون دولار يضاف اليه هدية شخصيـــة بلغت خمسة وعشرين مليون دولار ...

ولإيضاح موقف الحكومة الاميركية صرح المستر بنجامين شوادران قائلاً : « ان الحكومة الاميركية من جانبها متمثـــلة بناظري الداخلية والبحرية الوزيرين كنوكس وأيكز اعتبرت عندما دفعت ما دفعته للمملكة السعودية انها تقدم خدمـــة كبرى للشعب الاميركي لحماية مصالح الاميركيين

في منطقة هامة كانت خاضعة للنفوذ البريطاني ... »

ان الذي يدعو الى الاستغراب والدهشة ان كثيراً من هذه الدسائس والمكايد كلها قد حدثت في احرج مرحلة من تاريخ بريطانيا عندما كانت هذه تتعرض الى اعنف هجوم جوّي من قبل النازيين ...

ويبدو ان شركة الأرامكو ترسمت خطى الشركة الاميركية المعروفة باسم « الجنرال موتورز » التي جعلت سياستها قاعدة تقول : « كل ما هو صالح للشركة يجب ان يكون صالحاً للولايات المتحدة الاميركية » ...

لقد كان من بين الامور المقررة في المراجع العسكرية الأميركية ، ان تصبح الظهران ، العاصمة السعودية لشركة البترول الاميركية ، الى جانب صفتها هذه واحدةً من اهم القواعد الجوية العسكرية الاميركية ... واثناء الحرب العالمية الثانية كانت القوات الاميركية قد باشرت في بناء مطار حربي كبير في المدينة . ولكن العمل فيه توقف بعد ان انتهت الحرب ووضعت اوزارها بانتصار الولايات المتحدة وحلفائها على المحور . وفي الحال بدأت شركة الأرامكو تقوم بنشاط سري وتضغط ضغطاً لا مثيل له على المسؤولين في العاصمة الاميركية لتدفع الكونغرس الاميركي الى التصويت واقرار اعتمادات مالية جديدة لاستئناف العمل في مطار الظهران وإكماله . ونجحت الشركة الكبرى في مسعاها هذا واستؤنف العمل من جديد في القاعدة الجوية . وفي سنة ١٩٤٦ دشّن اكبر مطار حديث في منطقة الخليج العربي ..

وعلى اثر ذلك بدأت الحكومة الاميركية سلسلةً من المفاوضات الخفية مع حكومة الرياض لإقامة قاعدة جوية حربية اميركية في الظهران مقابل مبلغ محترم من المال وتزويد المملكة العربية السعودية بعددٍ من الطائرات والطيارين . وكان ان استقبلت الظهران جهازاً فنياً حديثاً كامل العدد والعدة قادر على استقبال اضخم الطائرات الحديثة المزودة بالقنابل الذرية التابعة لسلاح الجو الاميركي . وبذلك اصبحت في الظهران قاعدة جوية اميركية ، في مكان متوسط بين قاعدة كراتشي في

الباكستان او قناة السويس والبترول السوفياتي في القوقاز .

وفي اليوم الثامن عشر من شهر حزيران سنة ١٩٥١ جُددت الاتفاقية حول قاعدة الظهران بين الحكومتين الاميركية والسعودية ووعدت الولايات المتحدة بموجبها ان تزود المملكة السعودية بطائرات حديثة وباعداد طيارين سعوديين في الولايات المتحدة .

وفي سنة ١٩٥٧ جُدد ايضاً عقد الايجار مرة ثانية لمدة خمس سنوات بواسطة الملك سعود . وعندما تولى الامير فيصل ولي العهد وشقيق الملك ورئيس الحكومة ووزير الخارجية كامل السلطات في شهر آذار ١٩٥٨ أعلن صراحة ان عقد ايجار مطار الظهران لن يجدد بعد الآن للولايات المتحدة الاميركية ...

وخلال ذلك كانت الشركة العربية الاميركية للبترول ، بناءً على إلحاح الحكومة السعودية قد نقلت مركزها الرئيسي من نيويورك الى الظهران ، فبرزت الابنية الحديثة المبرّدة والمسابح والحمامات . ولكن جميع هذه المحاولات شبه اليائسة لتلطيف الجو لم تحل دون وصول العواصف الرملية الصحراوية الى جدران المنازل التي بنتها الشركة الاميركية ومرائب الطائرات التي شيدها سلاح الجو الأميركي .

والأميركيون الذين فُرض عليهم الوجود في هذه المنطقة الجافة العابسة يعيشون على حافة الانفجار في انتظار ذلك اليوم الذي يعودون فيه الى ديارهم بعد انتهاء مدة خدمتهم العسكرية التي كلفتهم اجمل سني حياتهم . ومما يزيد في تعقيد الأمور هناك خلو المنطقة من اسباب اللهو والمرح اللذين نشأ عليها المواطن الاميركي في بلاده منذ نعومة أظفاره . والموظف الاميركي في الأحساء السعودية عسكرياً كان ام مدنياً يعيش ايامه ولياليه حالماً بالعطلة التي سيقضيها في بيروت حيث تتيسر كل سبل اللهو والتسلية . او في البحرين القريبة حيث الجو اكثر انفتاحاً وانطلاقاً نسبياً من الأحساء السعودية .

وأما الطيارون الذين يستطيعون في طائراتهم نقل القنابل النووية فبالنسبة اليهم كانت الطريقة الوحيدة للحفاظ على معنوياتهم ان يعمد سلاح الطيران الى استبدالهم باستمرار واعطائهم الكثير من الفرص يقضونها خارج المملكة السعودية بحيث لا يبقى الواحد منهم اكثر من شهر في القاعدة الاميركية.

امكانات مذهلة

على الرغم من كل ما في الحياة من صعوبة مبعثها الطبيعة القاسية في تلك الصحراء الجافـة ، والقانون الصارم في تلك المملكة العربية ، فان الشركة العربية الاميركية للبترول مع جهاز القاعدة الجوية الاميركية تتشبث بالبقاء في الأحساء السعودية تشبثاً كاملاً بكل ما لديها من قوى ووسائل . وكيف لا تتشبث وتتمسك ويتملكها الجشع ؟ ! وفي هـذه العملية ثروة تتجاوز المليارات من الدولارات ؟ انها الثروة البترولية في الاحساء التي ترغم الاميركيين المرفهين على الصبر خوفاً من تلك الساعة الرهيبة التي ينضب فيها ويجف بترول بلادهم الاميركية . لقـد قُدِّر الاحتياطي البترولي في الاحساء سنة ١٩٥٧ بخمسة او ستة مليارات طن من البترول ، الأمر الذي يجعل الأحساء في المرتبة الثانية في العالم بعد امارة الكويت مباشرة . وعلى معدل الانتاج الحالي يكفي هـذا الاحتياطي المخزون في باطن الأرض مدة قدرها مئة واثنا عشرة سنة مقابل احدى عشرة سنة بالنسبة للاحتياطي الاميركي . وهـذا الوضع الشاذ الدقيق بالنسبة للولايات المتحدة هو الذي دفع وزارة الخارجية الاميركية الى القول غداة المفاوضات التي اجراها الرئيس الاميركي ايزنهاور مع العاهل السعودي : « ان المملكة العربيـة السعودية بفضل مركزها الروحي والجغرافي والاقتصادي ذات اهمية حيوية قصوى في الشرق الاوسط .. » ويقدر معدّل الانتاج اليومي في آبار البترول السعودية بما يساوي ثلاثماية ضعف الانتاج في الآبار الاميركية .

اختلال قابل للاحتلال

اذا اردنا ان نحكم ونبني آراءنا على السخط الشعبي العام النادر الذي جنته شركة الارامكو في السنوات العشر الاخيرة ، فاننا نستطيع القول ان سياسة التقرب والتملق التي اتبعتها قد فشلت فشلاً تاماً ولم تؤدِ الى الغرض المنشود .

لقد اصبحت من مخيماتها ومؤسساتها التي اقامتها في أواسط الصحراء المسؤولة الاولى عن كل الاخطاء في المملكة ولم تعد مياه الخليج كلها على الرغم من صفائها كافية لغسل هذه الاخطاء الفادحة ... ومهما يكن من أمر فان البترول في الاحساء كما هي الحال في الكويت وباقي أمارات الخليج العربي قد أتاح خلق مستوى معيشي رفيع لم يكن الشرق العربي ليعرفه لولا هذه الثروة البترولية المكتشفة . ويجب الاعتقاد ان الانسان مهما يكن بائساً وفقيراً فانه لا يكتفي ابداً بالخبز وحده . وما ان يحقق رغباته الاولية من طعام ومسكن وكساء حتى ينصرف الى التفكير والتأمل في أحوال المجتمع ، ويصبح عندئذ مفكراً سياسياً واجتماعياً . وما ان يهدأ فيه غول الجوع حتى يشعر بتعطشه الى العدالة والكرامة ويعرض نفسه من أجل ذلك لاشد المخاطر والمغامرات اذا ما حاول التبشير بسياسة تطورية جديدة . والمغص الذي كان يزعج معدته انتقل الى عقله . وهو هنا لا يقل ايلاماً عن هناك ..

ان ما يخيف في الانقلاب الاقتصادي الاجتماعي الذي يحدثه البترول في البلاد البدائية انما هو سرعته الساحقة القصوى التي كثيراً ما ينتج عنها الاختلال وفقدان التوازن في شتى الميادين . ومن العسير جداً بل قد يكون من المستحيل تلافي ذلك وتجنبه ..

فهل من الممكن بعد اليوم الملاءمة بين الحاجات الحديثة التي اصبح لا بد منها والامكانات الحقيقية القديمة ، بين القدرة المحدودة والجهد

المتواصل المطلوب ، بين العقلية القبليـــة المتعصبة والنزعة الفردية الجديدة الجامحة التي تولدت عند الطبقـة العربية العاملة في المؤسسات البترولية ، بـين ثروة ضخمـة لا تنفك تتضخـــم وتنمو لدى افـراد قلائـل معدودين وفقر مدقع ينشر لواءه على السواد الاعظم من الشعب.

لقد بدأت في الأحساء السعودية تـــبرز معارضة لهـا وجهان اولهما بورجوازي قومي وطني حاقـد ناقم على الاحـــوال السائدة والاستغلال الاجنبي معاً . وآخر عمالي أثارت حميته وحماسته الدعوة القومية العربية للوحدة والتحرر من آثار الاستعمار كما هي الحال تماماً في امارات الخليج الأخرى ... والذي يهم شركة الأرامكو اليوم ان تستثمر اكبر كمية من البترول العربي قبل حدوث اي طارىء ... وعلى كل حال فان الشركة المذكورة قد أطفأت عشرين ضعفاً اكلاف التجهيزات التي اقامتها ، بالاضافة الى مصروفات مصطنعة كثيرة مقيدة في الحساب ولم تكن تخطر على بال ...

١٢

لؤلؤة في بحر الزمرد

تبدو البحرين من الساحل السعودي بقعة داكنة غير اعتيادية في بحر افقي هادىء . والفضاء الذي يكتسي عند الظهر حلة صفراء لدى اشتداد الحرارة والنور يلقي عليها احياناً سرابات غرّارة . ومما يستحق الحمد والشكر ، ان ذلك ليس سراباً .

واذا ما اطل مسافر على جزر البحرين التى تقوم هناك وسط الخليج لوّحت له بسعف النخيل الداكن كأنها صديق ينادي صديقه . وبذلك ينسى الذي اضناه قحط الصحراء وانعدام اللون الأخضر فيها آلامه التي قاساها وعاناها أملا في ان تظلله اغصان شجرة خضراء وارفة .. وبين المياه المالحة والرمال الصحراوية الشاسعة المنهكة أوجدت العناية الالـهية البحرين واحة مباركة باخضرارها وصفاء مائها ..

لدى الوصول يشعر المرء بسحر لا يقاوم . وقبل ان يخرج من الطائرة يفهم المسافر تواً لماذا اسمى العرب جزر البحرين « لؤلؤة بحر الزمرد » اذ على مئات الكيلومترات من ساحل مجدب لا يعرف العطاء ، ليس هناك سوى هذه الجزر التي لا تتجاوز مساحتها ستماية كيلومتر مربع مكان يحوى ينابيع مياه عذبة تمنح الحياة ؛ وتحبب الاقامة ..

ومن سخرية القدر التي لا يماثلها شيء ان ينابيع المياه العذبة تتفجر

ايضاً في قعر البحر تحت المياه المالحة . وصيـادو اللؤلؤ الذين يغوصون للبحث عن الثروة يعبون طويلاً من تلك المياه العذبة في القعر .

يتألف الأرخبيل من ست وعشرين جزيرة بينها ست كبار. وتحتكر المياه ثلاث منهـا هي البحرين الأم والمحرق وسترة حيث تتوفر امكانية الحيـاة والعيش . والبحرين الأم هي الجزيرة الكبرى وجارتاها اللتان تصغرانها المحرق وسترة ترتبطان ببرزخ ارضي مشدود كأنه الحبل . وتكسب الركائز المرجانية على اعماق متفاوتـة حول هذه المجموعة من الجزر مياهَ الخليج الزمردية الخضراء لمعانـاً وتماوجاً لا نهاية له من الألوان البديعة تجعل المرء في نشوةٍ ليس بعدها نشوة تدفعه الى اغتراف حفنة منها ودسها في جيبه الواسع ؛ كما يكسب ايضاً اختلاف مستوى المدّ والجزر خلال ساعات النهار المتتابعة ، هذه اللوحة الفتانة روعة فوق روعة ...

وفي المساء اذا كان الطقس جميلاً ترى السماء قد اكتسبت لوناً بنفسجياً غريباً في المنامة العاصمة البيضاء . والشمس الحمراء تغطس وراء رصيفٍ يسند البحر ويكسو بلون النار ثلاثة آلاف مركب ساكن فوق صفحة المياه . وفي كل جهة ترى صفوفاً متعددة من المراكب المختلفـة الاحجام ترفع اعلاماً قرمزية او خضراء لوزية كتب عليها باللون الأبيض « لا إله الا الله » لتؤكد ايمان اصحابها بينما المؤذنون يدعونهم الى الصلاة من على المآذن الرخامية المزخرفة ...

آنذاك نرى البحارة المغـامرين ينصرفون الى طهي طعامهـم وغسل ارجلهم ثم يشربون الشاي ويفركون انوفهـم المعقوفة كمنقار الصقر .. وبعد ذلك تبتعد الفلك مستجيبة لنداء البحر والجذّافين او تصل المراكب الشراعية سائرة الهوينا وقد جمعت اشرعتها كأنها لا تريد ان تعود . وعندما يلقي البحارة المرساة يرمونها بلباقـة زائدة لا ضرورة لها كأنهم يخشون تمزيق صفحة المياه الهادئة .

ومن على الرصيف دوماً تجد حركة ذهاب واياب صامتة لبحّارة سمر

تفتر ثغورهم عن ابتسامة الصياد الذي عاد من صيده حديثاً . وهم يتنقلون بين اكداس البضائع المختلفة بقمصان متدلية دون ان يتوصّلوا الى نقل الأكداس الضخمة من الأسماك التي تبعث رائحة قوية . وبين صناديق الشاي وأكياس العدس والأرز والكوكا كولا والأكياس الغريبة المغطاة تتكدّس مئات البالات من السردين المالح المكبوس الذي تفوح منه رائحة قوية نفاذة .

وهذه الحركة المنظمة الدائمة في المنامة هذا المرفأ الحرّ قد جعلت من البحرين اعظم مركز للتبادل التجاري في منطقة الخليج العربي .. ومن طرف الرصيف تتأمل المنامة البيضاء حالمةً عند هذا البحر الزاخر الوردي . وفي الجهة المقابلة ترى المحرق نسخة طبق الاصل عنها لا تقلُّ عنها بياضاً وهدوءاً ...

واذا تجوّلت وطفت في ازقتها الضيّقة التي لا نهاية لها رأيت صبية شديدي السمرة يلهون ويلعبون بهدوء وهم يتطلّعون بعيونهم السوداء الواسعة الى ما يشاهدونه .

وأخيراً يُرخي الليل سدوله بهدوء دون جلبة فيتجمّع المؤمنون في المساجد لتأدية الصلاة بينما يستمر المؤذن في اذانه يحث المتقاعسين منهم عن اداء الواجب فيردّد صدى اذانه : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ..

ومع سكون الليل ولون السماء البنفسجي ترى هناك على صفحة المياه الوردية مراكب وزوارق نائمة كأنها ظلالٌ للوحةٍ فنيةٍ صينية .

الغوص الكبير

عندما يحين موسم صيد اللؤلؤ ويبدأ الغوص الكبير ينزل الأمير الحاكم بنفسه في الصباح الى الشاطىء ليفتتح الموسم باحتفال رسمي . وهذا اليوم يعتبر عيداً وطنياً للبلاد بأسرها يشترك فيه الشعب يغمره السرور

والفرحة . وفيـــه يلفت الانظار الاطفال في ابهى مظاهرهم وحللهـــم والصيادون الشيوخ والعميان الذين افقدتهم السنون نشاطهم وأبصارهم . واذا حدثتهم وجدتهم يتلهفون شوقاً وحنيناً الى الماضي يوم كانوا يجوبون البحار ويشقون صفحة اليم بشجاعة وجرأة نادرتين ..

في ذلك اليوم يتجمع في مكان الاحتفال اكثر من خمسين مركب ترفع أشرعتها وتنطلق مندفعة نحو الأفـق الصافي مخلفة وراءها صدى الأغاني المحبوبة المحزنة التي يغنيها البحارة بأصواتهم المبحوحة وكلها تدور حول الحظ والنصيب .

واذا كان هذا الاحتفال في الآونـة الحاضرة قد فقد كثيراً من قيمته التي كانت له في الامس ، عندما كان ينطلق اكثر من سمائة مراكب من شواطىء البحرين في الفترة الاخيرة من شهر أيار كل عام ؛ فانه ما زال يحتفظ بروعته وجماله وطقوسه التقليدية الموروثة . يبحر الرجال في موسم الغوص بالعشرات ويبقون على سطح البحر اربعـة اشهر كاملة يحيون فيها حياة بحرية بحتة يتزودون خلالها بالمؤونة والعتـاد بواسطة مراكب شراعية صغـــيرة ؛ ويعيشون طيلة هذه المدة في رحاب الامل الذي يخفق في قلوبهم مئات المرات كل يوم وهو في نظرهم يساوي اعظم الثروات . وكثيراً ما يعودون فقراء كما جاؤوا دون ان يربحوا شيئاً سوى خفقات قلوبهم السريعة . ويوماً بعد يوم يغطسون ليعودوا وفي سلالهم الصغيرة بعض المحار المسطح يفتحونه في المســاء او في الغد بهوس لا يحتمل . ولهم نصيب واحد على اربعة آلاف ان يجدوا فيها ثمرة جهدهم المضني : اللؤلؤة المنشودة . وفي اغلب الاحيان تكون صغيرة غير مكتملة النضج على الأرجح . ومهما يكن من امر وأياً كان حجمها واياً كان لونها وردياً او ازرق فانهم يعودون بهـــا مسرورين فائزين .

منذ فجر التـاريخ وصيد اللؤلؤ هو الصناعة الاساسية في البحرين .

وقد أكسبتها تلك الصناعة صيتاً ذائعاً . ونجد إشارة الى ذلك عند المؤرخ «بلين» الذي عاش في القرن الاول الميلادي وعند الكثيرين ممن جاؤوا بعده . كما نجد في مخطوطة أشورية تعود الى اربعين قرناً خلت إشارة الى لآلىء البحرين . وعهد البترول لم يستطع حتى الآن ان يقضي قضاء كلياً على صناعة اللؤلؤ التي ضعفت كثيراً . وهي ما زالت تشجع على الاستمرار في بناء المراكب التقليدية الدقيقة الأنيقة التي اصبح وجودها في النصف الثاني من القرن العشرين امراً مستغرباً لا قرين له ..

وفي الورشة البحرية في المحرق نرى النجارين بدشداشاتهم البيضاء المتدلية حتى الارض ينجرون الخشب اللماع بحركات تشبه حركات العشاق مستخدمين آلات تقليدية كأنها القيثارة القديمة . ويحوّلون بمهارة هذا الخشب الى «سمبوك» يُستخدم لصيد اللؤلؤ او «بقالا» لصيد السمك او «جليبوط» ممدود او «بوم» للسباق في المسافات الطويلة . وهناك ايضاً نوع صغير من الزوارق يُسمى «الهوري» .

وفي الاماكن التي يكثر فيها اللؤلؤ يقتصر الغطس على اصحاب الامتيازات واما فرصة الحظ فمتساوية عند الجميع . واستخدام الكمامات وآلات الغطس الحديثة ما زال امراً ممنوعاً بناء على قرارات اتخذها الأمير الحاكم . فقد تبين للسلطة بسرعة انه لو سمح باستخدام ذلك لانقطعت سبل العيش عن اكثرية العاملين في صيد اللؤلؤ لأن بضعة اشخاص من كبار المالكين او الاقطاعيين وحدهم يستطيعون شراء مثل هذه الآلات الحديثة . وبالتالي يحتكرون صيد اللؤلؤ وينظفون الخليج منه وهكذا اليوم كما كان الأمر قبل اربعة آلاف سنة ينزل الغطاس عارياً الى القعر متمسكاً بحبلٍ يشده الى القعر حجر كبير مربوط فيه او سبيكة من الحديد ؛ ويسدُّ انفه بملقط بدائي بينما يعلق سلته برقبته ويحمل بيده إزميلاً وفي قلبه أملاً .

وانتهاء موسم الغوص الكبير كافتتاحه امران يقررهما الأمير الحاكم . وبعد وقبل موسم الغوص الكبير يسمح الأمير بالغوص او غوص البرد . ولكن روّاد هذا الموسم قلائل .

ان هذه الصناعة نوعٌ من المغامرة ان لم نقل مغـــامرة . وكثيراً من الاحيان تهاجم الاسماك الكبيرة الغطاسين فتقضي على عدد منهم . واحياناً اخرى تفاجئهم العواصف فتغـرق من تغرق ولا ينجو منهم الا طويـل العمر ..

وتساعد الاساطير الجميلة المتوارثة والثروة المنتظرة والهالة المقدسة التي تحيط باللؤلؤة ، على تحمل هذه المهنة القاسية القديمة في البحرين قـدم السنين . ويعزو عرب الخليج سبب الجمال والغنى في لآلىء البحرين الى ينابيـع المياه العذبة المتفجرة في قعر المياه بالقرب من حواجز المحار التي تحوي اللؤلؤ شمالي الجزيرة الكبرى . وتفسيرهم لتكوين اللؤلؤة يطابق ذلـك . فلنسمع ما يقولون :

عندما ترغب محارة أم ان تحمـــل لؤلؤة تقدم نفسها لمداعبـات المياه العذبة الفاسقة الداعرة وتمتصُّ منها نقطة صافية . وهذه النقطـــة يرعاها الحب ويغذيها حتى تُصبح مع الوقت الحلية الكاملة التي ننتزعها بقساوة من بطن امها المثخنة بالجراح . وهنـاك روايات اخرى بالطبع عن قصة تكوير اللؤلؤة . ولكنها جميعاً تقلّ روعة عن الرواية العربية .

وسكان البحرين كباقي سكان الخليج الزمردي يظهرون حناناً رائعاً تجاه اللؤلؤ حتى المشوّه منه . وهم يعطونها سلطة سحرية وهي خيرة كانت ام شريرة غريبة على كل حال . ويعتقدون ان فيها خصائص تشفي المرضى عندما تُسحق وتُبلع .

وفي قلب المنامة عند باب البحرين ، توجد مخازن هندية كبرى تقدّم كل ما يباع تحت شمس آسية واوروبة من فرشاة الاسنان اليـابانية الى قطع الاثاث السويدية ومن عطور ديور الى البرادات الاميركية . ولكن

في الاسواق الضيقة التي تفوح منها رائحة البخور دكاكين صغيرة فارغة. واذا سألت عنها عرفت انها تكوّن سوق اللؤلؤ الثمين .

على قطعة قديمة من السجّاد أكل الدهر عليها وشرب ترى شيخاً عجوزاً بلحية بيضاء ممشطة يجلس معتمراً عمامة مخروطية الشكل نظيفة غاية النظافة كأنه يؤدي عبادة خاصة لا يدرك سرّها إلا الراسخون في العلم. وامامه كنزٌ من الاحجار الكريمة يتلألأ على السجادة نفسها التي يجلس عليها. والساحر القديم الهادىء يفتش طويلا في كومة اللؤلؤ غير المنتظمة امامه عن اللؤلؤة المناسبة التي ستنضمُّ الى خواتها لتشكل العقد الذي يصنعه الشيخ. وهو يتحسّسها ويداعبها ويتطلع باعجاب دون كلل او ملل الى اللآلىء المعروضة امامه . وقد يَمضي عليه ساعة او ساعتان قبل ان يقرّر الاختيار وعندما يعتقد انه وجدَ ضالته ، يدحرج بهدوء وتلذذ اللؤلؤة المختارة بين اصابعه الخفيفة ثم يدخلها في خيط العقد ويتأمل طويلا ما صنعت يداه . وبعد ان يُشبع نهمه يعود الى متابعة عمله...

واذا دخلتَ على هذا الساحر العجوز وقطعتَ عليه عمله الذي يتطلب صبراً زائداً ودقة فائقة استقبلك ببشاشة عظيمة خاصةً اذا كنتَ زائراً غريباً لأنه يعلم ان فضولك وتقديرك للؤلؤ هما اللذان دفعاك للدخول الى دكانه . وكثيراً ما يكون الزائر مجرّد متفرّج فقط وينبّه البائع الى وضعه . ومع ذلك لا تتغيَّر نظرة الشيخ ولا تتبدّل معاملته بل تبقى الابتسامة على ثغره ؛ لأنّ تاجر اللؤلؤ يُسرّ بزيارة كهذه . لذلك يسحبُ من صندوقه التقليدي كنوزه الصغيرة الثمينة الواحد تلو الآخر. وجميعها لمّاع وبراق .

ان اصغر عقد يساوي عشرين الف روبية . ولو فكرنا في الآلام والآمال الدائمة التي يُعلقها صيادو اللؤلؤ على كل حبةٍ من حبات هذا العقد لوجدنا انه رخيص الثمن ... فكل حبة منها تعني ان الغطاس اصطاد اربعة آلاف محارة تقريباً للحصول على اللؤلؤة اخيراً . وكل

واحدة تعني ستمائة غطسة . وكلما ازداد الغطس ازداد الالم وكثيراً ما يؤدي ذلك بالغطّاس الى السلّ .

لهذه الاسباب نستطيع ان نؤكد أنه لن يكون للؤلؤ الاصطناعي الذي يقلّ عن اللؤلؤ الطبيعي جاذبيـة وجمالاً وديمومةً ، قيمة اللؤلؤ الطبيعي الثمينة المفدّاة بالدماء والاحلام ...

وكثيرة هي الاساطير التي تروي المغامرات المخيفـة الخطيرة . وأروع هذه المغامرات واطرفها هي تلك التي تروي قصة اللؤلؤة السوداء التي يجهلها الكثيرون . ولذلك نثبتها هنا لطرافتها ...

في سالف الازمان كان يعيشُ في بغداد ملك موصوف بالحزم والقوة والمجد .. كان لهذا الملك ابنة شابة . وكانت هـذه الابنة أنضر من الأزهار النادرة الناعمة . وكان خدّها احمر كالورد وفمها ثمرةً ألذّ من ثمار الجنة . ونظرة واحدة من عينيها المخمليّتين كانت تُميت من الوجد . وجسمها البضّ النقي الرشيق المتموّج كأشجار النخيل العالية في بستان معطّر كان يخفي تحت الخُمُر المتآمرة على الجمال الاستدارات التي لا مثيل لها في الكمال والروعة الفنية ...

وكانت هـذه الصبية الفتانة الطروب تملك لؤلؤة سوداء فريـدة لا مثيل لها في العالم . بلغت في عينها من الجمال والكمال درجة جعلتها تتمنى لو يكون لديها لؤلؤة ثانية مماثلة لتجعل منها قرطين لأذنيها . ولكن مع الأسف فتشت عبثاً ، وكادت تيأس وأخيراً أشاروا عليها بالغطاس « عناد » الوحيد في العالم الذي يعرف اسرار ملاجىء المحارات الضخمة التي تحمل في جوفها اللؤلؤ الاسود ... وكان هذا الملجأ في قعر مغارة مظلمة تحت المياه يحرسها وحش مائي مخيف ...

فطلبت الأميرة المدللة ، من الغطاس الجبار الجريء ان يجلب لها اللؤلؤة السوداء مهما كلف الامر . وتوسلت اليه ووعدته بأكبر الثروات وأثمن الجوائز ... واكراماً لعيني الأميرة ونزولاً عند رغبتها غطس

« عناد » الى الاعماق المظلمة واستطاع بعد ان فتك بالوحش المخيف ان يصطاد محارة سحرية واحدة . وأغمي عليه عندما عاد الى السطح فجر بمركبه الى الشاطىء وفتحت المحارة ولمعت في جوفها لؤلؤة سوداء هي طبق الأصل عن اللؤلؤة التي تملكها أميرة بغداد ...

وعاد « عناد » الى العاصمة العباسية خافق القلب حاملاً اللؤلؤة النادرة الى الأميرة الفاتنة . ولما دخل عليها استقبلته بفرح لا يوصف دفعها الى تطويق الغطاس ومعانقته قائلة : « اطلب يا بطلي الشجاع ما تريد .. ان طلبك مجاب سلفاً ... » ثم اخذت تداعب اللؤلؤتين بيدها الناعمة . عندئذ تطلع الغطاس المغامر الذي لم يستعص عليه البحر بوحوشه وامواجه ، الى الاميرة الجميلة وتأمل عينيها الكحلاوين وخدها الاسيل دون ان ينبس ببنت شفة . ولما كان يعلم علم اليقين ان ما يتمناه لن يستجاب لذلك فضل ان يموت دون ان يبوح بسره فاستل خنجراً طويلاً أغمده في قلبه متمتماً : « وداعاً يا اميرتي المعبودة !.. »

لقد كانت بشرة الغطاس الشجاع « عناد » أشد سواداً من اللؤلؤة السوداء . فهل يمكن ان يكون حبه للأميرة ابنة الخليفة سوى دنسٍ مرفوض ؟... »

واليوم من حين الى آخر تأخذ الغطاسين النشوة في القعر . ويعتقد كل منهم انه سيجد هناك اللؤلؤة السوداء مما يتيح له ان يفوز بقلب الأميرة الساحرة . فيغطس ويغطس الى ما لا نهاية . وقد يغطس مرة ولا يعود الى ما فوق الماء .. مأسوفاً على شبابه ...

ان العلماء يتحدثون عن نشوة الاعماق السحيقة ويشبهونها بنشوة السكر . اما الغطاسون فلا يتذكرون منها الا ما يرعب لأن ظل الأخطبوط العملاق الذي اصطاد المنهورين منهم ما زال ماثلاً في عيونهم...

الثروات الجديدة

لقد حل شيئاً فشيئاً مكان البحث المهووس عن اللآلىء السوداء

الاسطورية البحث الدقيق الجدي عن كنز حقيقي هـو الذهب الأسود . وفي الوقت الذي استطاعت فيه اليابان ان تنزل بوقاحة بلؤلؤهـا الاصطناعي ملوك اللؤلؤ الطبيعي عن العرش ، تفجر البترول معلناً بداية عهده وسلطانه . وفي الحال بدأت البلبلة والجلبة بـين الباحثين عـن الذهب . وفي سنة ١٩٣٢ دفع نجاح التنقيب الذي بـدأته شركة بترول البحرين الاميركيين الى الاستماتة في سبيل الحصول على امتيازات بترولية في الاحساء والكويت لطرد الانجليز خارج الحدود . وكما حدث سابقاً لم يأخذ « جون بول » حذره فترك شيخ البحرين يمنح امتيـازاً للتنقيب عن البترول في امارته الى شركة ستندارد اوف كاليفورنيا التي انـدمجت في شركة تكساس اويل فيما بعد لتؤلفا معاً شركة كالتكس التي حصلت على ستين بالمائة من اسهم الشركة العربية الاميركية (الارامكو) .

وعلى الرغم من أولويتها التاريخية في البحر الأخضر تبين مع الاسف ان البحرين تحوي افقر آبار بترولية في الخليج العربي . وحقول البترول موجودة في « عوالي » التي تقع في وسط البحرين . ولم تكتشف منطقة بترولية اخرى حتى اليوم . وقد بدأ الانتـاج في « عوالي » سنة ١٩٣٤ ووصل معدل الانتاج الى حده الاقصى سنة ١٩٤٨ وهو مليون وخمسمائة الف طن في السنة وبقي الانتاج على هذا المستوى حـتى سنة ١٩٥٨ اذ وصل الى مليوني برميل بمعدل اربعين الف برميل . ويعتقـد انه في الامكان الاحتفاظ بهذا المعدل للانتاج حتى سنة ١٩٨٠ . وهناك في البحرين الى جانب الانتاج صناعة تكرير البترول ، اذ انشئت فيها مصفاة تكرر اكثر من عشرة ملايين طن في السنة . ومصفاة شركة بـترول البحرين التي يغذيها الزيت الخام السعودي تنتج مجموعة كاملة من المواد تصـدر بصورة خاصة الى الهند وجنوبي شرقي آسية . وتقف الناقلات صفـاً واحداً امام جزيرة « ستره » لتملأ جوفها بالبترول المكرر .

وعائدات امير البحرين البترولية هي زهيدة بالطبع اذا مـا قيست

بعائدات الامارات المجاورة . ولكنها مع ذلك تشكل المورد الرئيسي المهم في الامارة وتتلوها مكوس الجمارك . وفي البدء كانت العائدات البترولية تقسم مثالثة : القسم الاول يذهب الى العائلة الحاكمة والامراء والمشايخ ومنه ايضاً تعطى الهبات التقليدية . القسم الثاني يحفظ بالنقد النادر وتستخدم فوائده كمورد اضافي للخزينة والقسم الثالث يذهب نفقات للادارة الحكومية مباشرة اي رواتب للموظفين ، وتحقيق المشروعات الاصلاحية الاجتماعية ؛ وخاصة الصحية منها والتعليمية . وعن البحرين اخذت امارات الخليج هذا المبدأ . ولكن يبدو أنه يجب التخلي عنه لصالح مبدأ آخر يقول بوجوب الحاق جميع هذه العائدات بالموازنة العامة ..

وقد اصبح التطور الاجتماعي والاقتصادي ممكناً في الامارة بعد اكتشاف البترول ولكنه لم يحدث انقلاباً جذرياً كما حصل في الكويت وقطر . والذي يلفت النظر عند التدقيق في ارقام الموازنة ان السلطات الحاكمة تجاوباً منها مع اليقظة الشعبية تبدي اهتماماً فائقاً بنشر الثقافة والتعليم والعناية الصحية وتوسيع شبكة المياه ومدّ اقنية الري . وذلك لأن ثروة البحرين الحقيقية تكمن في مياهه الرقراقة العذبة وبركه الصافية الشفافة التي تحمل الحياة الى الأرخبيل . وقد ورثت جزر البحرين عن فترة الاحتلال الفارسي القديمة طريقة مد الأقنية المغطاة التي تحفظ المياه من التلوث والتبخر بسبب حرارة الشمس المرتفعة في الخليج العربي ...

وقد كان من نتيجة هذه الأقنية ان تحسنت الزراعة في البحرين . وفي « بوديّه » شمالي البحرين ترى اليوم مزرعة نموذجية لا تصدق نفسك عند رؤيتها انك في البحرين . وقد بلغ نجاح التجارب الزراعية سنة ١٩٥٧ القمة عند اقامة اول معرض زراعي في الخليج . وسجل المعرض الثاني سنة ١٩٥٨ تقدماً محسوساً عن المعرض الأول .

شعب حذر وأمير عنيد

من بين المائة والثلاثين الف نسمة الذين يسكنون جزر البحرين يوجد عدد يقارب ٢٠ الف اجنبي بين بريطانيين واميركيين وعرب من الأقطار الشقيقة وتجار هنود وأعجام . وأما السكان الأصليون فهم من عرب الخليج وتشير ملامحهم الى الغزوات المتعددة التي تعرضت لها البحرين عبر التاريخ الطويل ... ويعتنق قسم من سكان البحرين المذهب الشيعي بينما يعتنق القسم الآخر المذهب السني .

وشعب البحرين الوديع كثير الحذر ومستعد دائماً لكل طارىء . وحتى وقت قريب كانت الانقسامات الطائفية تنذر قرنها وتحدث الاضطرابات المؤلمة في البلاد ؛ غير ان الأمير الحاكم بنظره البعيد حال دون ذلك في المدة الأخيرة حتى لا يفسح المجال امام حكومة طهران الطامعة في التدخل . وتحولت النقمة الشعبية نحو الأجانب خاصة الانجليز ويغذي هذه النقمة انصار القومية العربية ...

والشيخ العجوز الطيب سلمان بن حمد آل خليفة الحاكم العام منذ سنة ١٩٤٢ لم يقتنع بعد بضرورة الحكم دستورياً ولا يرى موجباً لإقامة مجلس تشريعي منتخب . وانما سمح بانشاء مجالس استشارية للصحة والتربية يُنتخب قسم منها انتخاباً منذ سنة ١٩٥٦ ومجالس بلدية تنتخبها المدن الرئيسية وما ان يحاول احدهم بث روح النقمة والانتفاض على النظام القائم حتى ينفيه الأمير الى جزيرة «جدي» .

وقد احتفظ الشيخ كأسلافه بديموقراطية الاتصال بكل اتباعه وتراه في كل اسبوع يجلس في مجلسه الحر عند باب البحرين في العاصمة يستمع الى شكاوى الناس ويحلها بنفسه . ومن اجل الإقامة والسكن يفضل قصره الرائع الذي يقوم في مكان جميل فتان عند « الرفاع » الغربي . واذا كان الأمير يملك كباقي امراء الخليج عدداً من السيارات الضخمة فانه ما زال

يفضل عليها الخيول العربية الاصيلة التي تراهـا باستمرار رائحة غادية في طرقات العوالي .. وعلى الرغم من جميع النواقص ما زال نظام الحكم الذي يتبعه امير البحرين متقدماً على انظمة الحكم القائمة في سائر انحاء الخليج . ولعل ذلك ناجمٌ عن احتكاكها الزائد بالاجانب وموقعها الجغرافي الخطير ...

وللانجليز في البحرين مستشار دائم منذ ثلاثين سنة هو السير شارل بلغريف يعاونه عدد من البريطانيين في المراكز الادارية الحساسة . وبعد ذهابه من البحرين تسلّم ابنه جيمس بلغريف ادارة العلاقات العامة والإذاعة والتوجيه . وهناك عدد من البريطانيين يعملون في خدمة الامير الخاصة . وعلى صعيد آخر هناك موظفو قلم الاستخبارات الذين يعملون بناءً على توجيهات وزارة الخارجية البريطانية . وعلى رأس القمة المقيم البريطاني العام الذي تمتد سلطته السياسية من مسقط الى شط العرب ويقيم في عاصمة البحرين التي جعلها مركز النشاط السياسي والعسكري في منطقة الخليج .

وفي البحرين قاعدة بحرية انجليزية – اميركية وقاعدة جوية تابعة لسلاح الجو الملكي . وقد تضاعفت عناية بريطانية بها بعد انهزامها في معركة السويس سنة ١٩٥٦ وانفجار ثورة عمان سنة ١٩٥٧ . لهذه الاسباب نرى بريطانية متصلبة في موقفها في البحرين تستعمل شتى الاساليب لتبقي الأمير في معزل عن جاذبية تيار القومية العربية الذي بدأ يلفح الامارة الزمردية.

منذ خمسين قرناً حتى المطالبة الايرانية

كانت البحرين منذ خمسة آلاف سنة بسبب موقعها الجغرافي الخطير مطمع الغزاة الفاتحين . وفي العهد البابلي اتجهت انظار حكام ما بين النهرين ، للاستيلاء عليها . ولما قامت دولة الساسانيين ضمّت ايران هذه الواحات البحرية الى امبراطوريتها وظلت تحت سيطرتها حتى ولايه

شاهبور في القرن الميلادي الرابع .... وقــد عرفت فيما مضى باسم « تيلوس » و « أرادوس » . وما زال اسم « أراد » متداولاً من البعض في جزيرة المحرّق . كما ورد اسم تيلوس كثيراً عــلى لسان المؤرخ بلاين الذي أشاد كثيراً بلآلئها واحجارها الكريمة . ومنذ القرن الرابع الميلادي حتى القرن السادس عشر أُطلق اسم البحرين على الشاطىء الممتــد من الكويت الى قطر بما فيه الجزر الواقعة أمامه . ولدى مجيء البرتغاليين الى الخليج العربي اقتصر اسم البحرين على الأرخبيل فحسب ...

ويعتقد بعض المؤرخين الخبراء في الآثار القديمة ان البحرين هي الموطن الاصلي للفينيقيين القدماء الذين سكنوا الساحل اللبناني . ومنها انطلقوا الى البصرة سالكين طريق الهــلال الخصيب الى لبنان حيث بنوا مدنهم وانشأوا حضارتهم الرفيعة التي نشروها في البحر المتوسط بأسره . ويعزز هذا الرأي ان القبور القديمـــة التي عثر عليها رجال الآثار في الجزيرة الكبرى تشبه الى حد بعيد يثير الدهشة النواويس الفينيقية . وقد دُرست هذه الآثار من قبل الاختصاصيين ولم يقولوا بعد كلمتهم الفاصلة في هذا الشأن . اذ ظل هذا الموضوع غامضاً ولم يُعثر على الدليل القاطع الذي يرشد الى مهـــد الفينيقيين الأول ؛ فإنّ هناك من الآثار الثـــابتة ما يدل على انه قد سبق للفينيقيين ان انشأوا لأنفسهم مستعمرات تجــارية في نقاط متفرقة من الخليج .

وعبر العصور تعرضت جزر البحرين التي تقـــع في طريق الحــرير والتوابل لكثير من الغزوات . وكثيراً ما كانت ايضاً ملجــأ للناقمين الثائرين او المضطهدين بسبب آرائهم السياسية ومعتقداتهم الدينية . وفي صدر الاسلام دخلت البحرين نطاق الدولة الاسلامية منذ القرن الميلادي السابع . وفي القرنين التاسع والعاشر خضعت لسلطان القرامطة الذين سبق الحديث عن حركتهم ومذهبهم . وقد اتخذوهــا منفى لأسراهم ومعارضيهم . ولما احتلها ملك هرمز في القرن السادس عشر اعتمــد في

ادارتها على البرتغاليين الذين بنوا فيها حصوناً ما زالت معالمها موجودة حتى اليوم . ولكن هذه الحصون لم تحل دون سقوط الأرخبيل سنة ١٦٠٢ في يد الأمير شيراز . وأثر ذلك خلال قرن كامل من الزمن تتالت الغزوات الفارسية من جهة والحملات العثمانية من جهة اخرى . وتناوب الحكم امراء فارس ومشايخ عُمان ؛ مما حمل اخيراً حكام فارس على ان يدفعوا مبلغاً من المال لسادة عُمان كي يُخلوا لهم الجو في البحرين فتركوهم فيها هادئين ناعمين .

في ذلك الحين كان على الشاطىء المقابل بالقرب من قطر يعيش فريق من العرب برئاسة أسرة آل خليفة التي ترجع بنسبها الى عنزه ابناء عم آل الصباح . فاغتنم هؤلاء الذين كانوا يتطلعون الى الجزر الجميلة بعين الاعجاب والتمني فرصة انشغال الفرس في بعض الامور الداخلية وهاجموا البحرين حيث قضوا بمساعدة آل الصباح على الحامية الفارسية كلها . ويقول السياسي البريطاني جيمس بلغريف في هذا الصدد : « ان الربان الكويتي الجريء رحمة بن جابر ــ الذي اشرنا الى اعماله ومعاركه في مكان آخر من هذا الكتاب ــ قد أبلى بلاءً حسناً في معركة البحرين ضد الفرس . ومنذ ذلك الحين ذاع صيته وشاع ... »

وبعد ان ثبت مشايخ آل خليفة اقدامهم في البحرين أخذوا يوطدون علاقاتهم بالانجليز . وفي سنة ١٨٢٠ قبلوا الهدنة المتعلقة باعمال القرصنة وفي سنة ١٨٥٣ وقعوا معاهدة الصلح الدائم . وفي ١٣ آذار سنة ١٨٩٢ شملت الحماية البريطانية بموجب المعاهدة « المانعة الابدية » جزر البحرين . وفي سنة ١٩١٤ تعهد آل خليفة للبريطانيين بالا يعطوا اي امتياز لاستغلال اللؤلؤ او التنقيب عن البترول الا بمعرفتهم وبعد استشارة حكومة لندن .

ولما تذكرت ايران في القرن المعاصر ان البحرين كانت فترة ما تحت

سلطانها وشرعت في المطالبة باعادتها اليها وجدت نفسها ازاء معارضة قوية عنيفة غير المعارضة العربية ، هي معارضة بريطانية التي تغلغلت في المنطقة ... فتأزمت العلاقات بين الجيران وتوترت في كثير من المناسبات حتى كان العمل المسرحي الأخير الذي قامت به ايران سنة ١٩٥٨ حيث اعلنت شكلاً انضمام البحرين اليها . وبذلك انقطع الأخذ والرد . الا ان هذا العمل لم يغير مطلقاً الوضع الحقوقي الدولي والدستوري لارخبيل البحرين . وظل آل خليفة يحكمون البحرين كما كانوا ... ولم يكن لإعلان ايران اي اثر ، ولم يحسّ به سوى السائح الذي يقدم جواز سفره الى الحكومة الايرانية وعليه تأشيرة سلطة البحرين . عندئذ تمتنع سلطة طهران عن السماح للسائح بزيارتهم ولا تعترف بالجواز ابداً .

ان هذا التدبير قد عاد بكثير من الاضرار على افراد الجالية الايرانية التى تعيش في البحرين . وهم وحدهم الذين يقطفون ثمرة سياسة حكومتهم من المتاعب والمشاق .. والذين يستطيعون التنقل بين الارخبيل وايران دون انزعاج انما هم المهربون الذين لا يعترفون بشيء اسمه القانون الدولي .

١٣

الهلال غير الخصيب

قبالة ارخبيل البحرين الى الجنوب يمتد داخل البحر كاللسان شبه جزيرة صحراوية لا ماء فيها ولا نبات . وترتكز شبه الجزيرة هذه التي تُدعى قطر الى ساحل مديد يتطاول الى الجنوب الشرقي بشكل هلال ؛ ليس فيه سوى المستنقعات والرمال .. ذلك هو شاطىء عمان والقراصنة سابقاً الذي سُمّي بعد الصلح بين القبائل وبريطانية شاطىء الهدنة او شاطىء الامارات المتصالحة .

لقد قصد هذه المنطقة منذ القدم كثير من البدو الرحل . ولما وصلوا اليها وعركوا عيونهم لم يجدوا فيها من موارد الرزق شيئاً غير المياه المالحة والهواء الساخن والرمال المتراكمة . فيئسوا وارتحل منهم من ارتحل . اما الباقون فتعلموا السباحة وشرعوا ينتزعون من البحر أسماكه يقتاتون بها . ثم تمرّسوا اكثر في شؤون البحر واخذوا يغطسون سعياً وراء اللؤلؤ الثمين ؛ بل تمادى الجريئون منهم وعقدوا على سفنهم لواء القرصنة وكان لهم من الغزو البحري خير كثير .

واليوم يعيش في شبه جزيرة قطر نحو من خمسة وعشرين الف نسمة وعلى ساحل الهدنة هناك من السكان عدد يتراوح بين ثمانين ومائة الف نسمة يتجمعون في نقاط ملائمة للسكن تنتشر في نصف دائرة مساحتها

خمسمائة كيلو متر مربع . ويقول ريشار سنجر : « ان كل مـــن يشاهد هذه البقعة من الارض يدرك تماماً لمـاذا برع القواسم في اعمال القرصنة البحرية .. » لقـــد كان البحر لهم بسبب الاراضي المجدبة البخيلة مورد رزق لا يستغنى عنه .

على تلك المستنقعات والرمال يتنازع اليوم ويتسابق رجال الاعمال للاستيلاء عليها واستغلال البترول الدفين في ارضها . ومنـذ سنوات يعمل الخبراء والمهندسون في التنقيب . وجميع الدلائل والتقارير تبشر بالخير الوفير ...

●

تقتسم هـــذه المنطقة الشاسعة ثماني امارات او مشيخات بنسب غير متساوية . وتأتي في الطليعة امارة قطر التي تبلغ مساحتها نحواً من عشرين الف كيلو متر مربع . وهي كما اسلفنا شبه جزيرة قاحلة تنتهي بصخور مرجانيه وخاصة في الشمال .

وقطر قبل اكتشاف البترول كانت ارضاً خالية إلا من بعض الاكواخ والآبار القليلة حيث بنيت بالقرب منها بعض اشجار النخيل . ولم يكن لابنائها من مورد يذكر سوى صيد الاسماك واللؤلؤ . ولما تفجّر البترول قلبَ الحياة فيها رأساً على عقب .

صباح يوم من الايام سنة ١٩٣٧ قـدم بعض المنقّبين الفضوليين من الغرب وشرعوا ينقبون في الارض بعناد ، حيث زرعوا قضباناً من الحديد هناك فنبتت اشجار حديدية وحصدوا بترولاً غزيراً . ولكن المدة بين الزرع والحصاد كانت طويلة .. فقد حالت الحروب دون الاستمرار في التنقيب والحفر . وكان عليهم ان ينتظروا حتى سنة ١٩٤٩ ليروا الثروة تتدفق . وفي سنة ١٩٥٣ وصل الانتـاج الى اربعة ملايين طن . وبدأت العائدات الطائلة تدخل خزينة مشايخ آل ثاني . وفي سنة ١٩٥٧ قبض امير قطر من الشركة البترولية التي تعمل في امارته الصغيرة ستة عشر مليون جنيه استرليني كعائدات بترولية لانتـــاج بلغ ستة ملايين ونصف المليون من

الاطنان . وفي سنة ١٩٥٨ تخطى الانتاج ثمانية ملايين طن .

وتقسم العائدات على الشكل التالي : ينفق الامير علي وامرته والادارة الربع ؛ والربع الثاني يوظف في المصارف . واما النصف الباقي فيصرف بسخاء على اصلاح الامارة في المشروعات الانشائية المختلفة . ويمكن القول ان قطر باندفاعها التقدمي قد تغيرت تغيراً كاملاً بكل معنى الكلمة . ولم يبق من « الدوحة » القديمة عاصمة الامارة شيء ؛ فقد زالت الاكواخ القديمة لتقوم مكانها البنايات الحديثة الضخمه الجميلة . واختفى الزقاق الذي كانت تأتي اليه الكلاب التائهة والماعز السوداء باحثة عن شيء تقتات به ، ليظهر محله الشارع العريض الفسيح المعبد المزفت الذي يربط الدوحة بالمراكز البترولية قاطعاً جمود الصحراء وفراغها من الشرق الى الغرب.. وعلى هذه الطريق وذاك الشارع ترى السيارات الفخمة تتهادى بسهولة زائدة .

وقد حولت الكهرباء واساليب التبريد الاصطناعي والمياه العذبة المكررة الحياة التي يحياها المواطن القطري ونقلته بين ليلة وضحاها الى المدنية الحديثة البراقة ...

والتعليم في قطر يحظى ايضاً باهتمام المسؤولين فقد بنيت المدارس الحديثة وزودت باحسن الاثاث وتم التعاقد للتعليم فيها مع رجال الاختصاص والفن من ابناء البلدان العربية الشقيقة المتقدمة ... الا ان الفتاة لم تفز حتى الآن بما ناله الفتى القطري من عناية لأن النساء ما زلن قابعات في مخابئهن ولا يخرجن منه الا ملفوفات من الرأس حتى القدم بعباءة سوداء .

وتمشياً مع السياسة الاصلاحية الانشائية التي سار عليها الحكام في امارات الخليج منذ استغلال الثروة البترولية ، بنى امير قطر مستشفى رائعاً مزوداً باحدث الآلات الطبية واللوازم مع التبريد الاصطناعي .. والتطبيب كما هو في الكويت مجاني في هذا المستشفى ليس لأبناء قطر

فقط بل لكل من يقصده من المرضى المصابين ...

وتحسّن الاحوال الاقتصادية شمل قسماً كبيراً من السكان الذين بلغ عددهم بعد هذا التقدم الحديث زهاء اربعين الف نسمة بما في ذلك المهاجرون الجدد الذين قدموا من ساحل عمان وعددهم نحو عشرة آلاف نسمة ... الا انه ما زال حتى الآن في قطر قسمٌ كبير من قدماء الصيادين مازال يحيا الحياة التقليدية القديمة . وهناك قبالة هذه الطبقة فئة ضئيلة من السكان اثرت اثراءً فاحشاً واحتكرت مجالات النشاط الاقتصادي كلها . وعلى رأس هذه الفئة عبدالله درويش الذي اقصي مؤخراً عن قطر وهو يملك خمسين سيارة كاديلاك وكان يمثل الامارة لدى شركة البترول ... وفي قطر أشخاص جمعوا ثروات طائلة دون ان يُزعجوا انفسهم للقيام بأي عمل . وكل ما هنالك انهم قبضوا اثماناً فاحشة لعقاراتهم التي قضى المشروع التجميلي البنّاء الحديث ان تُصادر وتهدم لتشق مكانها الطرقات الفسيحة ...

وهذا الأندفاع الجامح دبّ ايضاً في نفوس هؤلاء الاغنياء الجدد فاذا بهم يبنون لأنفسهم الفيلات الضخمة المزخرفة المزودة بكل وسائل الراحة والرفاهية . وهم يستوردون أغلى البضائع من أقصى بقاع العالم ويدفعون لها أغلى الأثمان ... فهلاّ فكّر هؤلاء فيما سيحدث غداً عندما يتوقف سيلان البترول ؟

ان عليهم منذ الآن ان يحسبوا حساب المستقبل البعيد لئلا يضطروا الى هجر قصورهم الخاوية منّ الكهرباء والماء والنعم التي منّ الله عليهم بها بفضل البترول المحدود في خزّاناته المدفونة في باطن الارض .

ان مصير ابنائهم واحفادهم من بعدهم معلق بتصرفاتهم فان احسنوا صنعاً ووظفوا رساميلهم في مشروعات بناءة انتاجية امنوا لهم مستقبلاً رغيداً يحمدونهم عليه . والا كانت العاقبة وخيمة لا يعرف مداها الا الله.

ان مصير قطر البترولي محدد بعشرين سنة من الانتاج تقريباً اذا لم تكتشف آبار جديدة . ومنذ اكتشاف بئر « دُخان » سنة ١٩٣٩ لم يعثر المنقّبون على آبار جديدة منتجة . والتنقيب تحت الماء لم يثمر حتى اليوم ...

وامتياز التنقيب عن البترول في قطر يشمل أراضي الامارة كلها بما في ذلك المياه الاقليمية . وقد حصلت على هذا الامتياز شركة بترول العراق . وخلقت لها ابنة في سبيل ذلك أسمتها شركة بترول قطر . وقد تبنت هذه الشركة كل ما يلزم للاعمال البترولية الإنتاجية وانشأت مدينة خاصة بها بالقرب من ميناء ام سعيد البترولي الذي يشابه اخواته المنتشرة على ساحل الخليج في المناطق البترولية ... وما زال التنقيب مستمراً على الرغم من فشل الجهود المبذولة . وهناك أمل في اكتشاف احتياطي بترولي ضخم في قطر ... وكانت قطر اول امارة على الخليج منحت سنة ١٩٤٩ امتيازاً للتنقيب عن البترول تحت مياه الخليج لشركة غير الشركة التي تملك الامتياز البري ... وقد نتج عن ذلك العمل نزاع حقوقي فضته لجنة التحكيم التي اجتمعت في الدوحة سنة ١٩٥٠ . وكان أن ألفت شركة « شل » للتنقيب عبر البحار شركة فرعية لها دعتها : « شركة شل القطرية » التي حصلت على امتياز للتنقيب عن البترول تحت المياه في مساحة قدرها خمسة وعشرون الف كلم ؛ وذلك سنة ١٩٥٣ بعد ان تخلت صاحبة الامتياز الاولى وهي : سوبريور أويل كومباني المتفرعة عن انترنيشنال مارين أويل كومباني .

وقد حفرت شركة شل بئرين جافين امام الدوحة بواسطة آلة للحفر تحت المياه فريدة من نوعها في العالم تبلغ قيمتها مليار فرنك . وفي شهر كانون الاول سنة ١٩٥٦ بينما كانت ورشة الحفر تنتقل من مكان الى آخر لإجراء الحفر فيه هبت عليها عاصفت هوجاء قلبت آلة الحفر

الثمينة مما أودى بحياة كثير من العمال والمهندسين . وقد توقف العمل من جراء هذا الحادث الطبيعي المفاجىء بانتظار الانتهـــاء من صنع آلة جديدة يجري صنعها في هولندة .

وفي دائرة ملاصقة لقطر ضمن أراضي ابو ظبي حصل المنقبون سنة ١٩٥٨ على دلائل مشجعة ...

ان امارة قطر كالكويت هي احدى بلدين او ثلاثة في العالم يصــل الدخل الفردي فيها الى اعلى رقم . ونظام الحكم السياسي فيها تقليــدي تولاه الشيخ علي بن عبد الله بن قاسم آل ثاني . وهو يدير شؤون الامارة كلها بنفسه يعاونه ابنه الشيخ احمد ومستشار بريطاني هو المستر هانكوك .

وهناك تحت إمرة الامير عدد من كبار الموظفين الانجليز الى جانب الممثل السياسي التابع لوزارة الخارجية البريطانية الذي تقتصر صلاحياته مبدئياً على رعاية الشؤون الخارجية والعسكرية . والانجليز موجودون في قطر بناء على المعاهدة الموقعة سنة ١٩١٦ التي تبعها وعــدٌ صريح من قبـــل بريطانيا بحماية الأمارة من كل اعتداء خارجي يشن عليها من الجوار ...

والأمور في قطر ليست سهلة كما تدل عليها الظواهر . فهناك بعض المتاعب الداخلية التي يؤمل ان يحلها الشيخ الحاكم ...

وعلى العكس من الكويت التي تحمي ظهرها الصحراء الواسعة ، والبحرين التي تقصي عنها مياه البحر اطماع الطامعين تتــأثر قطر مباشرة بالنفوذ الوهابي السعودي . وقبائل البدو تروح وتجيء بين السعودية وقطر دون ان يعترضها احدٌ لعدم وجود حدود ثابتة متفق عليها حيث يخشى بروز خلاف الحدود بين البلدين . وقد حاولت المملكة العربيـــة السعودية في السنوات الاخيرة ان تتقرّب من أمير قطر وأخوته بينما تبنّى ابناء عمومته الدعوة الى القومية العربية والوحــــدة التي تحمل لواءهـــا القاهرة .

وقد نتج عن ذلك شيء من عدم الاستقرار في الامارة يغذيه بعض الاجانب من ارباب المصالح البترولية ...

وابرز الشخصيات السياسية بعد الأمير الحاكم الشيخ خليفة بن حمد نجل الحاكم السابق وهو شاب متحمس جداً للاعمال التقدمية يرعاها بسخاء ...

ان امارة قطر التي تكونت شخصيتها السياسية سنة ١٨٦٨ تريد اليوم وتسعى لمعرفة أي من الاتجاهات ستختار واية دعوة ستتبنى ويتمنى لها كل مخلص ان تحسن الاختيار لتصون ثرواتها وتبني لنفسها مستقبلاً لامعاً تتخذ فيه جميع الاحتياطات لاستمرار الرخاء .

شاطيء القراصنة بدون قراصنة

عندما نصل الى الشاطيء الذي كان يُسمّى شاطيء القراصنة تُصبح المشاكل كثيرة متعددة . وهنا اكثر من اي مكان آخر تحسُّ انك تعيش في الخليج العربي الذي تحدثتَ عنه الأساطير .

و« دُبيْ » المرفأ والمدينة الرئيسية في هذه المنطقة ما زالت حتى اليوم تحمل تلك الاوصاف البدائية القديمة الساحرة المضحكة معاً التي عُرفت بها المراكز التجارية في الايام التي جاب فيها السندباد البحري وابن بطوطة وماركو بولو ... والمساكن البيضاء المبنية على الطريقة التقليدية على اسس مرجانية ليس فيها هواء مكيف اصطناعي . ولتخفيف حدة القيظ في الايام الشديدة الحر ليس على السكان إلا ان يلجأوا الى حصون الهواء المشهورة التي لا بد منها فوق كل بيت . وآخر حَلٍ يمكنهم اللجوء اليه للخلاص من الحر الشديد الغوص حتى العنق في مياه البحر الضحضاحة او في مياه القنوات الصغيرة المنتشرة في المدينة التي تذكرنا بأقنية مدينة البندقية في ايطاليا ..

وفي الاسواق المظللة بحصر مُحاكة من سعف النخيل تجد مختلف البضائع

والاصناف وكثير منها وصل عن طريق التهريب وهي معروضة في دكاكين صغيرة يديرها اناس تتذكر اذا ما رأيتهم فوراً قصص الف ليلة وليلة . وعلى الأرصفة البدائية ترى البحارة يعملون ناشطين في حركة دائمة والحمالين يروحون ويجيئون ناقلين رزماً لا يعرف محتوياتها الا الراسخون في العلم . اما رائحة السمك المملح المتعفن فهي في « دُبيْ » اقوى منهـا في البحرين. والذي يعوّض عن ذلك ان النور هنا يعكس على صفحة الماء الخضراء الواناً وردية وذهبية تزيد روعة وجمالاً جميع المناظر الطبيعية في آفاق البحرين ..

والمعاهدة العامة للسلام الدائم المعقودة سنة ١٨٥٣ كانت فـاتحة عهد من السيطرة البريطانية دام مئة سنة في الخليج العربي . خلال هـــذا العصر الذي طُويت منه آخر صفحة مؤخراً لم تتغير كثيراً طرق العيش على شاطىء القراصنة الذي فقد اسمه هذا ليحمل اسماء جديدة متعددة . شاطىء الهدنــة ، شاطىء عمـــان ، شاطىء المشيخات ، والامارات المتصالحة . ومع ان التدخل الانجليزي في هذا المنطقة الخطرة قـد تمّ رويداً رويداً وعلى مراحل ، لم تستطع انجلترة ان تقضي بصورة مطلقـة على اعمال الغزو البحري التي بقي العالم يسجل بعض احداثها حتى قبيل الحرب العالمية الثانية . لقد كان هذا القسم من الخليــج العربي ، غير الصالح للملاحة لقلة عمق مياهه وكثرة حواجزه الطبيعية التي تعيق حركة المراكب ، كان فيما مضى خير ملجأ لفرسان البحر يلجأون اليه عندما يداهمهم الخطر في عرض الخليج . وبعد وصول الانجليز وانتشار السفن التجارية واستخدام الزوارق السريعة استطاع هؤلاء بدأب واجتهـــاد مستمرين ان يقضوا شيئاً فشيئاً على اعمال الفوضى في البحر . وبعد ان تمّ للإنجليز ذلك انصرفوا الى إحكام الخناق على تجار الاسلحة والرقيق ؛ وغضوا الطرف عن حركة التهريب الناشطة هناك التي يعيش منها عدد لا يستهان به من العائلات التي تسكن هذا الساحل .

والمشيخات السبع التي تتقاسم شاطيء الهدنة بين رمال صحراوية ومستنقعات تتراوح مساحتها مجتمعة ما بين عشرين وثمانين الف كيلومتر مربع . وهذا التباين ناشيء عن جهل المسافة الصحراوية الداخلية التي تعتبر تابعة للشاطيء .. وما زال النزاع قائماً بين المشيخات والمملكة العربية السعودية على تحديد هذه المسافة ..

والحياة الحضرية ليست ممكنة الا في القرى العشر المنتشرة على الساحل ، والمزارع التسع القائمة في القسم الداخلي من واحة «البريمي» هذه المزارع المتنازع عليها بين السعودية والمشيخات تشكل الدائرة الوحيدة الصالحة للسكن في دائرة شعاعها يبلغ مئات الكيلومترات ، الأمر الذي يجعلها ذات اهمية ستراتيجية كبرى لفتت الانظار ..

اما السكان الذين يعيشون في هذه المنطقة فيقدر عددهم بين ثمانين ومئة الف نسمة ؛ اربعون الف منهم يتجمعون في "دَبَيّ" العاصمة وهي مرفأ المنطقة الرئيسي ومركز المقيم السياسي البريطاني لشاطيء الهدنة . وقد دفع فقر هذه المنطقة النسبي قسماً كبيراً من ابنائها للهجرة الموقتة للعمل في امارات الخليج البترولية الكويت وقطر والبحرين . وما زال هناك في الداخل زهاء عشرة آلاف بدوي يرتحلون حسب عاداتهم منذ قديم الزمان... وتشكل واحة البريمي بالنسبة لهؤلاء المركز التجاري الرئيسي وبعض الاحيان يعتريهم الملل من حياة الصحراء الرتيبة فيلجأون الى الخليج ويمتهنون حياة البحر متنقلين من تعاسة الى تعاسة ومن شقاء الى شقاء ..

وفي هذه المنطقة التي تمتد على شكل هلال من طرف شبه الجزيرة العربية حتى قطر هناك اربع مشيخات او امارات ليست في الواقع سوى قرى قائمة على شاطيء البحر هي : عُجمان ، أم القيْوين ، رأس الخيمة ، فجيرة ، وتطل الاخيرتان منها على الخليج . وبين الامارات الثلاث الباقية تعتبر دبي اكبرها واهمها وفيها الشارقة اكبر مدينة في المنطقة

وتتبعها قاعـــدة جوية بريطانية تحرس الطرف الجنـــوبي الشرقي من شبه الجزيرة العربية . أما امارة أبو ظبي فهي من حيث المساحة اوسع الأمارات واكبرها .

مساعدة بريطانية

لقد حرص امراء هذا الساحل كباراً وصغاراً منذ البداية على استقلالهم الذاتي . وبريطانيا نفسها من اجل ان تتسرب الى هذه المنطقـة تقربت بحجة حماية هذا الاستقلال . لقد قالت لهم : « انني على استعداد كي احميكم من الجوار في حالة وقوع اي اعتداء عليكم ولا اريـد منكم إلا اقامة بعض القواعد العسكرية في بلادكم والسماح لي بالتنقيب عن البترول في اراضيكم » .

وبغية الوصول الى نوع من التوازن السلمي كان على بريطانيـــة ان تفرض نفسها حَكَماً لحل المنازعات التي لا نهاية لها بين الامراء خاصة عندما زاد الامل في امكانية العثور على البترول ..

وبعد ان أمضى الانجليز السنوات الطوال العديدة في حل المنازعات بين الامراء حاولوا سنة ١٩٤٥ ان يؤلفوا نوعاً من الاتحاد الفدرالي بين الامارات محددين مسبقاً مدى السلطات في هذا الاتحاد . وعقـــد اول اجتماع بين المشايخ في البريمي وتبعته اجتماعات سنوية دوريــة في مجلس « الاسياد » الدائم منذ سنة ١٩٥٢ وخلال ذلك كان يؤمن المحافظة على النظام فرقة من الجنود مركزها الشارقة ؛ ويقودها ضابط بريطاني برتبة كولونيل يعاونه اثنان وعشرون ضابطاً بريطانياً ادنى منه رتبة . وبعد انــــدلاع ثورة عمان المعروفة ضد سلطان مسقط ضاعفت بريطانية قواتها هناك لمواجهــة هذه الثورة وللإبقاء على « السلم » البريطاني في منطقــة ساحل الهدنة ...

وفي سنة ١٩٥٦ وضعت بريطانية مشروع خمس سنوات لتطوير المنطقة

اقتصادياً وارصدت لذلك مبلغاً قدره خمسماية الف جنيه استرليني . ووجهت جهداً خاصاً لتقدم الاوضاع الزراعية في واحة البريمي وامارة رأس الخيمة في اقصى الشرق . وعلى الرغم من جميع هذه المساعدات والجهود المبذولة ظل احفاد القواسم يتجهون الى البحر ممتهنين الصيد في انتظار سراب الثروة البترولية ...

والتنقيبات المتواصلة التي بدأت منذ الحرب العالمية الثانية لم تعط ثمارها حتى الآن وكل النتائج التي عثر عليها الاختصاصيون زيت ثقيل وجفاف محزن وغازات خطيرة . وتقوم بأعمال الحفر والتنقيب شركات مختلفة . وفي نيسان سنة ١٩٥٨ بدأ الحفر في بئر ام شعيف في عرض الخليج على بعد مئة وثمانية وعشرين كيلو متر عن الشاطىء على مقربة من بئر شركة شل الجافة في قطر ...

والامتياز البري للتنقيب عن البترول في منطقة شاطىء الهدنة كلها تحتكره شركة « التطوير البترولي » المتفرعة عن شركة بترول العراق وتخص هذه الشركة امارة ابو ظبي بالقسم الاكبر من مجهودها في التنقيب .

وقد منح امتيازان للتنقيب تحت المياه الى فريق يضم شركة البترول البريطانية وشركة البترول الفرنسية بنسبة اثنين الى واحد . وقد شكل هذا الفريق شركة (ادما) اي الشركة البحرية والبترولية في ابي ظبي . وشركة (دما) اي الشركة البترولية البحرية في دبيْ . وقد اقيمت قاعدة للعمليات في جزيرة « داس » الصغيرة الصحراوية امام ابو ظبي . وُبدىء الحفر في اول بئر على مسافة ثلاثين كيلو متر من الجزيرة الى الشرق بعد استعداد طويل واذا به يحمل بشائر الخير في ربيع سنة ١٩٥٨ . وفي انتظار الانتاج الضخم التجاري يكتفي اصحاب البترول في شاطىء الهدنة بعائدات لا تتجاوز مائتي مليون فرنك يذهب اربعة اخماسها الى صندوق امير ابو ظبي . ولا يمكن لهذه التفاهات ان تقاس مطلقاً بمئات

المليارات التي تصب في صناديق الامراء المجاورين . وهي بذلك لا تشبع الامراء الفقراء الذين يتطلعون الى الثروة بفارغ الصبر ...

من هذا الجو يسمع المواطنون التعساء في شاطىء الهدنة عن الازدهار الغريب الذي اصاب امارات الخليج البترولية من افواه العمال المهاجرين الذين يسرهم ككل عربي التحدث والاشادة بالروايات الاسطورية . وبسبب ذلك تنتشر الافكار الجديدة التقدمية في امارات الخليج مما يخيف الانجليز الذين يبذلون المستحيل من الجهد دون تسرب هذه « العدوى الخطيرة » الى الامارات الصغيرة الفقيرة من قطر الى عُمان ...

إذ على بريطانيا ان تحترم احتراماً كاملاً حرفياً جميع ارتباطاتها وعهودها في امارات الخليج العربي سواء كانت بترولية او غير بترولية كي لا تتعرض الى الجفاء والنقمة من الامراء الآخرين الذين تسحب ما تسحب من خيرات بلادهم . وهي بذلك تجد نفسها ملزمة بمساندة رؤساء صغار تحالف جدودهم مع التاج البريطاني ...

لقد سبق ووقع في آذار سنة ١٨٩٢ مشايخ شاطىء الهدنة المعاهدات المانعة الأبدية التي فرضت عليهم ألا يقيموا اية علاقة مع اي كان إلا مع الحكومة البريطانية أو بعد سماحها بذلك مع تكليف ممثلي الحكومة البريطانية برعاية مصالحهم الخارجية مقابل تعهد بريطانية بالدفاع عنهم ضد كل اعتداء خارجي . وجاءت اتفاقات سنتي ١٩١١ ، ١٩١٢ لتزيد من صلاحيات البريطانيين وتجعل ضمنها الامتيازات البترولية واللؤلؤية .

ونتيجة لهذه المعاهدات تدخلت بريطانية لحماية مصالح أمير أبو ظبي ضد المملكة العربية السعودية في النزاع على واحة البريمي الذي دخلت فيه سلطنة مسقط وعُمان طرفاً ثالثاً .

ذلك هو السبب الوجيه الذي أحدث الاصطدام بين النفوذين البتروليين الاميركي والبريطاني في الشرق الاوسط . انه الحصاة التي تقف عثرة في وجه كل سياسة غربية في الشرق الاوسط . فهل يتخلص العالم الغربي الرأسمالي

من خلافاته التي يُسر لها الكرملين أي سرور ؟

النزاع حول البريمي

في السادس والعشرين من تشرين الاول ١٩٥٥ اعلن السير انطوني ايدن السياسي البريطاني المحافظ خليفة تشرشل ، رئيس مجلس الوزراء البريطاني في مجلس العموم : « ان قوات شاطىء الهدنة بعد ان استنفدت جميع الوسائل التي لديها قد احتلت بقيادة ضباط بريطانيين واحة البريمي وأجلت القوات السعودية منها . » وما أن تفوه ايدن بهذه العبارة حتى ارتفعت من جانب نواب حزب العمال الاحتجاجات مستنكرة هذا التصرف الأحمق . ولكن ماذا ينفع الاحتجاج وماذا يجدي ؟!

لقد حمل الأثير الى كل انحاء العالم خبراً لم يكن له مغزى او قيمة في نظر الكثيرين . وماذا يهم اذا طرد مئتا محارب مئة آخرين من واحة ضائعة في رمال الصحراء دون ان يكلف ذلك سوى عشر طلقات لم يسقط من جرائها اي قتيل أو جريح ..؟

وبعد اذاعة النبأ تعلقت العيون في الدوائر السياسية ومكاتب تحرير الصحف بالمصورات الجغرافية تحاول تحديد موضع نقطة على المصور لم تهتد اليها إلا بعد جهد عسير ... وفهم الجميع بسرعة حتى غير المتضلعين في الشؤون السياسية الدولية ان هذه الواحة التي تلتقي عندها مسالك جنوبي شرقي شبه الجزيرة العربية المعزولة بصحراء الربع الخالي غير القابلة للاجتياز هي النقطة الوحيدة التي تحوي آبار مياه دائمة في هذه المنطقة العطشى التي يرجح وجود البترول فيها بغزارة . فهل من الغرابة ان يتنازع عليها ارباب المصالح في العالم الغربي .

ان اول منطقة مأهولة مسكونة على شاطىء الهدنة تبعد عن البريمي أكثر من مئة وعشرين كيلومتر . وبين الطرفين تمتد مساحات شاسعة كانت ولا تزال موضع نزاع لتوقع العثور على البترول فيها بكميات كبيرة .

وفي هــذا الصراع تساند الولايات المتحدة الاميركية المملكة العربيــة السعودية بينما نرى انجلترة تقف وراء امراء شاطىء الهدنة . والتنافس على الاصح هو بين شركة الارامكو من جهــة وشركة بترول العراق من جهة ثانية .

ولا ريب ان السيطرة الفعلية الواقعية من قبل احد الطرفين على واحة البريمي تضع الحد الفاصل بفعل الامر الواقع بين الامتيازات البتروليــة البريطانية والاميركية في بلاد لا حدود مرسومة واضحة لها . وفي السادس والعشرين من تشرين الاول سنة ١٩٥٥ ربحت بريطانية ومن ورائهـا شركة بترول العراق الجولة الاولى .

تتألف واحة البريمي في الواقع من مجموعة متفرقة من القرى المبنيــة من اللبن يبلغ عددها تسع مزارع تحوي الآبار الوحيدة للمياه الصالحة للشرب وقد حفظها نظام اقنية الري القديم من الاندثار . وست من هــذه القرى التسع تتبع امارة ابو ظبي والثلاث الأخرى تتبـع سلطنة مسقط وعمان حيث تدور المعارك الضارية منذ سنوات بين الثوار الوطنيين والانجليز . وتطالب المملكة العربية السعودية التي منحت هذه المنطقة للشركة العربية الاميركية للبترول بضم هذه القرى اليها مع القسم الاكبر من صحراء ابو ظبي وقسم من امارة قطر . وهي تستند في مطلبها هذا الى سيطرة سعودية على هذه المنطقة دامت من سنة ١٨١٣ حتى سنـة ١٨٦٩ . وهي لم تطالب بحقها هذا وتحرك هذا الموضوع إلا في سنة ١٩٤٩ .

ويظهر انه بعد زوال السيطرة السعودية في أواخر القرن التاسع عشر لم تخضع الواحة لأية سيطرة محددة واصبحت كالجزيرة المعزولة الهــادئة وسط بحر من الرمال ... ولمواجهة التوسع السعودي الاميركي الذي يجري وراء رائحة البترول ضمت سلطنة مسقط ثلاث قرى تسكنها قبائل خاضعة لسلطانها شكلاً اليهــا ، وللسبب نفسه ضمت امارة ابو ظبي القرى الست الأخرى اليها بناء على نصيحة انجليزية ابداها المستشار البريطاني هناك ...

وذلك لأن المطالبة السعودية المفاجئة سنة ١٩٤٩ ادهشت الانجليز واذهلتهم مع ان اول نزاع على الحدود ظهر سنة ١٩٣٥ وسوي سنة ١٩٣٧ لصالح المملكة العربية السعودية . وآنذاك لم يجد الفرقاء أصحاب العلاقـة أية ضرورة ماسة للاتفاق نهائياً على تخطيط واضح مرسوم للحـدود في تلك المنطقة الجافة الخالية من السكان الا نادراً .

وفي سنة ١٩٤٩ أثارت المطالبة السعودية الجريئة حفيظة لندن وفاحت منها رائحة البترول ولم تلبث حتى ظهرت وراءها الشركات البتروليـة الاميركية الكبرى التي تستغل آبار البترول السعودي ...

وهكذا عندما احتلت القوات السعودية مركز « حماسة » سنة ١٩٥٢ في وسط الواحة احتجت بريطانيا بقوة وعمدت الى استعمال شتى اساليب الضغط والعنف حتى انسحب السعوديون سنة ١٩٥٣ تاركين وراءهم بعض الأعوان .

وفي سنة ١٩٥٤ آلت المفاوضات السعودية البريطانية الطويلة المملة الى تشكيل لجنة دوليـة للتحكيم يرئسها القانوني البلجيـكي الكبير السيد « شارل فيشر » وعقد اول اجتماع لهذه اللجنة في مدينة نيس في فرنسا خلال شهر كانون الثاني من سنة ١٩٥٥ . ودعـا المجتمعون الطرفين الى المحافظة على الوضع الراهن في انتظار صدور التحكيم الذي تحدد موعده في شهر ايلول سنة ١٩٥٥ في جنيف .

وقد خصصت اللجنة جانباً من تقريرها لأمور التنقيب عن البترول وتعيين الحدود التي لا يمكن تجاوزها من قبل اية شركة بترولية تعمل هنا وهناك . غير ان لندن اتهمت في الشهر التالي الحكومة السعودية بدفـع الرشوات وتهريب الأسلحة الى البريمي بينا راحت الرياض تستصرخ الضمير العالمي والمنظمات الدولية لأعانة قرية « حماسة » التي انتهك الانجليز حرمتها ونكلوا بأهلها .

وافتتحت جلسات التحكيم في اليـوم الثامن من ايلول سنة ١٩٥٥

وسط جو مكفهر مكهرب . وبعد ايام قلائل استقال العضو البريطاني في اللجنة السيد ريدر بولار بعد ان اتهم المملكة العربية السعودية بالاستمرار في اعمالها غير المشروعة وتهريب الأسلحة واعداد العدّة لفرض سيطرتها على المنطقة موضع النزاع . وبعد ايام تلاه الرئيس البلجيكي بعد ان أيقن من عدم جدوى العمل في مثل هذا الجو المشحون بالتوتر والاتهامات المتبادلة ...

وعلى أثر ذلك نشرت وزارة الخارجية البريطانية بياناً تشرح فيه ملابسات القضية من وجهة نظرها هي كما تملي عليها مصالحها واتهمت حكومة الرياض بإغداق الاموال والهبات على بعض الامراء المتاخمين لها لكسبهم الى جانبها . ولم تمض ايام معدوادت على اذاعة هذا البيان البريطاني حتى اصدرت الحكومة السعودية بياناً آخر تشرح فيه وجهة نظرها بشأن مشكلة البريمي تدحض فيه الحجج والاتهامات البريطانية ...

لقد فشلت بسبب ذلك محاولات التحكيم كلها لأن الفريقين المتنازعين لم يتقيدا بالشروط التي يفرضها التحكيم . ويقول الانجليز بهذا الصدد ان الحيلة والقوة بالنسبة للمملكة العربية السعودية لا تقلاّن شرعية عن التفسير القانوني . ويروْن ان اخصامهم لن يتقبلوا حكماً لغير صالحهم .. وتدّعي لندن بالاضافة الى ذلك ان احتلالها لواحة البريمي لا يستهدف إلا اعادة الاوضاع الشرعية الى ما كانت عليه قبل الاحتلال السعودي سنة ١٩٥٢ الذي حدث فيه خرق فاضح غير مقبول للمادة السادسة من اتفاقية جدّة الموقعة سنة ١٩٢٧ من قبل المملكة العربية السعودية والمملكة البريطانية المتحدة . وقد بلغ الغضب السعودي ذروته عندما طردت بريطانيا بعد اسابيع من ذلك التاريخ إمام عُمان الحارثي من امارته لتدعمَ سلطان مسقط خادمها الامين مما حمل انصار الامام الشرعي الى اعلان الثورة ضد سلطان مسقط والانجليز والاعتصام في رؤوس الجبال .

ومع ذلك وبعد مضي عدة اشهر على التصلب من الطرفين كادت

واشنطن بما لجأت اليه من ضغط على الفريقين ان تدخل فريقـاً ثالثاً في النزاع . ولكن الحملة البريطانيـة — الفرنسية على بور سعيد في تشرين الثاني سنة ١٩٥٦ عقب تأميم قنـاة السويس ، دفعت المملكة السعودية الى قطع علاقاتهـا الدبلوماسية مـــع بريطانية ولا تزال حتى اليوم مقطوعة ...

وفي صيف سنة ١٩٥٧ عندما ثار إمـام عُمان على الانجليز وعميلهم سلطان مسقط في الجبل الأخضر كانت المملكة السعودية قد اعدّت لأخذ الثأر وضرب الانجليز فموّلت الثورة وسلّحتها وأعدّت لها المقاتلين .

والملك سعود على الرغم من كل ما حدث لم يتوان في هذا الصـدد عن متابعة العمل السياسي المشروع . وفي السادس من كانون الثـاني سنة ١٩٥٩ اعلن للسيد همرشولد الأمين العام للأمم المتحدة عن رغبتـه في رفـع قضية البريمي الى الجمعية العامة التابعـة لهيئة الأمم المتحدة . وفي انتظار دورة هذه الجمعية يستمر الملك سعود في مؤازرة ثورة عُمان لاقلاق راحة البريطانيين في هذ البقعة الحساسة من الخليج .

١٤

بوّاب الخليج الغامض

من يستطيع ان يشك في ان كل شيء
يؤول الى نهاية حسنة اذا توفر الثبات؟؟
(ونستون تشرشل)

في عُمان على الطرف الجنوبي الشرقي من شبه جزيرة العرب تدور رحى معركة غامضة . والله وحده يعلم تفاصيلها ونتائجها !...

ما زال هذا البلد الذي تعادل مساحته تقريباً مساحة الجزائر والذي تجري عند حدوده آخر معركة من معارك البترول في الشرق الاوسط ما زال ترتسم أمامه كثير من علامات التساؤل والاستفهام ... هذا مع العلم بأن المهزلة او المأساة التي تجري ليس لها مبرر لأنه حتى الآن لم تكتشف في عُمان اية بئر للبترول قابلة للاستثمار التجاري الرابح ... ومن سخرية القدر ان هذا البلد الذي يحرس مدخل الخليج وتمرّ امامه مليارات البراميل من البترول لا يملك لنفسه برميلاً واحداً من هذا السائل الثمين ...

عندما يأتي المساء ويُرخي الليل سدوله كل يوم ، بعد ان ترتفع نجمة الجنوب وضاءة لمّاعة اثر غياب الشفق الوردي ، يصعد رجل قصير القامة الى سطح قصره العابس لتنشق نسيم البحر .. انه سلطان مسقط سعيد

ابن تيمور . هناك على سطح قصره بقفطانـــه الحريري الهندي الثمين وعمامته البيضاء في سكون الليل الهادىء الحزين الكئيب يراقب بضجر وتبرم الانوار المنبعثة ليلاً من ناقلات البترول المتتابعة على ابعاد متقاربة وفي بعض الأمسيات يتمكن بنظره الحاد من تمييز انوار عشر او اثنتي عشرة ناقلة يختلط لمعانها بلمعان النجوم المسمرة في الافق الاستوائي الحار الرطب ... وهناك على ظهر الناقلة قبالة المضيق يسجل ربان البـــاخرة على المصور الموضوع امامه في غرفته بدون اكتراث : ممر مسقط .

كان المعدل اليومي لمرور ناقلات البترول في مضيق مسقط خـــلال سنة ١٩٥٨ سبعاً واربعين ناقلة كل يوم اي بمعدل واحدة كل نصف ساعة وهذه الناقلات فارغة كانت ام محملة حتى الحافة ، ذاهبة الى اوروبة او الشرق الاقصى أم آتية الى الخليج لتعبئة جوفها النهم ، تجوب بتثـاقل دون كلل او ملل بحر عمان كأنها ثيران تحرث حقلاً للزراعة . أو كأنها راقصات ترقص رقصة صاخبة مشوهة تدور بدون توقف امـام ناظري السلطان المهموم ... وحركتها الدائمة حول شبه الجزيرة العربيـة تجعلها تقطع في كل مرة مسافة تناهز ستماية كيلومتر امام شواطىء السلطنة العجيبة المشـدودة كالوتر على طرف القارة العربية قبل ان تنساب بين الصخور القائمة عند الخليج العربي .

دولة عجيبة غريبة

من محمية عدن البريطانية حتى شاطىء الهدنة تمتد السواحل التي لا نهاية لها لسلطنة مسقط وعُمان . وتتلاشى سيادتها فجأة عنـــد الخليج العربي لصالح بعض الأمراء في عُمان الهدنة لتبرز من جديد عند رأس «ماسندام» امام مضيق هرمز . وهذا المركز الفريد الستراتيجي يتيح لسلطان مسقط ان يسهر على التزاوج الدائم بـــين مياه الخليج الفيروزية الخضراء ومياه المحيط الهندي الزرقاء الذي يسمى هنا بحر عُمان ...

عند الطرف الغربي لهذا القوس الواسع المحصور بين الصحراء والبحر تقوم مقاطعة ظفار المجاورة لسلطنة لشن التابعة لمحمية عدن والتي كانت جزءاً من البلدان المشتهرة بالبخور في الوقت الذي كانت فيه هذه التجارة تدر ارباحاً طائلة . وهي اليوم ارض فقيرة معزولة عن القارة وعن باقي اجزاء الامـــارة في الصحراء حيث السكان من الحضر يجمعون بالوسائل التقليدية ذاتها حبوب البخور عن الاشجار النابتة هناك ...

وعند الطرف الآخر لعبت الواجهــة التي تطل على بحر عمــان دوراً بارزاً من تاريخ الخليج العربي بفضل موقعها الستراتيجي اذ تمتد على اكثر من خمسماية كيـــلو متر من رأس الحد حتى رأس ماسندام . وتستنــد هذه المنطقة الساحلية الضيقة الى كتلة جبلية مرتفعة تسمى الجبـــل الأخضر الذي يرتفــع الى اكثر من ثلاثة آلاف متر عن سطح البحر . والثلث الاسفـــل من السهل الساحـــلي صحراوي بيـــنما القسم الشمالي منه وهو سهل خصب تزدهر فيـــه زراعة النخيل يُسمى « بطين » . وكذلك السفوح والمنحدرات التابعة للجبل الأخضر خصبة لأن الغيوم تتجمع عند قممه العالية لتتساقط امطاراً على سفوحه . . ووراء الجبـــل تأخذ الهضبة في الانحدار حتى تذوب وتختفي في رمال الصحراء المدعوة بالربع الخالي التي لم تطأها قدم ..

ان الكيان السياسي لسلطنة مسقط وعُمان غير محدد رسميـاً . وهو مطاط حسب الظروف السياسية . ويقود القوات المسلحة في هذه السلطنة ضباط بريطانيون ووزير خارجيتها موظف منتدب من وزارة المستعمرات البريطانية ؛ والقنصل البريطاني التابع لسلطة المقيم البريطاني العـــام في البحرين لا يقل شأناً ونفوذاً عن غيره من ممثلي حكومة صاحبة الجـــلالة في سائر امارات الخليج العربي . وتستند جميع هذه الاحتياطات التي تتخذها بريطانية للمحافظة على الاستقلال الشكلي في سلطنة وعمان ، قانوناً الى البيان الانجليزي الفرنسي الصادر سنة ١٨٦٢ الذي أعلن فيه

استقلال هذه السلطنة واحترام سيادتها . وعندما حاولت بريطانيا عام ١٨٩١ ان تحول سلطنة مسقط وعُمان الى محمية بريطانية تسلحت فرنسا ببيان سنة ١٨٦٢ لتتدخل هناك تدخلاً غير مرغوب فيه من جانب الانجليز. وفضّل الانجليز على ذلك عقد اتفاق مع الفرنسيين في آذار سنة ١٨٦١ سُمي «معاهدة الصداقة والابحار والتجارة» ضمّ كل البنود المانعة التي تشير اليها الاتفاقات الاخرى التي عُقدت مع امارات الخليج . ومنذ ذلك الحين وبريطانيا تحرص على المحافظة على المظاهر. ولكن يمكننا القول ان هذا الاستقلال الموهوم ما هو الا ظاهرة من ظواهر التنافس الانجليزي الفرنسي في الخليج العربي .

وتسمية السلطنة نفسها يعوزها الوضوح والدقة فهي تجمع اسم عاصمة ساحلية صغيرة وبين منطقة جغرافية واسعة لا تصل اليها كلها سيادة هذه الدولة . ولتعقيد الامور اكثر من ذلك ، هناك فئة من القبائل تعيش في الداخل دون ان تعترف بسلطةِ سلطان مسقط عليها . هذا وقد جعل عدم وضوح الحدود الدولية لهذه السلطنة تقرير مساحتها ضرباً من المستحيل فهناك من يقول بأنها مائتا الف كيلو متر . وهناك جغرافيون آخرون يرفعونها الى ثلاثماية وخمسين الف كيلو متر .

ومهما يكن من امر فانه من المتعذر جداً لتشابه الأراضي والأقاليم واختلاف الامراء والمشايخ وتنافس الدول الكبرى في هذه المنطقة الستراتيجية ان تُرسم بوضوح حدود الدول والامارات والمشيخات .

الاقتصاد التقليدي

لهذه الاقسام المتناثرة غير المتلاحمة قاسمٌ مشترك واحد هو سيادةُ مسقط المرفأ الطبيعي الوحيد على طول الشاطىء . ومسقط ومطره المدينتان التوأمان معروفتان بانها اشدّ بلدان تلك المنطقة حرارة . وقد روى احد المسافرين الفرس الذين مروا من هناك في القرن الخامس عشر

بأن الحرارة تصل الى درجة من الارتفاع تصبح معها قادرة على طبخ النخاع الشوكي داخل العظام واذابة السيف في غمده كالشمع وتحويل الجواهر التي ترصع الخنجر الى فحم . وهناك ايضاً في السهل موسم هام هو موسم الصيد الذي يقوم به الاهلون بسهولة لأن الصحراء في هذه البقعة تكون قد امتلأت بالغزلان المشوية دون ان يقتلها أحد ..

وهذا الوصف المخيف لم يثن البرتغاليين والفرس والانجليز من بعدهم عن عزمهم على احتلال البلاد . وعلى الرغم من ان المناخ في المرتفعات وفي الجبل الأخضر اكثر رحمة فقلائل جداً منهم الذين ذهبوا الى تلك المناطق . وسكان الجبل الأخضر يتراوح عددهم بين اربعماية الف وخمسماية الف نسمة . وهم من المسلمين العبيديين الثائرين على كل المذاهب الاخرى . وهؤلاء الفلاحون الحضريون يعيشون عيشة قبلية في حلقة مقفلة ويتعاطون الزراعة في اراضٍ مروية متراصة في الأودية الضيقه في منجاة من التبخر الكثيف .

وفي السهل الساحلي في بطينا يعطي النخيل تشكيلة بديعة من الثمر وفي ظل النخيل تنبت اشجار الحمضيات والاثمار وتزرع الخضر بفن رائع . وقد ادخل البرتغاليون اثر احتلالهم لتلك المنطقة في القرن السادس عشر شجرة الكرمة . ومنذ ذلك الوقت ذاع صيت عنب مسقط اللذيذ .

وقد ترك السكان في مسقط كما فعل سائر ابناء الخليج مهنة القرصنة واخلدوا الى العمل الهادىء وتعاطوا مهنة الصيد والتجارة البحرية بين شط العرب والمحيط الهندي والبحر والأحمر . ولكنهم لا يتوانون عندما تسنح الفرصة عن امتهان التهريب ، تهريب المسافرين والمواد الممنوعة والأسلحة هازئين برقابة البحرية البريطانية ، لأن كل مركب من مراكبهم فيه مكان سرية لمثل هذه الامور . وكيف تستطيع البحرية البريطانية مراقبة هذه المراكب مراقبة دقيقة وهي بأشرعتها البيضاء تتهادى بالمئات على صفحة المياه وتنساب بين الصخور الأمر الذي يتعذر على المراكب

البريطانية الكبيرة .

والصيد الذي يزاولونه في كل فصل يُصبح شديد الربح في فصل الشتاء عندما تبرد مياه المحيط الهندي مما يحملُ السمك على الهرب منه الى المياه الدافئة في شواطىء الخليج . في ذلك الفصل يصطاد العمانيون كمياتٍ وافرة من السردين ويملّحونها ثم يعبّئونها في علب معدةٍ للتصدير الى الهند او الصين او الى الداخل . وزعانف القرش المجفف المرغوبة جداً في الصين تُحَضّر على هذه الشواطىء حيث يكثر سمك القرش . وهكذا فان مسقط وسائر مرافىء الشاطىء تفوح منها نفس الرائحة السمكية القوية التي تفوح من البحرين ودبي .

وتأخذ اهم المنتوجات الزراعية والبحرية في السلطنة وخاصة الأسماك والأثمار طريقَها التقليدي الى الهند وافريقية الشرقية على مراكب مسقطية لتستبدل بالأرز والقطن وسائر الحبوب . وهذه التجارة الناشطة لم تتغير منذ الوقت الذي استطاع فيه المسقطيون زحزحة البرتغاليين من افريقيا الشرقية ليؤسسوا فرعاً لسلطنتهم في زنجبار . وعدد كبير جداً من المراكب الشراعية التي تجوب مياه الخليج يرفع العلم الأحمر الذي يحمل كتابة بيضاء اشارة الى سلطان مسقط وعُمان . وتعملُ هذه المراكب بسلامٍ في المرافىء المجاورة التي كانت في الماضي يعتريها الرعب والوجل لرؤية مثل هذه المراكب المسقطية .

حفريات جافة

ليس هناك في العالم بلدان كثيرة كسلطنة عُمان محرّمة على الاجنبي وحتى الحرب العالمية الثانية التي رأت القواعد العسكرية الجوية الحليفة تقام في « صلالة » وجزيرة « مزراح » لم تُحاول ان تقطع على الجبال المرتفعة المتراصة عزلتها . وسلطان مسقط نفسه الذي يدّعي السيادة على هذه الديار لم تطأها رجله إلا في سنة ١٩٥٥ يوم قام بجولة في انحاء

سلطنته ليتلقّى فروض الولاء من سائر القبائـــل المنتشرة في السلطنة الواسعة .

وعلى الرغم من ذلك فان المنقّبين الجيولوجيين عن البترول لم يتلكأوا عن اقتحام ُعمـــان ومسقط . وفي سبيل ذلك قام السلطان يؤازره الانجليز بانقلاب أطاح بسلطان ُعمان شبه المستقل في نزوة بعد ان ألصقوا به تهمة التآمر على سلطنة مسقط مـع المملكة العربية السعودية وأعدوا حركة انفصالية عن مسقط .

وما ان نجح الانقلاب واضطر سلطان ُعمان الى الالتجاء الى الجبال حتى بدأت عمليات التنقيب بسرعة . وأُقيم جسرٌ جوي لنقل المعدات اللازمة الى « فهود » بينما بوشر بشق طريق هنـــاك ؛ غير ان الحفريات التي أُجريت لم تعط نتيجة ايجابية ولم يتدفق البترول مع ان الآمـــال في العثور عليه في فهود كانت كبيرة . وما زال التنقيب مستمراً هناك . ولكن الاندفاع فيه قد خفّت حرارته بسبب الصعوبات المادية والفشل الأولي . وُمنح امتياز التنقيب في هذه المنطقة الى شركة تطوير البترول في عمان المنبثقة عن شركة بترول العراق بينما ُمنح امتياز التنقيب في ظفار منذ سنة ١٩٥٣ الى شركة سيتي سرفيس الاميركية . والبشائر التي حملتها التنقيبات عام ١٩٥٧ لم ُتعط ثمارها التجارية بعد حتى الآن . وفي كلتا الحالتين اتاح التنقيب عن البترول الى الاجانب دخول مناطق جديدة دون ان يكون لهذا الدخول النتائج المتوخاة .

واما سلطان مسقط فقـد عيل صبره وأصبح سريـع الغضب لرؤية السنين ُتنهك قواه قبل ان ينعم بالثروة . لقد كان السلطان سعيد بن تيمور يأمل في ان يساعده البترول على تجديد شباب سلطنته التي انهكها الفقر . غير ان الحياة تمر والبترول لم يعثر عليه بعد ؛ والسلطان الصامت المنهمك في تطوير بلاده يقلب مشروعاته التي خطها على دفاتر صغيرة ثم يدسها في جيوبه الكبيرة ملزماً بأن يقنع بعائدات زهيدة يأتي اكثرهـا

من مكوس الجمرك والايجارات السنوية للامتيازات والقواعد العسكرية الجوية غير ان السلطان المتصلب العنيد ما زال يمّني النفس بالثروة والبلاد بالازدهار عندما يتدفق البترول من جوف اراضيه .

امبراطورية متداعية

حتى احتلال مسقط من قبل « البوكيرك » سنة ١٥٠٨ بقيت عمان مجهولة تقريباً . وتأريخها الغامض يحمل ذكرى الاحتلال الفارسي غير المؤكد ثم التوسع الاسلامي . وبسبب النزعة الاستقلالية عند العُمانيين سرعان ما اختلفوا مع الخليفة واعتنقوا المذهب الخارجي العبيدي . الامر الذي أتاح لهم ان ينتخبوا لأنفسهم الإمام الذي يريدونه . وبعد ذلك فشلت كل المحاولات التي قام بها الخلفاء والمتعاقبون لإذلال هؤلاء الخوارج المتمردين المتحصنين في معاقلهم الجبلية كما فشلت محاولات الفرس في إلحاق هذه المنطقة ببلاد فارس . وعندما جاء البرتغاليون انكفأ هؤلاء عند مسقط ولم يحاولوا استفزاز العمانيين وسار الانجليز على هذا النهج ولم يحيدوا عنه الا عندما حلموا بالعثور على البترول في اراضي عُمان الداخلية ..

وحوالى سنة ١٦٥٠ ثار العمانيون وانقضوا من معاقلهم الجبلية على البرتغاليين ينتزعون منهم مستعمراتهم في افريقيا الشرقية . وبعد احتلال فارسي لم يدم سوى سنتين من سنة ١٧٤١ الى سنة ١٧٤٣ استطاعت العائلة المالكة الحالية التي قدمت من الداخل ان تؤسس سلطنة مسقط. ثم جاء السلطان سعيد فاحتلّ الساحل كله واجتاز البحر ليحتل جزر كشم وهرمز باسطاً سلطانه على طرفي مضيق هرمز الشهير . وهناك التقى به المبعوثون البريطانيون الذين قدموا الى تلك المنطقة ومهمتهم عرقلة تنفيذ المخططات النابوليونية التوسعية نحو الشرق ..

وفي سنة ١٧٩٧ نجح البريطانيون في عقد معاهدة صداقة مع سلطان

مسقط حوّلوها سنة ١٧٩٨ الى معاهدة موجهة ضد فرنسة بصورة خاصة. وفي سنة ١٨٠٠ سمح لأول ممثل سياسي لبريطانيا ان يقيم في مسقط. وهكذا عندما نزلت البعثة الفرنسية بقيـــادة « كافينياك » على ساحل عمان في ايلول سنة ١٨٠٣ لم تنل سوى أسف سلطان مسقط. وكان ذلك بداية عهد من التنافس الانجليزي — الفرنسي دام قرناً كاملاً من الزمن ؛ ولم تخبُ ناره إلا بعد توقيع المحالفة الأخوية التي أقرّت بسيادة بريطانية على الخليج العربي في فجر القرن العشرين ...

وفي ظل حكم السلطان سعيد بن سلطان الذي دام من سنة ١٨٠٤ الى سنة ١٨٦٥ بلغت امبراطورية مسقط البحرية ذروة عزها وأوج مجدها. فقد كانت المراكب العمانية ذات الاعلام الحمراء تربط باستمرار بين الموانىء العربية والممتلكات الافريقية. وكانت التجارة الخارجية عملية رابحة كما كانت الصداقة البريطانية عملاً مفيداً لا سيا ضد الوهابيين في داخل شبه الجزيرة ، الذين كانوا في حركة دائمة للتوسع.

وقد تحالف سلطان مسقط على الرغم من ميـــله الى فرنسا في بدء عهده مع بريطانيا حتى قبل معركة واترلو كأنه كان يستبق الحوادث ويعلم بهزيمة نابوليون ، ليبقى فيما بعد الحليف الدائم للامبراطورية البريطانية ، وفي سنة ١٨٣٢ بدأ نجم مسقط في الأفول فقرر السلطان نقل عاصمة مملكته الى زنجبار. وبعد موته قسمت السلطنة سنة ١٨٥٦ الى قسمين بين ولديه قسم عربي في قارة آسية وقسم افريقي. وظلت بريطانيا الصديقة الحامية في كلا القسمين.

وقد جذب مركز مسقط الستراتيجي على مدخل الخليج العربي انظار الساسة في مختلف الدول الكبرى فكثرت البعثات السياسية والوفود الى بلاط السلطان. ولكنها جميعها دون استثناء كانت تصطدم بالعقبـــات والعراقيل التي تزرعها في الطريق البعثة البريطانية الدائمة. وهكـذا لم يكن لاتفاق الصداقة الذي وقع مع الولايات المتحدة الاميركية سنة ١٨٣٣

اية نتيجة او اثر في الحقل الدولي . وكذلك كانت الخطة مع فرنسا ولكن هذه الدولة لم تتراجع عن مسقط كما يثبت ذلك الاتفاق الذي وقع سنة ١٨٤١ ثم معاهدة الصداقة التي عُقدت سنة ١٨٤٤ مما حمل بريطانيا على ان توافق عليها صاغرة . وكانت هذه المعاهدة الفرنسية العثمانية فاتحة مرحلة جديدة من مراحل التنافس الانجليزي الفرنسي استمرت حتى نهاية القرن التاسع عشر .

التنافس الانجليزي الفرنسي

على اثر موت سعيد بن سلطان الكبير وجد الانجليز ان الامتيازات الممنوحة للفرنسيين بموجب الاتفاقيات المعقودة تهدد المصالح البريطانية في الصميم ، وان الفرنسيين الديموقراطيين الخطرين يدسون انوفهم فيما هو من شأن بريطانيا وحدها . ووضعت سياسة شاملة جديدة تقضي خطوطها العريضة على ان تتعهد كل من فرنسا وبريطانيا باحترام استقلال مسقط وزنجبار . وقد أكدت هذه السياسة الجديدة في الاعلان الذي اصدرته من الحكومتين البريطانية والفرنسية سنة ١٨٦٢ بهذا الشأن .

وفي سنه ١٨٩٣ اظهرت الحكومة الفرنسية مع ذلك اهتماماً جديداً بمسقط . وعينت لها نائب قنصل هناك . ثم رفعته الى قنصل سنة ١٨٩٨ وحتى سنة ١٩٢٠ بقيت لفرنسة قنصلية في مسقط ... وفي هذه الفترة من المغامرات عاش التنافس الانجليزي الفرنسي مهزلته المشهورة . ولإزعاج الانجليز الذين اعلنوا حرباً لا هوادة فيها على البحارة الذين يتاجرون سراً بالاسلحة والرقيق عمدت القنصلية الفرنسية الى توزيع العلم الفرنسي على المراكب العربية العاملة في ميدان التهريب ، الأمر الذي انقذها من البحرية البريطانية وجعلها في منجاة من رقابة الاسطول الانجليزي وتفتيشه ...

وعلى الرغم من جميع الاحتجاجات الرسمية التي قدمتها وزارة الخارجية

في لندن الى حكومة باريس وشجب هذه الاخيرة لمثل هـذه الاعمال استمر القناصل الفرنسيون في اتباعها لخلق جو من الاضطراب والقلق في وجه البريطانيين الذين كانوا يبذلون المستحيل من الجهد لتطهير البحار ...

عندئذ لجأت حكومة لندن الى خطة جديدة فوجهت انذاراً شديد اللهجة الى سلطان مسقط سنة ١٨٩٩ طالبـة منه ان يأمر اتباعه بعدم رفع العلم الفرنسي . وعلى الاثر استدعى السلطان قنصل فرنسة وأمره بالكف عن مثل هذه الاعمال . ولكن ذلك الأمر لم يكن له اية نتيجة عملية كالمحادثات التي أُجريت في لندن للغرض نفسه بين فرنسا وانجلترا . ودام الحال على هذا المنوال حتى سنة ١٩٠٣ وفيها بلغت الازمة ذروتها اذ احتجز سلطان مسقط بناء على اشارة من بريطانيا مراكب عمانيـة ترفع العلم الفرنسي . ولما لم تثمر تهديدات قنصل فرنسة وصلت مدرعة فرنسية الى مياه مسقط فإذا بها تجد امامها هناك البوارج البريطانية . وكان الموقف حرجاً جداً يهدد باصطدام مسلح خطير ...

عندئذ انتقل مركز الثقل في المفاوضات الى لندن حيث تقرر بهدوء رفع الامر الى هيئة تحكيم دولية في لاهـاي . وفي انتظار صدور قرار التحكيم أفرج سلطان مسقط اي البريطانيون عن المحتجزين الفرنسيين اي العمانيين . وما ذلك إلا بسبب التقارب والتفاهم الذي تم بين الدولتين الاوروبيتين الكبيرتين اللتين اتفقتا تقريباً على تسوية المشكلات المعقـدة بينهما لمواجهة الخطر الالماني الذي بدأ بالتعاظم والنمو آنذاك ...

وكما كان منتظراً جاء قرار هيئة التحكيم الدوليـة في لاهاي سنة ١٩٠٥ يدين القناصل الفرنسيين لتصرفاتهم غير المشروعـة على الرغم من جميع المداورات اللغوية التي حاولت لجنـة التحكيم التستر وراءها ... وأظهر البريطانيون على الاثر حنكتهم السياسية وبراعتهم الدبلوماسيـة التي اشتهروا بها ومكنتهم من كسب الاصدقاء فأعلنوا عن سماحهم للمراكب العمانية العربية في الاستمرار في رفع العلم الفرنسي ان ارادت حتى اشعار

آخر ... وهكذا انتهت هذه المرحلة الدقيقة من التنافس الانجليزي الفرنسي لتبدأ بفضل « المحالفة الاخوية » بين الدولتين الاوروبيتين مرحلة جديدة من التعاون الوثيق على الصعيد الدولي .

الثورة في عُمان

بقيت معاهدة الصداقة الفرنسية العُمانية نافذة المفعول تلقائياً . غير ان القنصلية الفرنسية اختفت سنة ١٩٢٠ من مسقط في اعقاب الحرب العالمية الاولى اثر تسوية الامور المتعلقة بتقسيم الامبراطورية العثمانية . وهكذا اصبح لبريطانيا المركز الاول ليس في مسقط وحدها بل في امارات الخليج العربي كلها . وفي سنة ١٩٢٣ ارسل سلطان مسقط مذكرة الى الحكومة البريطانية يعدها فيها بأنه يحصر فيها وحدها حق التنقيب عن البترول في بلاده ، هذا الامتياز الذي ستستفيد منه فرنسا بصورة آلية بوصفها عضواً في شركة بترول العراق التي تديرها بريطانيا عن طريق شركة البترول البريطانية التابعة للاميرالية البحرية ...

وتقوم العلاقات الانجليزية العمانية على اسس « معاهدة الصداقة والتجارة والابحار » الاخيرة المعقودة في العشرين من كانون الاول سنة ١٩٥١ بين السلطان سعيد بن تيمور سلطان مسقط وعمان وبين المقيم البريطاني العام في الخليج العربي ممثلاً ملكة انجلترا . ومع ان هذه المعاهدة كسابقاتها قد ُقصد منها المحافظة على المظاهر فقط فان بريطانية في هذه المرة احتفظت بامتيازاتها في رسائل متبادلة ملحقة بالمعاهدة الاساسية . ويمكننا القول اذن انه اذا أُبقي حق سلطنة مسقط وُعمان في الاستقلال مصاناً من الناحية الدولية فان الواقع قد جعل من هذه السلطنة محمية كغيرها من امارات الخليج العربي .

وفي نطاق هذه المعاهدة الفعلية تدخلت بريطانيا الى جانب سلطان مسقط في نزاعه مع المملكة العربية السعودية على واحة البريمي . وبعدها ،

استناداً الى ذلك، لعبت القوات الجوية البريطانية الملكية الدور الرئيسي في محاولة القضاء على الثورة التي اندلعت في عُمان ضد سلطان مسقط وعُمان. وقد انفجرت هذه الثورة في تموز ـ آب ١٩٥٧ لتظهر التركيب المعقد لهذه السلطنة العجيبة. والمعارك الدائرة هناك تدل على درجة ضعف مركز سلطان مسقط وهزال سيطرته على عُمان مع كل ما تقوم به بريطانيا من جهود لتدعيم مركزه المتزعزع...

حتى سنة ١٩٥٥ كانت سيادة سلطان مسقط لا تتعدى المنطقة الساحلية وكان داخل عُمان يخضع لسلطة امام نزوة العبيدي الخاضع إسماً لسلطان مسقط الذي يسيطر على طرق مواصلاته البحرية الحيوية... وكانت هذه العلاقة قائمة بناء على «معاهدة السيب» الموقعة سنة ١٩٢٠ التي وضعت حداً للانشقاق الداخلي المستمر بسبب استخدام القوات الانجليزية الهندية. وأُعترف رسمياً باستقلال امامة عمان الداخلي سنة ١٩٢٨ من قبل حكومة الهند المسؤولة عن منطقة الخليج بحكم الجوار...

ولما حل السلطان سعيد بن تيمور مكان والده سنة ١٩٣٢ لم يهتم كثيراً بفرض سلطنته على عمان العنيدة واكتفى بالروابط الاسمية التي تقيد امام عُمان به. ولكن بعد موت الامام الشيخ وتنصيب الامام غالب مكانه سنة ١٩٥٤ أصغى هذا الأخير الى نصائح المملكة العربية السعودية ومغرياتها وتشجيع الدول العربية المتحررة فأعلن انفصاله عن سلطان مسقط التابع لبريطانيا والمعادي لتيار القومية العربية التقدمية. وجاءت هذه المحاولة في وقتها لتبرر استخدام القوة التي لجأت اليها بريطانيا لتوسيع نطاق منطقة التنقيب عن البترول في الداخل...

وفي الخامس عشر من كانون الاول ١٩٥٥ عند الفجر أفاق الامام في عاصمته نزوة ليجد بلدته محاصرة بقوات سلطان مسقط بقيادة ضباط بريطانيين على رأسهم الكولونيل واترفيلد. وقبل ان يتمالك الامام غالب روعه كان قد أقيل عن عرشه بدون معركة وسمح له بأن يعود الى

مسقط رأسه . اما اخوه طالب فقد لجأ الى المملكة العربية السعودية .
وسلطان مسقط الذي كان ينتظر على أحرّ من الجمر انباء التدخل المسلح ترك « ظفار » ليجتاز لأول مرة في حياته مناطق داخلية لم تكتحل برؤيتها عيناه من قبل ؛ ويتقبل لأول مرة ولاء القبائل الخائفة . وعلى الرغم من حشد القوى الكثيفة والاسلحة والاعتدة الوفيرة التي قدمها حلفاؤه البريطانيون تحاشى سعيد بن تيمور ان يتوغل في الجبال ، معاقل العمانيين ، واكتفى بزيارة خاطفة للعاصمة نزوة بحماية القوات البريطانية ليعود بعدها مسرعاً الى مقره في الساحل ... وفي طريق عودته التقى سلطان مسقط في واحة البريمي شيخ ابو ظبي زميله في محالفة الانجليز ووقع معه اتفاقاً باقتسام السيادة على الواحة موضع النزاع مع المملكة العربية السعودية . وفي الطريق ايضاً نزل السلطان ضيفاً على منقبي البترول الاميركيين من شركة سيتي سرفيس في ظفار ، والمنقبين الانجليز في الأماكن الاخرى . وفي كل مكان كان السلطان يسجل ملحوظاته على دفاتره الصغيرة التي اعتاد ان يدسها دائماً في جيوبه ، وعاد الى قصره العابس ورأسه مملوء بالأحلام والمشروعات التي بقيت سراً بينه وبين نفسه ...

وفي الرياض بعد هذه الاحداث التي وقعت في نزوة والبريمي ارغى الملك سعود وأزبد اذ انه بعد مضي سبع اسابيع على احتلال البريمي فقط عمد الانجليز الى القضاء على الامام غالب وهو آخر حليف له في المنطقة . وانصرفت المملكة السعودية على الأثر تستعد للأخذ بالثأر بالتعاون مع طالب شقيق الامام . وفي تموز سنة ١٩٥٨ عاد طالب على رأس بضع مئات من الانصار الذين تم تدريبهم في البلاد السعودية ليشعل نار الثورة على سلطان مسقط واسياده الانجليز في عُمان . فطار صواب البريطانيين لهذا التحدي وتحركت جيوشهم البرية والجوية من قواعدها في عدن والشارقة والبحرين وطلبت النجدات من ايكوسيا حيث تُدرّب القوات المختصة بحرب الجبال... واشتركت قوات مسقط وساحل الهدنة

كلها مع القوات البريطانية في محاولة القضاء بسرعة على ثورة عُمان . غير ان الثوار تمركزوا في المعاقل الجبلية واستمروا في مقاومة الانجليز الذين ادعوا في بلاغاتهم العسكرية بأنهم قضوا على الثورة العُمانيـة في الوقت الذي تتوالى فيه التقارير من مكتب امامة عمان في القـاهرة عن سير الاعمال العسكرية ناقلة الى العالم اجمع انباء الثورة العربية في عُمان . كما ان هناك مساعٍ لادراج القضية في جدول اعمال الجمعية العامة لهيئة الامم المتحدة بغية كسب الرأي العام العالمي الى جانب العُمانيين في ثورتهم على الانجليز وصنيعتهم السلطان سعيد بن تيمور سلطان مسقط .

التصلب البريطاني

لا يسيطر سلطان مسقط على القسم الداخلي الجبلي مـــن سلطنته إلا بمؤازرة القوات العسكرية البريطانية لا سيما الجوية منها . وهـو يحتفظ بمركزه الستراتيجي المتقدم في واحة البريمي ويشرف على مدخـل الخليج العربي عند مضيق هرمز حيث يمكنه ان يحصي بلهفة الناقلات البترولـية الغادية والرائحة على صفحة الخليج ليلاً نهاراً بمساندة الضباط الانجلــيز الذين يحرسون سلطنته المتداعية . وفي هذه المنطقة البتروليـــة التي لا حدود لها ليس هناك مجال للاختيار امام بريطانيا اذ انها مضطرةللدفاع عن المصالح المشتركة بين شركاتها البترولية وبين الامراء الاصدقـاء المتلائمة مع بنود الاتفاقات المعقودة بين هؤلاء الامراء وانجلتره . وهي في الوقت ذاتـه تضع نفسها في موقف حرج تزداد حراجته مع الامام لمساندتهـــا انظمة اصبحت غير منسجمة مع العصر ومتطلباته . ومن اجـل المحافظة على بترول الخليج الذي لا يستغنى عنه ، والعائدات القيمة التي يدرها ، لا تتورع بريطانيا عن التدخل والسلاح في يدها للوقوف الى جانب من استظلوا حمايتها اية كانت الاسباب ، عادلة كانت ام غير عادلة...مشروعة كانت ام باطلة ...

والورقة الثمينة التي تحتفظ بها بريطانيا في يدها انما تكمن في تصلبها وعنادها واصرارها على ان تبقى بأي ثمن الدولة المسيطرة في الخليج العربي اطول مدة ممكنة لاستثمار خيراته الكامنة في جوفه . وأجوبة السير برنار بورّو المقيم البريطاني العام في الخليج العربي على اسئلة المؤلف التي وجهها اليه لدى زيارته له لا تختلف مطلقاً في شيء عما كان يقوله اسلافه هناك خاصة ما جاء على لسان اللورد كيرزون عندما خاطب سكان الخليج في فجر هذا العصر بقوله : « يتساءل البعض لماذا تستمر بريطانيا في استخدام نفوذها وسلطانها في الخليج العربي ؟ ان تأريخ امارات هذ الخليج والأسر الحاكمة فيها واوضاع الخليج الحاضرة هي الجواب على ذلك السؤال . لقد كنا هنا قبل ان تطل اية دولة أخرى برأسها في العصور الحديثة لتضع رجلها في هذه الديار ... لقد دخلنا المعارك وفرضنا النظام وكانت تجارتنا كسلامتكم في حاجة الى حماية ... وفي كل مرفأ على هذه الشواطىء كان الرعايا الانجليز يقيمون ويتاجرون ... وبفضل وجودنا حفظنا لهذه الامارات استقلالها وحلنا دون ذوبانها في الدول المجاورة . وقد فتحنا هذه البحار لجميع الشعوب وسمحنا للسفن والمراكب كلها اياً كان العلم الذي ترفعه ان تبحر بسلام واطمئنان . ولم نحاول يوماً ان ننتزع منكم بلادكم ولا ان نضمها الى ممتلكاتنا . ولم نحاول القضاء على استقلالكم بل على العكس حافظنا عليه . ولن نضحي الآن او غداً مطلقاً بهذه المشروعات الضخمة الجبارة التي تبشر بالخير . ولن نمحو هذه الصفحة المشرقة من التاريخ . ويجب المحافظة بأي ثمن على السلام في هذه المنطقة ... ان استقلالكم مصان والنفوذ البريطاني يجب ان تبقى له الكلمة الاولى والأخيرة ... (كذا بالحرف الواحد) ... » .

نحو الشرق الأوسط

الاكتشاف الأول

ان الذي ادهشني دائما هو عجز
القوة عن تنظيم بعض الأمور
(نابوليون)

ان من طبيعة الناس ان ينظروا دائمـــاً الى مشرق الشمس ؛ لدى رؤيتهم النور في فجر حياتهم ، وعند بلوغهم سنّ النضج واكتفائهم من الحياة ، وعندما يشيخون وتميل شمس عمرهم الى المغيب ، وساعة انتقالهم من هذه الدنيا ؛ دائماً وأبداً يطلب الناس الشمس والنور . والشاعر الالماني العبقري غوته كان يصرخ دائماً : « دعوني أرى النور » . وهَل يأتي النور إلا من الشرق ...

فلا غرابة اذن اذا اتجهت انظار العالم الى الشرق . ولا عجب اذا شُده الناس في الغرب بحكمته تارة وبخيراته تارة اخرى .. بملذاته حيناً وبأفكاره السامية حيناً آخر .. بأوهامه وسرابه طوراً وبقسوته وجبروتــه طوراً آخر . وليس موضوع بحثنا الآن ان نوضح ما لهذا الشرق على الغرب من منن . وانما نريد ان نكتفي ها هنـا ونشير باختصار الى المغامرات العجيبة التي عاشتها شواطىء هذا الخليج العربي عبر العصور .

لقد مضى ثلاثة وعشرون قرناً على موت القائد اليوناني الكبير الاسكندر المقدوني . وما زال ذكره مع ذلك يدغدغ مخيلة سكان البحر المتوسط كما يدغدغ سكان الخليج العربي . وذلك لأن الاحداث العظمى لا تنسى ،

والاسكندر قد ترك في التاريخ اثراً بالغـــاً . فهو لم يكن فقط المحارب الفاتح ، بل كان قبل كل شيء رجلاً عالمياً يحمل فكراً غريب التأثـــير ومثلاً يدعو الى التأمل والتفكير كما كان نابوليون بعده بواحد وعشرين قرناً ونيف . وهذا هو سرّ عظمته ومجـــده . ويجب علينا في العصر الحديث ان نسترجع تلك الصفحات المشرقه فندرسها برغبة ونهم . ولولا الرغبة في الدرس والاطلاع لكان عالمنا القديم قـــد اندثر وزالت كل معالمه وآثاره ..

وهذه الرغبة المحببة في الاطلاع ظهرت في ابهى حللها عند الاسكندر وخاصة في الشؤون البحرية . والى الاسكندر يعود الفضل في اكتشاف مياه الخليج وشواطئه لأول مرة في التاريخ . وكان ذلك اثنـــاء عودة القائد الكبير من الهند عندما مرّ بشواطىء الخليج في طريقه الى سوزيانا حيث أمر «نيارك» أحد مرافقيه بأن يسبر غور مياه الخليج حتى مصب نهري دجلة والفرات . وقد كانت مهمة «نيارك» من اهم المهمات البحرية التي أُجريت في العصور القديمة . وقد لفتت أنظار كثير من الاختصاصيين في الشؤون البحرية .

انطلق الاميرال المقدوني من مصب نهر الهندوس سنة ٣٢٤ قبل المسيح واستمرت مغامرته الغريبة مائة وثلاثين يومـــاً قبل أن يصل إلى رأس الخليج العربي . وفي اليوم الثلاثين بعد المائة وصل الاسطول المقدوني الى مصب الفرات والقى مرساته امام قرية تدعى «ديريدونيس» وفي هذه القرية اعتادت المراكب التجارية ان تنقل البخور والأطياب العربية الى انحاء العـــالم . ولم يتوقف اسطول نيارك الكبير عند هذا الحـــد في اكتشافاته الجغرافية بـــل تبع مجرى نهر قارون في بلاد فـــارس صعداً ليحط رحاله عند مدينة « سوزه » حيث كان العاهل المقدوني ينتظره . وقـــد كان الاستقبال رائعاً جداً الى درجة جعلت البحارة المغـــامرين ينسون ما قاسوه وعـــانوه مـــن جوع وعطش ومرض

وآلام ... لأنهم نالوا المكافأة على عذابهم وافتتحت الى الابد طريق الهند عبر الخليج العربي . وقد ألقى تقرير نيارك ضوءاً مشعاً امام الاسكندر عن اهمية التجارة بين بلدان حوض المتوسط والهند عن طريق الفرات والخليج العربي ... بهذا العمل الذي اقدم عليه نيارك بأمر من الاسكندر تم اكتشاف الشاطىء الفارسي من الخليج اما الشاطىء العربي فقد ظل تكتنفه الاسرار ... ولكن طموح الاسكندر لم يتوقف عند احتلاله بلاد فارس بل تعداه الى شبه الجزيرة العربية . لذلك تبع مجرى شط العرب صعداً حتى يلتقي بالاميرال نيارك قرب بابل . وهناك كانت المراكب الفينيقية المنقولة على ظهور الجمال عبر الصحراء قد ساعدت على تقوية الاسطول المقدوني . فوضعت آنئذ خطة الحملة . كان لا بد من اكتشاف الاراضي المجهولة على الشاطىء العربي واحتلال شبه الجزيرة العربية للاستيلاء على ثروتها من البخور والاطياب والسيطرة على ضفتي الخليج الفارسية والعربية . فقام « آركاييس » ثم « اندروستين » وتوغلا في تلك الأراضي ثم تبعهما فيما بعد « هيرون دي سولي » للدوران حول شبه الجزيرة العربية من الطريق ذاتها التي تتبعها اليوم ناقلات البترول . وقد عاد « دي سولي » من رحلته الطويلة دون ان يصل الى نهاية المطاف الذي كلف به ليعلن امام سيده الاسكندر ان هذه البلاد الصحراوية شاسعة مترامية الاطراف .

وعلى الرغم من هذا الفشل لم ييأس الاسكندر بل استمر في اعداد اسطول « نيارك » وتقويته للقيام بالمهمة الشاقة . ولكن القدر في السنة الثالثة بعد الثلاثماية قبل المسيح هصر عود الاسكندر وهو في الثالثة والثلاثين من عمره قبل ان يتم تحقيق أهدافه في اكتشاف سواحل شبه الجزيرة العربية كلها ...

كان للفينيقيين في تلك الحقبة مستودعات تجارية على شواطىء الخليج العربي شبيهة بتلك التي كانوا يملكونها في حوض البحر الابيض المتوسط .

وكذلك الرومان واليونان القادمون الى هذه الديار سعياً وراء منتوجاتها التجارية النادرة ازداد عددهم وتضخم . وقد ترك مؤرخوهم ابراتوستين ، بوسيدون ، سترابون وخاصة بلين اوصافاً شيقة عن الحياة في الخليج العربي في العصور الأخيرة التي تسبق التاريخ الميلادي . وكانت التجارة البحرية آنذاك تجارة التوابل والأطياب والبخور والذهب مزدهرة بين بابل وشبه الجزيرة العربية والهند . وقد جمع التجار الفينيقيون من تلك التجارة الأرباح الطائلة وأصبحوا محطّ انظار الحاسدين والطامعين مما حمل دول ذلك العصر على ان تسعى لفرض سيطرتها على هذا الطريق المائي الهام..

ومنذ ذلك الحين بدأ المؤرخون يتحدثون عن منابع البترول في بابل ، هذا السائل الأسود الذي يشتعل في المصابيح . غير ان احداً لم يكترث به خلال العشرين قرناً التي تلت . والذي كان يهمّ الناس لم يكن هذا السائل الوسخ السريع الاشتعال ، بل البخور والمرّ والناردين والطيوب الأخرى النادرة .

وفي الطرف الآخر من شبه الجزيرة العربية كانت مملكة سبأ تحتكر هذه التجارة فجمعت من ورائها ارباحاً طائلة ؛ إذ كانت قوافلها تجتاز ساحل البحر الاحمر في طريقها الى الحجاز حيث قامت المدنُ المحطات مثل مكة والمدينة (يثرب) كما كانت المراكب تنطلق من المرافىء الجنوبية محاذية الشواطىء العربية لتدخل في الخليج العربي ، وتفرغ احمالها من المنتوجات الثمينة النادرة في تيلوس (البحرين) او دير يدوتيس (البصرة) ...

وقد أكل روما من جراء ذلك الحسد فأرسلت بعثاتها الاستكشافية لتضيع في تلك الصحارى المحرقة . وفي السنة الرابعة والعشرين قبل المسيح ضاع آليوس غالوس في الصحراء قبل ان يصل الى القسم السعيد من بلاد العرب . وتكررت المحاولات الفاشلة دون جدوى ...

واخيراً تعلّم الرومان المقيمون في مصر كيف يُبحرون في البحر

الاحمر والمحيط الهندي واكتشفوا سر الرياح الموسمية فغامروا وقضوا على الاحتكار العربي للتجارة في تلك المنطقة . وكان ذلك بداية انهيار العهد الذهبي في القسم الجنوبي الشرقي من شبه الجزيرة العربية . وفي السنـــة الثمانين من التـاريخ المسيحي صدر اول وصف مسهب لأحوال التجارة البحرية في هذه المنطقة مع الاشادة بثروات الخليج العربي التي لا تضاهى ..

وفي فجر القرن الثـــاني حاول تراجان ان يقتفي آثار الاسكندر المقدوني فوصل الى الخليج . وبوصوله الى هناك بدأت مرحلة الصراع بين الرومان والفرس ، هذا الصراع الذي دام ثلاثة قرون .

العهد الذهبي والاطماع الكبرى

خلال القرن السادس الميلادي وفي جوف شبه الجزيرة العربية بدأت تحت اللواء الاخضر الذي رفعه النبي العربي الاستعدادات للتوسع الاسلامي، ولما اكتملت وتمت السيطرة على الشام ، اتجهت القوى العربية الى الشرق كما فعل الفاتحون والغزاة جميعاً . وفي سنة ٦٣٤ في البصرة على الحدود العربية الفارسية جـــرت معركة السلاسل التي قررت شخصية الخليج العربية . وقبل هذا النصر المبين كانت شواطىء الخليج وايران وبـــلاد الرافدين خاضعة كلها لسلطان الأكاسرة . وازاء الزحف العربي الكاسح ما لبث هذا السلطان حتى تلاشى وزال ...

وبعد الدولة الأموية في الشام بدأت الحقبة الذهبية الساطعـة التي لا تُنسى من تاريخ الخليج العربي . وكان تأسيس مدينـة بغداد على نهر دجلة بناء على رغبة الخليفة العباسي ابي جعفر المنصور سنة ٧٤٩ م إيذاناً ببدء تلك الحقبة المجيدة . وقـــد كان لتسامح الخلفـــاء العبـاسيين وتحررهم وتشجيعهم لرجال الفكر تأثير كبير فازدهر الفن والأدب ايمـا ازدهار . وكان بذخهم ايضاً اغرب ما سمعناه من عجـــائب وغرائب واساطير عن الشرق ..

ان ذلك العصر هو حقاً العصر الذهبي لتفتح الحضارة الاسلامية التي وطد اركانهـــا العرب في الشرق . وقصص الف ليلة وليلة الشيقة تروي اساطيرها باسلوب جذاب . انه عصر هارون الرشيد الخليفة الكبير . وفيه ازدهرت البصرة كمرفأ اول لا ينازع لهذه الامبراطورية الشاسعة المترامية الاطراف التي امتدت من الهند الى بحر الظلمات . وفي هذه الحقبة ايضاً انطلق السندبادُ البحري يجوب البحار والامصار ليعيش اغرب المغامرات واطرفها . وفيها ايضاً اكتشف علاء الدين مصباحه السحري في الصين .

آنذاك كانت التجارة الكبرى في العالم تجارة الحرير والعنبر والعاج والذهب والقرفة والزنجبيل والفلفل والزعفران . وكانت هذه التجـــارة تنطلق من الشرق الاقصى من بلاد الشمس الساطعة الى الدولة العباسية ومنها ينقلها التجار الى مدينتي جنوى والبندقية في ايطاليا على المتوسط لتُحمل بعد ذلك من هناك الى سائر انحاء اوروبا .

ولو سُدّ الخليج العربي لما كان هناك مطلقاً اية اهميـــة تجارية للقسم الشرقي من البحر الابيض المتوسط في التجارة العـــالمية . ومن الخليج العربي الى بحر الصين كانت المراكب الصينية والعربية تتهادى بأمان ، دون انقطاع ، حاملة البضائع والمنتوجات . وفي كل مرفأ ومدينة ساحلية كنت ترى البحـــارة الصفر الصينيين يختلطون بالبحارة السمر العرب ويتعاونون كما يتعاون الاخوة المتحابون وذلك لأنه كانت تربطهم جميعــاً رابطة الاخطار المشتركة نفسها من عواصف ورياح وقراصنة وغزاة وتجمعهم رابطة الارباح المشتركة ايضاً .

وهذا النشاط المتزايد على الرغم من انهيار الخلافة العباسية في القرن الثالث عشر قد استمر . ولقد تعرّضت بغداد وغيرها من المدن العربيـــة الزاهرة في ذلك الحين لهجمات المغول المخربين الهدّامين الذين اندفعـــوا غربي آسية يتلفون كل ما يقع تحت ايديهم دون ان يراعوا حرمـــة او ذمة . مع ذلك لم يضعف النشاط التجاري مما أدهش الرحـــالة البندقي

ماركو بولو الذي جاب الشرق في هـــذه الفترة التاريخية الدقيقة . وقد مرّ مــاركو بولو بالبصرة ومنهـــا الى هرمز وأشاد في وصفها قبل انتقاله الى الصـــين حيث كانت تشدّه الرغبة في اكتشاف اسرار المعامـــلات التجارية . وعاد ماركو بولو من رحلتـه ماراً بمنطقة الخليـج العربي ايضاً حـــاملاً الى اوروبا ، التي كانت آنذاك تغرق في ظـــلام الجهل ، المعكرونة والبارود وقصة شيّقـــة تحتوي مشاهداته الطريفـــة في رحلته الفريدة . وما ان انتشر خبر رحـلة ماركو بولو حتى ازدادت رغبة التجار الاوروبيين في الثروة ، هؤلاء التجـــار الشرهين الذين لا يحلمون إلا بالعاج والحرير والفلفل والالماس والذهب والقرفة وغير ذلك من المواد النادرة الثمينة ...

وانطلق هؤلاء التجار المغامرون بجرأة كما فعل ماركو بولو في طريق البحر المحفوفة بآلاف المخاطر والاوبئة القتالة . وكانوا يعتقـدون خلال حمى نشوتهم انهم سيلمسون بأصابعهم كنوز الشرق المنشودة قبـل ان يأكل أجسامهم مرض الزحار المهلك . واولئـك الذين كانت تُكتب لهم النجاة ويعودون الى ديارهم سالمين غانمـــين كانوا يبعثون الحسد والطمع والغيرة في نفوس زملائهم الآخرين ويحفزونهم الى تقليدهم ...

وهكذا كان أهـــل البندقية وجنوى وفرنسا وهولندا وانجلترا والبرتغـال يتهافتون زرافـات زرافات على السفر الى بلاد الشرق سعياً وراء الثروة عنـد الشواطىء المجهولة . وكريستوف كولومبس الذي تاه واكتشف القارة الاميركيـة دون ان يدري لم يكن يبغي الا ايجـــاد طريق قصـــيرة الى الشرق الأقصى ولم يكن يفكر الا بخيرات الهند والصين والبلاد العربية . وبينما كان القرن الخـامس عشر يلفظ انفاسه الأخيرة اهتدى البحار الشهير فاسكو دي غاما الى طريق رأس الرجاء الصالح حول القارة الافريقية السوداء ...

وفي القرن السادس عشر بدأ سيل المراكب الاوروبية الغربية يغزو

الشرق تباعاً ، معلناً أفول نجم البندقية وجنوى الايطاليتين . وقد استطاع ملك فرنسا فرنسوا الاول ان يقنع سلطان الدولة العثمانية في الآستانة بالتوقيع على معاهدة « الامتيازات الاجنبية » المعروفة التي فتحت ابواب الشرق سلمياً امام التجار الفرنسيين منذ تاريخ توقيع المعاهدة سنة ١٥٣٥ . وأما الفونسو « ألبوكرك » البرتغالي فقد ابحر عن طريق الرجاء الصالح ووصل الى الخليج العربي واحتل مدينتي مسقط وهرمز وبنى فيهما الحصون والقلاع لحراسة باب الخليج وذلك سنة ١٥٠٨ ومن هناك انطلق الى الهند ليحتل « غوا » حيث ترك البرتغاليون الأبنية الضخمة لتدل عليهم ... وبقي الفاتحون البرتغاليون أسياد الخليج العربي طيلة قرن من الزمن حتى كانت السنة ١٦١٦ التي حملت اليهم المنافسة الانجليزية ثم الهولندية . وكانت انجلترة وهولندة قد اسّستا شركة الهند الشرقية التي بدأت في فتح اسواق لها واقامة مستودعات لبضائعهما . وعندما جاء الفرنسيون الى الخليج سنة ١٦٦٤ وجدوا هذه المستودعات قد وطدت اركانها ، لذلك لم ينجحوا الا قليلاً ...

الصراع المستمر

شهد القرن السابع عشر بصورة خاصة تطور التنافس الانجليزي البرتغالي المتزايد على الرغم من العلاقات الطيبة التي كانت تربط بلاطي انجلترا واسبانيا التي كانت البرتغال تابعة لها آنذاك ، وكان هذا التنافس من حين الى آخر يتيح للهولنديين ان يظهروا على المسرح ويغتنموا فرصة التطاحن الدولي ليقبضوا فترة ما على زمام التجارة البحرية في الخليج . واما في البحر الابيض المتوسط فقد كانت التجارة الفرنسية مزدهرة فيه .. وكما كانت الحال في ايام الفينيقيين ثم البنادقة كان قسم من ثروات الشرق لا بدّ من ان يمرّ حتماً بطريق الشرق عبر حلب .

لم ينجح البريطانيون في البداية ولم يوفقوا في فرض انفسهم في المشرق

وبدأت مستودعاتهم التجارية التي أقاموها في بـلاد فارس تفقد اهميتها ومنزلتها .. وكان على البضائع المرغوبة ان تمرّ في مضيق هرمز الذي كان يسيطر عليه البرتغاليون محتكرو التجارة مع الهند والصين ، الأمر الذي اتاح لهم ان يرسلوا الى اوروبة السفن المثقلة بالخيرات والبضائع . وقررت شركة الهند الشرقية البريطانية ان تضع يدها على الشرق الاوسط بعد القضاء على البرتغاليين الذين لم يكونوا متفوقين عسكرياً . ووصلت الى مأربها عندما استطاعت سنة ١٦٢٢ بمعاونة الفرس ان تنتزع مضيق هرمز الستراتيجي من ايدي البرتغاليين وتنزلهم عن عرش السيطرة على التجارة البحرية في الشرق ... والجدير بالذكر ان مكانة هرمز هذه لم تدم طويلاً لأن شاه ايران عباس الاكبر اقام بالقرب من هـــذا الموقع المرفأ الايراني الذي حمل اسمه (بندر عباس) لينازعه على زعامـة الخليج ومن باب الاحتياط كان البرتغاليون قد احتفظوا بمسقط والبحرين والبصرة وغيرها من المرافىء التجارية الهامـة . ولكن في سنة ١٩٥٠ ثار العثمانيون عليهم وطردوهم من مسقط وكان هذا الحدث إيذاناً بأفول نجمهم نهائياً من الخليج العربي ، بعد ان بدأ يسطع نجم الهولنديين .

ثم جاء الفرنسيون سنة ١٦٦٤ يزيدون من حراجة موقف الانجليز الذين كانوا يتشبثون ببندر عباس والبصرة تشبث الغريق بخشبة الخلاص محاولين جهدهم الحصول على امتيـــازات تؤمن لهم مصالحم الحيوية في الشرق ...

في ذلك الحين كانت الحروب المتتالية تجتاح القارة الاوروبية . لذلك لم تكترث الشعوب كثيراً لمـــا حصل سنة ١٧٠٨ عندما اتحد ارباب التجارة والشركات البريطانية الشرقية في شركة واحـدة ذات ميثاق مشترك . لقد كان لهذا الامر من الوجهتين السياسية والاقتصادية اهميته القصوى التي لا تنكر . انه صورة مصغرة صادقة لما ستكون عليه الشركات البترولية في المستقبل . وهو في تلك الحقبة التي سبقت الثورة

الصناعية حدث اقتصادي خطير لا يقل مطلقاً عن تأسيس الاتحـادات الانتاجية والبيوتات الكبرى العالمية في عصرنا الحاضر . ولم تبخل الدولة على هذا الاتحاد بشيء بل ساندته بكل قواها . واعتبرته مؤسسة من مؤسساتها او جزءاً منها وصار هو بذاته يوجه سياستهـــا في الداخل والخارج . وكان يفاوض باسمهـــا ويعقد المعاهدات والاتفاقات الدولية ويعبىء القوات العسكرية والاساطيل لحماية مصالحه الحيوية التي صارت تهم فئة كبيرة من الشعب البريطاني ...

وخلال النصف الاول من القرن الثامن عشر ازدادت المنازعات المحلية والخلافات بين سكان الخليج انفسهم مما أضر ضرراً كبيراً بمصالح بريطانيا التجارية هناك . وكانت الاصطدامات المسلحة الدموية بين القبائل العربية من جهة والفرس من جهة أخرى سبباً من اسباب نمو حركة القرصنة على شواطىء الخليج العربي .

وفي سنة ١٧٥٩ عندما تعرضت بندر عباس لقنابل الاسطول الفرنسي قرر الانجليز الجـــلاء عنها والتجمع في مدينتي بوشير في فارس والبصرة في العراق . . وذلك لأن اوروبا في ذلك الحـين كانت تقاسي الأمرّين من ويلات حرب السنوات السبع ؛ وللوصول الى الهنـــد كان على الارساليات والبضائع والقوافـل ان تتبع طريـــق الصحراء التي بقيت مستخدمة مدة طويلة بين حلب والبصرة والكويت . وكانت رحلة القوافل بين حلب والكويت تستغرق اربعة وعشرين يوماً . وكثيراً ما كانت هذه القوافل تحط في بغداد لترتاح بضعـة ايام ؛ ومن هناك تتابع الرحلة في المراكب النهرية على مياه دجلة الى مرفأ البصرة ...

الانجليز يسيطرون

في الربع الأخير من القرن الثامن عشر وبداية القرن التـاسع عشر كثرت اعمال الغزو البحري جداً في الخليج العربي . وقـــد اتاح ذلك

النزاع المستمر بين القبائل بعضها ببعض من ناحية وبين الفرس والعرب من ناحية اخرى . وبفضل هذه الحالة استطاع فرسان البحر ان يعملوا على هواهم متبعين ما تدفعهم اليه أهواؤهم .

وفي اواخر القرن الثامن عشر نزح آل الصباح من نجد لاحتلال الكويت واستيطانها ، وكذلك اندفع الفرس لاحتلال البحرين والبصرة . والعُمانيون من الجنوب انتفضوا وحرروا مسقط والشاطىء المقابل لها . وفي هذه الحقبة نفسها تولى آل ثاني الحكم في قطر وآل خليفة في البحرين .

واخيراً حالف الحظ الموجة الوهابية بعد عناء فاجتاحت الصحراء وبسطت سلطانها عليها وشرعت في الامتداد الى السواحل للسيطرة على شبه الجزيرة كلها ، فتحرك المماليك في مصر الذين كانوا يمثلون السلطة العثمانية وجمدوا هذه الموجة الطاغية . ويمكن القول انه في هذه المرحلة من تاريخ الخليج العربي كانت الكلمة الأولى لقراصنة البحر وكان على بريطانيا وهي الدولة البحرية المتمرسة على حروب البحار ان تتدبر امرها مع هذا العالم المتلاطم الامواج المضطرب ، فتمكنت من ذلك وخرجت من التجربة بنجاح لكثرة ما اظهرت من مكر ودهاء . وقضى الانجليز القرن التاسع عشر بأكمله وهم يدعمون مركزهم ويوطدون اقدامهم لتأمين سيطرتهم التامة على سواحل الخليج مصرّين على زحزحة الاخصام المنافسين كلهم ليخلو لهم الجو وحدهم .

وكان هدفهم الاول من هذه الاعمال والمناورات كلها ان يفرضوا حمايتهم على امارات الخليج ليؤمنوا بذلك طريقهم الى الهند التي كانت مستودع المواد الخام اللازمة لصناعتهم ... ويجب الاعتراف ان الانجليز بعد قرن من الجهود المبذولة باستمرار نجحوا في تحويل الخليج العربي الى بحيرة بريطانية ...

ومن معاهدة الصداقة مع مسقط سنة ١٧٩٨ الى الاتفاق الانجليزي الروسي سنة ١٩٠٧ القاضي بتقاسم مناطق النفوذ في ايران مرّت مئة وعشر

سنوات عُقد فيها كثير من المعاهدات والاتفاقات وصدر كثير من الفرامانات والارادات السلطانية، ومنح كثير من الامتيازات التي لم يذكر منها التاريخ إلا الهام .. وكل من كان في يديه شيء من السلطة والحكم في الخليج وقع خلال هذه الفترة في منطقة النفوذ البريطاني وعن طريق حكومة الهند بصورة خاصة ...

وعلى الصعيد العملي استطاع الانجليز ان يقودوا المعركة بنجاح ضد القراصنة وتجار الرقيق ومهربي الاسلحة فقضوا عليها نوعاً ما . ومن وجهة النظر الدولية وفقوا الى ان يقضوا على كل نفوذ اجنبي في الخليج خاصة النفوذ الفرنسي .

لم تدخل فرنسا تاريخ الخليج الا في فترات متقطعة ومتباعدة .. وكانت في القرن التاسع عشر المنافس العنيد الوحيد لبريطانيا . والذي كان يغيظ هذه ان النشاط الفرنسي في المحيط الهندي كانت ترافقه علاقات طيبة متينة بعُمان وممثل الباب العالي وايران .

النفوذ الفرنسي

بعد الثورة الفرنسية الكبرى ارادت الجمهورية الفرنسية ان تسير على المخطط السياسي التقليدي القديم للدبلوماسية الفرنسية المتميزة بالصداقة والتسامح والنفوذ السلمي في الشرق، ذلك النفوذ الذي دشّنه فرانسوا الاول عند توقيع اتفاق الامتيازات الاجنبية مع الباب العالي؛ فارسلت الحكومة الفرنسية عدة بعثات الى الشرق وتوجه المبعوثان « اوليفيه » و « بروغيير » الى شواطىء الخليج العربي وايران بطريق بغداد والبصرة . وقد اثارت هذه البعثات حفيظة البريطانيين فأرسلوا تعليماتهم الى المقيم البريطاني العام في بوشير ليراقب ويوقف اذا دعت الحاجة نشاط الرسل الفرنسيين الجدد . وحاول هذا الاخير ان ينفذ تعليمات لندن ولكنه لم يوفق واستمرت البعثات الفرنسية في عملها، غير ان النتائج

العملية التي حصلت عليها كانت زهيدة لا يؤبه بها . وتوقف النشاط سنة ١٧٩٨ ... وفي هـــذه السنة على العكس سجّلت بريطانيا خطوة الى الامام في مسقط حيث اتاح الفرنسيون لها ان تتخطاهم .

اما في شبــه الجزيرة وايران فقد تضاعف نشاط الفرنسيين وتكللت المساعي بالنجاح النسبي .

وفي هذه الفترة ذاتها أبحر الى مصر رجل اسمر قصير القامة لم يكن سوى نابوليون الذي كان اسمه وحـــده كافياً لبعث الذعر والقلق في الامبراطورية البريطانية . لقـــد كان يقتفي آثار الاسكندر المقدوني الكبير ويبغي انشاء امبراطورية شرقية تقضي نهائياً على النفـــوذ البريطاني . وقد كتب السيد هنري دانداس السكرتير في وزارة الحربية البريطانية الى اللورد غرينفيل في الثالث عشر من حزيران سنة ١٧٩٨ :

« ان نابوليون يبذل جهده لتحاشي الاصطدام في البحر لأنه يعلم بأنه ضعيف في هذا المجال . وحسب اعتقادي وكما يظهر من خطته وحماسة انصاره يحاول القائد الفرنسي الوصول الى هدفه عن طريق حلب وبغداد ، تلك الطريق التي سار فيها الاسكندر المقدوني من قبله ليتجه من هناك الى الجنوب ماراً بشواطىء الخليج العربي قاصداً في زحفه الهنـــد درة التاج البريطاني ... »

وقد أثار ذلك التقرير ضجة كبرى بدأت في لندن وتردد صـــداها في بومباي . ولم يهمل الانجليز شيئاً من شأنه ان يساعد ولو قليلاً على احباط مشروع نابوليون . وانطلق المبعوثون والعملاء الانجليز في كل الاتجاهات مشترين هذا ومتآمرين على ذاك ، تارة متوعدين وطوراً متوسلين ، ودائماً كالنحلة المحصورة في زجاجة كانوا يتحركون بناء على التعليمات التي كثيراً ما كانت تأتي متناقضة من لندن وبومباي . وقد كتب السير برسي سايكس : « يظهر ان عبقرية نابوليون قد سيطرت على كل اعدائه حتى ان مشروعاته الوهمية الخيالية كانت تسبب لهم ازعاجاً ليس له مثيل ... »

وبعد الفشل النسبي في مسقط بدأ نابوليون يسجل انتصاراته . فقد ارسل مبعوثيه الى اليمن فاستقبلوا هناك بالترحاب وتحالف مع وهابيي سعود الذين كانوا يتحكمون بقسم لا بأس به من سواحل الخليج العربي . وبتوقيعه معاهدة الصداقة الفرنسية الفارسية افتتح لنفسه طريق الهند عبر ايران اي الطريق ذاتها التي سلكها الاسكندر المقدوني من بلاد الرافدين الى الهندوس بمحاذاة الخليج العربي قبل ذلك بواحد وعشرين قرناً . وقد كان من بين الامور التي ساعدت على احراز هذا النجاح النابوليوني الدهاء الشرقي الذي اظهره الامبراطور الكورسيكي المولد عندما كلّف اعوانه بأن يذيعوا في بلدان الشرق حيث العاطفة الدينية قوية ان سيدهم سيعتنق الاسلام دين النبي العربي محمد ﷺ وان فرنسا كلها ستقتفي خطى قائدها العظيم وتعتنق الدين الاسلامي ... وبين سنتي ١٨٠٢ – ١٨٠٤ ارسل نابوليون عدة بعثات الى ايران محاولاً كسب تأييد شاه ايران لمشروعاته الشرقية . وفي سنة ١٨٠٥ اندلعت الحرب بين فرنسا النابوليونية وروسيا القيصرية . فأرسل الامبراطور الفرنسي رسولاً الى بلاط ايران يعرض على الشاه معاهدة فرنسية – فارسية موجهة ضد روسيا في الشمال . وبعد توقيع الحلف الفرنسي الفارسي الذي قصد به الحد من التوسع الروسي الى الجنوب توجه الجنرال غاردان وضباطه الى ايران لتدريب الجيش الفارسي وتنظيمه على الطريقة الفرنسية . وعلى الاثر طار صواب الحكومة الانجليزية فارسلت كل من لندن وبومباي اذكى مبعوثيها الدبلوماسيين الى ايران لعرقلة انتشار النفوذ الفرنسي هناك والحيلولة دون تفشيه . غير ان هؤلاء المبعوثين لم يكونوا في حاجة لان يبذلوا كثيراً من الجهد لان الحرب الروسية الفرنسية سرعان ما انتهت ووقع صلح تيلست بين نابوليون بونابرت والقيصر مما جعل المعاهدة الفرنسية الفارسية عملاً دبلوماسياً لا فائدة ترجى منه ولا ضرورة له بسبب فوات الاوان ...

ومع ذلك بقي النفوذ الفرنسي كبيراً في ايران الامر الذي لم يرق

مطلقاً لسادة لندن . وفي سنة ١٨٠٨ أرسلت الحكومة الانجليزية مبعوثها الخاص السير هارفورد جونسن الى طهران يعرض على الشاه مبلغاً قدره مئة وعشرون الف جنيه استرليني كل سنة مع ماسة كبيرة الحجم ثمينة جداً كهدية من ملك انجلترا الى شاه ايران وذلك ثمناً لطرد الفرنسيين نهائياً من اراضيه . وفي الحال اسرع « فاث علي شاه » فطرد الفرنسيين واحتفظ بالماسة الرائعة والعائدات السنوية المغرية ؛ مما اشاع شعور الرضى والغبطة في لنـــدن . ولكن بومباي لم تكن مرتاحة كما تبغي لأن الحكومة الانجليزية تخطت بذلك حدودها وعملت في مجـال هو من حق حكومة الهند فقررت ان تقوم هي بدورها بتنافس مع لندن في البذل والعطاء . لذلك ارسلت من قبلهـا سنة ١٨١٠ مبعوثها الخاص جون مالكوم يحمل معـه عروضاً يسيل لها اللعاب . فتوصّل الى عقـد اتفاق اولي تحوّل سنة ١٨١٤ الى معاهدة ثنائية تدفع حكومة بومباي بموجبها مبلغاً قدره مئة وخمسون الف جنيه استرليني الى الشاه كعائدات سنوية . ويعتقد سايكس ان « هذا المبلغ الضخم الذي ارتضت الدولة البريطانية ان تدفعه يدلّ على اهميـــة الخطر الفرنسي الذي كان يهدد المصالح البريطانية . »

وبقي الخليج العربي مفتوحـاً للفرنسيين ينتظر نابوليون ، ولكن بونابرت لم يصل الى هناك ... ترى هل استمرتْ فكرة حملة الشرق عبر الخليج تراود مخيّلة نابوليون في منفاه متأثراً بمـــا سبقه اليه الاسكندر المقدوني الكبير ؟!

ان الآمال الفرنسية كلها قـد انهارت اثر ذلك بسنوات قليلة وجاءت المعاهدة البريطانية — الفارسية وقضت على كل جهـــد فرنسي في ايران . وكان ان احتكرت بريطانيا النفوذ هناك .

لقد كان على فرنسة ١٨١٥ ان تفكر بما هو أهم فصرفت النظر عن ايران والخليج العربي لتضمد جراحهـــا التي احدثتها هزيمة نابوليون

في اوروبا ...

وبذلك خلا الجو لبريطانيا فساد نفوذها في الخليج واصبحت صاحبة الكلمة الاولى والأخيرة فيه لا ينازعها فيه منازع .

لقد حدث هذا الصراع منذ قرن ونصف القرن قبل ان يبدأ عهد البترول وقبل ان تبدأ الشركات العالميـــة الكبرى في استغلال السائل الأسود الثمين واوشك ان يحدث الحروب بين المتنازعين . فهل من الغرابة ان يذر الخلاف اليوم قرنه بـين الدول الكبرى من اجل السيطرة على الخليج الذي يعتبر في النصف الثاني من القرن العشرين اغزر خزان بترولي في العالم .

احكمي يا بريطانيا

بعد زوال الخطر الفرنسي الذي اقلق الانجليز مدة غير قصيرة ثبتت بريطانيا اقدامها في هذه البقعة الحساسة وربما لمدة طويلة .

لقد انهمكت في البداية على الشاطىء العربي بمطاردة القراصنة الذين ما كانوا ليتركوا سفينة تجارية تنجو بريشها . وبعد سنوات من الجهـــد المضني الذي ُهدرت فيـــه كثير من الدماء تمكنت من ان تقضي جزئياً على القرصنة ؛ وفي سنة ١٨٢٠ وقّعت هدنة تلتها معاهدة السلم الدائم سنة ١٨٥٣ ، تلك المعاهدة التي كانت وراء جميع المعاهدات المانعة الأبدية فيما بعد ..

وفيما يتعلق بالاتراك الذين كانت لهم السيطرة الإسميـة على الأحساء والبحرين وجدت بريطانيا وسيلة للتصرف بسهولة ، وذلك لأن الباب العالي في الاستانة كان سائراً بخطى سريعة نحو الانهيار التام وفقاً لمـا كان يشتهيه ارباب المصالح في اوروبة .

وفي فجر القرن العشرين كان نفوذ بريطـانيا الفريد في الخليـج قـد تركز نهائياً . وفي وقت من الاوقات راود مخيلة الساسة البريطانيين ان

يفرضوا الحماية المباشرة على ضفتي الخليج من ايران الى الامارات العربية الى بلاد الرافدين . ولكن السياسة البريطانية الحكيمة تخلت عن هذه الفكرة الخطرة ذات التكاليف الباهظة متكلة مرة اخرى على خبرتها العملية العريقة ودهاء مبعوثيها السياسيين .

وقد استطاعت ان تؤمن مصالحها الحيوية دون ان تعرّض نفسها لأخطار هي في غنى عنها . وسارت الامور وفق ما تشتهي وتريد .

في هذا الجو الملائم للسياسة البريطانية وُفّقَ سنة ١٩٠١ السيد وليم كنوكس دارسي الى ان يحصل من شاه ايران على فرمان شاهاني بامتياز للتنقيب عن البترول في ايران . .

ولما طلع الروس فيما بعد بمشروع مد خط حديدي عبر ايران من جبال القوقاز الى الخليج ، اظهر الانجليز بعض الانزعاج خوفاً من تسرب النفوذ الروسي الى المنطقة وتدخلوا لأنهم كانوا عاجزين عن ان يقوموا بأنفسهم بمثل هذا المشروع الانشائي الضخم . ولكن موسكو لم تكن جادة فيما اعلنته بهذا الصدد . فهدأت الخواطر نوعاً ما في لندن . غير ان الألمان اثر ذلك طلعوا بدورهم بعد سنوات قليلة بمشروع خط برلين بغداد الحديدي الذي كان مقرراً له ان ينتهي في مدينة الكويت . رابطاً قلب اوروبة بالخليج العربي ، باب الشرق السحري . فاهتزت اركان الدولة البريطانية واضطرب ساسة لندن خوفاً على نفوذهم ومصالحهم .. وراحوا يبذلون اقصى جهودهم طيلة سنوات لإحباط هذا المشروع الذي يحمل كل المخاطر للمصالح البريطانية في الشرق العربي والهند ؛ حتى انهم لم يدخروا وسعاً في استخدام اية وسيلةٍ اعتقدوا ان فيها خيراً لهم وخلاصاً من منافسيهم الجدد ...

لقد كان هذا المشروع مبعث القلق الوحيد لبريطانيا في الخليج بعد ان قضي على المنافسة الفرنسية في مسقط سنة ١٩٠٥ ، فسلط العملاء الانجليز نشاطهم كله عليه . وبفضل ما بذلوه من جهود متواصلة استطاعوا

ان يؤخروا تنفيذ مشروع خط برلين – بغداد الذي طلع به دوتش بنك ، ولم ينجحوا في القضاء عليه نهائياً . الى ان ارسل القدر للانجليز الحرب العالمية الاولى التي عرقلت العمـل في المشروع وأجلته سنوات ليتم بعد الحرب بمساعدة الانجليز وموافقتهم ولمصلحتهم ...

لقد كان المجال مفتوحاً امام بريطانيا عندمـا اندلعت نيران الحرب الكونية فعرفت كيف تلعب دورهـــا بمهارة مشهودة محتفظة لأحسن المناسبات بأفضل ما عندها . وازاء ما قام به العملاء الالمان في ايران لدى نسفهم احد خطوط انابيب البترول في بلدة عبادان عمد الانجلـيز الى احتلال الاهواز وجنوبي العراق ... وانزلوا جيوشهم في الوقت ذاته في مرفأ بندر عباس على الساحل الايراني وألـّف الضباط الانجليز الذين بعثت بهم حكومة الهند جيشاً قوامه ابناء البلاد لحراسة الامن الداخلي مما عاد على القوات البريطانية بفائدة جلـّى . وفي هذه المناسبة بدأ ابن سعود ، وكان آنئذٍ اميراً على نجد فحسب ، بدأ يتدخل في شؤون الخليج العربي فعقد معه الانجليز معاهدة حماية على غرار المعاهدات المعقودة مع الامارات الاخرى . وبعبارة اخرى كانت السياسة البريطانية ترمي الى جعل الخليـج بأسره تحت حمايتها كي يستخدم كوسيلة حيوية للنقل . وقد تحققت هذه الغاية المتوخاة للانجليز في حملتهم الناجحـة على بلاد الرافدين خلال الحرب العالمية الاولى كما خدمت الحلفاء في تموين الاتحاد السوفياتي خلال الحرب العالمية الثانية لدى هجوم المانية النازية على بلاده ...

وبعد سنة ١٩١٨ أُقفـــل باب التنافس الاوروبي في الخليـج العربي لعدم وجود لاعبــين ينافسون ؛ اذ ان الاتراك والالمان قد اندحروا والروس انهمكوا في شؤونهم الداخليـــة بعد الثورة البلشفية وشغلوا بأمورهم الخاصة عن العـالم الخارجي في هـــذه الفترة الدقيقـة من تاريخ بلادهم .. اما الحلفاء الاصدقـــاء الاميركيون والفرنسيون الذين حاربوا الى جانب الانجليز فقد حرنوا قليلاً ثم استكانوا بعد حصولهم على

بعض القطرات من البترول في شركة بترول العراق . وتمت التسوية في هذا الموضوع وفقاً لما مرَّ معنا في فصل آخر من هذا الكتاب .

وهكذا برزت بريطانية في الخليج العربي القوة التي لا تزاحم ... وفي الرابع عشر من ايار سنة ١٩٢٤ صرح باعتزاز نائب امين سر وزارة الخارجية البريطانية قائلاً .. « ان مركزنا في الخليج العربي هو الآن على احسن وأمنع ما يكون ... »

ومع ذلك فانه في هذا الوقت بالضبط كانت قد بدأت حربٌ خفية اذ برز امام الدولة البريطانية منافسٌ جديد خطير قوي الا وهو الولايات المتحدة الاميركية ... وبعد الحرب العالمية الثانية كان على بريطانيا ان تقبل مرغمة ان تتقاسم واياها مناطق النفوذ في الشرق الاوسط لا سيما المنطقة البترولية منه ...

وهذا الصراع البترولي الذي يظهر ويختفي حسب الظروف والمناسبات ما زال مستمراً حتى الآن على الرغم مما يبعثه من سرور وفرح في قلب الاتحاد السوفياتي ، الطرف الثالث الذي يتربص الدوائر ...

١٦

حقائق واساطير

لقد انقلب كل شيء منذ تلك اللحظة التي ضاق فيها جن البترول ذرعاً بالبقاء محصورين في جوف الأرض ؛ فاندفعوا الى فوقها طالبين الحرية والانفلات ليكسوا أديم الأرض بسيل اسود صبغ الفضاء قبل ان يصبغ الأرض .

لقد هدرت الطائرات وقرقعت الآلات وسال العرق وظهر الناس كأنهم مشغولون جداً ؛ ثم جاءت السفن الضخمة تعبُّ من هذا السائل الأسود لتنقله الى اسواق الاستهلاك في مختلف انحاء العالم . وما هي إلا فترة وجيزة حتى درّ هذا السائل على بلدان الخليج عائدات رجعت الى مصدرها بشكل سيارات وبرادات وبيوت جديدة وكوكا كولا مثلجة وطرقات معبدة ومدارس وأجهزة لاسلكية وتلفزيونية . وكان هذا الأمر وحده كافياً لأن يدفع ابن الخليج الذي تعوّد ان يعيش على الفطرة الى التفكير والتأمل في شؤون العيش والحياة الصاخبة المضطربة المتطورة . ومصباح علاء الدين السحري الشهير لم يكن له مثل هذا الاثر . لقد حمل الناسَ الفانوسُ قديماً على ان يحلموا عوضاً عن ان يستيقظوا . أما البترول فقد ايقظهم من غفوتهم ودفعهم قدماً الى الامام دفعاً ليلحقوا بركب المدنية والتقدم ...

ليس من احد يدري بأية صورة ستُروى لأحفاد احفادنا من بعدنا اسطورة البترول في الخليج العربي ؟

ومهما يكن من أمر فان المؤرخين الدقيقين الأكفاء يجب ان يطلقوا على القرن العشرين الذي تميّز بالآلة الجبارة المنتجة ، قرن الحضارة البترولية ، وذلك لتعريف الاجيال القادمة الى الحقيقة الدامغة .

وبعد مئة قرن اذا هرع بعض الصبية الصغار بعد سماع الروايات المدهشة عن البترول وقصته الى البحث في مصوّر جغرافي عن ذلك الخليج الاسطوري الذي تحدّثت عنه الروايات والأساطير فانهم لن يعثروا عليه لأن الطمي الذي يحمله شطّ العرب يكون قد طمره . وبذلك نكون نحن قد عشنا في عصر البترول وتمتعنا بنعمه أما غيرنا من احفادنا أو احفاد احفادنا فقد تلقى نتائج اللعنة السحرية ...

لقد تحدّث عرضاً المؤرخان « ايرا ستوستين » و « سترابون » عن الزفت الأسود والنور القرمزي المنبعث في الليالي الآسيوية بين بحر قزوين والخليج العربي . والشعوب القديمة التي شاهدت هذه الأنوار الأبدية الغريبة التي لم تخبُ منذ الأزل دهشت منها فعبدتها وقدّستها ثم استخدمت البترول كمادة لزجة لجمع الاحجار في بناء المنازل والبيوت والهياكل او طلي المراكب السريعة العطب .

ولم تظهر اهمية هذا السائل الاسود الذي قلّما اهتم به الناس إلا بعد أن أهلّ عصر الآلة . وكان في البدء يُباع في قوارير صغيرة بأسعار فاحشة كأنه الدواء المثالي الشافي لكل الامراض المستعصية .. وبدأ الناس يستعملونه للإنارة من اواخر القرن الماضي على الرغم من خطر الانفجار . وبقيت نسبة الاستهلاك منه ضئيلة لا تغري التجار في الربح الوفير . وبعد ذلك اخترع محرك السيارة التي تسير بالبنزين وانتشرت هذه بسرعة هائلة انتشاراً عظيماً . وتبع هذا الاختراع كثير من المخترعات الآلية الاخرى المختلفة التي يحركها البترول فازدادت نسبة الاستهلاك

وارتفعت ارتفاعاً عالياً مما اغرى رجال المال والاعمال في توظيف اموالهم في هذه الصناعة الجديدة . وبذلك بدأ الزيت الاسود يحتل مكانته الرفيعة التي يتمتع بها اليوم .

ويوماً بعد يوم جعل هذا الاستهلاك المستمر المتصاعد الحاجة اشدّ مساساً لهذا السائل الملك الذي اعتلى العرش كالأباطرة الاماجد مع فجر هذا القرن . واغلب الظن ان ولايته لن تمتد الى ما بعده . والرجال الذين ادركوا سر اهمية البترول قبل غيرهم اصبحوا اغنى من الدول واقوى من السلاطين والأباطرة ، لأن «زيت الاحجار» (البترول) كما يُسميه البعض هو ، بالاضافة الى كونه مصدراً للطاقة الحرارية ، منبع للقوة الاقتصادية والسياسية والعسكرية في هذا العصر ، عصر السيارة والطائرة وآلات البناء والدمار ... وبسبب ذلك كان الصراع ولا يزال على أشدّه بين الكبار المتنفذين للاستئثار بمنطقة الخليج العربي الذي يحتوي كما يقول الخبراء اربعة اخماس الدم الضروري لعالمنا الآلي ..

بعد خمسين سنة

بعد خمسين سنة على الارجح سيكتشف العالم مواد احتراقية جديدة وآلات حديثة اخرى . ولا بد عندئذ من ان ينزل صاحب الجلالة البترول عن عرشه السامي المذهب ليُفسح المجال للقادم الجديد . وذلك بعد ان استأثر به واستبد طيلة قرن ونيف من الزمن .

والغرب يريد ان يحيا هذه الخمسين سنة القادمة دون ان تُهدر مصالحه . لذلك عليه ان يصون منطقة الخليج كنقطة التقاء جغرافية وسياسية بين قارتي آسية واوروبا ، سليمة من مكروه .

وسواء بقي البترول او بدونه سيحتفظ الخليج العربي بأهميته التي لا تضاهى بالنسبة لكل دولة تحاول ان يكون لها مكانتها الدولية . واذا كان لا بد من سبب أساسي يدفع الدول الكبرى للتنافس فان بحر

الزمرد بموقعه الستراتيجي الفريد عامل رئيسي من عوامل الصراع الكبير اللامتناهي المجهول النتائج الذي يقتتل فيه ارباب الآلية الحديثة التي تسيّر الدول وتحركها في كوكبنا الارضي الجميل ..

المشاكل المعقدة

والأوضاع المحلية في الخليج العربي اليوم معقدة مثقلة بالمشاكل ويكفي اتفهُ الاسباب ليؤدي بالعالم الى مجزرة عامة شاملة . ومشكلة البريمي وقضية عُمان الثائرة تحملان في طياتها شرارات يفضل العالم العربي ان يراها تخبو وتنطفىء . غير ان القومية العربية سواء جاءت رياحها العاتية من القاهرة او دمشق او من بغداد تلفح هذه الشرارات وتزيدها اشتعالاً ، محاولةً ان تقضي على الوجود الغربي في هذه المنطقة العربية التي يعتقد ابناؤها وغيرهم من العرب القوميين انهم أولى بخيراتها وثمراتها... والثروات الطبيعية البترولية تغري بقيمتها الخيالية فلا غرابة في ذلك . ولا عجب اذا كانت محطة صوت العرب الاذاعية توجه النداء تلو النداء الى عرب الخليج لا سيما عرب الجنوب ،منهم داعية للثورة على النفوذ الاجنبي..

والى هذه المشكلات الداخلية تضاف معضلات خارجية دولية فايران التي رأت عاصفة العروبة تجتاح اقطار العرب حاولت ان تسبق الحوادث فأعلنت ضمها جزر البحرين الى مملكتها خوفاً من ان يطالب العرب ، لا سيما العراق ،بالمحمّرة وغيرها من المناطق العربية الداخلية تحت حكم الشاه . ولكن عمل ايران بالنسبة للبحرين بقي شكلياً لا قيمة عملية له . ولم يتعدَّ حدود ايران اذ ظلت البحرين عربية يحكمها آل خليفة .

ومشكلة المياه الاقيمية التي لم تبرز جيداً حتى الآن لعدم حدوث الاحتكاك اشدُّ خطورة من تلك لأنها اكثر مباشرة منها وقد يؤدي بين عشية وضحاها الى انفجار رهيب لا يمكن لفلفته . وفشل المفاوضات الدولية بشأن تحديد المياه الاقليمية كان له اثره السيىء في

الخليج العربي .

وقد حددت مؤخراً حكومة الثورة في العراق مياهها الاقليمية بعد مصب شط العرب باثني عشر ميلا . وعلى الاثر اتخذت ايران قراراً مماثلا من شأنه الا يتفق مع قرار الحكومة العراقية . وأما دول الخليج الاخرى فتوزع الامتيازات البحرية للتنقيب عن البترول في نطاق ثلاثة اميال وهو العرف الدولي المتبّع وقد تتعداه الى خط متوسط وهمي يقسم مياه الخليج العربي باتجاه الطول .

وقد اصبحَ قعر الخليج بالفعل كلوحة الشطرنج لكثرة ما وزّع فيه من امتيازات . وهكذا يمكننا منذ الآن في حال العثور على البترول بكثرة في قاع البحر ان نتصور ما قد ينشأ من صعوبات واصطدامات من جراء هذا الامر تفوق في فداحتها وخطورتها المشاكل التي سببت النزاع في البريمي وعُمان .

قوة سوفياتية ام ضعف غربي

ومهما يكن من امر فان هذه الخلافات تبقى هزيلة اذا ما قيست بالخطر الذي يبعثه وجود الاتحاد السوفياتي ، هذا الوجود الذي لا تستطيع دول حلف الاطلسي ان تتخذ موقفاً موحداً تجاهه في الشرق الاوسط . ففي الوقت الذي برهنت فيه احداث العراق الاخيرة سنتي ١٩٥٨ — ١٩٥٩ على الوجود السوفياتي واطماعه في الشرق الاوسط تعرضت حكومة طهران لضغط لم تعرف له مثيلاً . ويعتقد ان هذا الضغط سيستمر على طهران حتى تنال موسكو ما تريد ... او تزول ايران عن المسرح ...

ويحمل الاتحاد السوفياتي في لعبته الكبرى التي يلعبها في الشرق سلاحاً قاطعاً يلوح به كلما دعت الضرورة . وهذا السلاح هو الوعد الذي قطعه للشعب الكردي بالاستقلال وانشاء دولة كردية خاصة بين

العراق وتركية وايران تجمع شمل الاكراد المشتتين . والمنطقة الجغرافية التي يقطنها العنصر الكردي ، حيث يتكلم السكان اللغة الكردية هي مقسمة اليوم بين العراق وتركية وايران بالقرب من آبار البترول الغزيرة في البلدين الاخيرين وعلى طريق الاتحاد السوفياتي الى الخليج العربي . وقد أصبح هذا السراب الكردي يقترب من الحقيقة والواقع منذ اليوم الذي تحالفت فيه حكومة عبد الكريم قاسم في بغداد مع الزعيم الكردي المشهور مصطفى البرزاني بعد ان استدعته من منفاه من الاتحاد السوفياتي حيث أقصاه عدة سنوات الرئيس السابق نوري السعيد الذي قتل في ثورة الرابع عشر من تموز ... وهناك اليوم في ارمينيا السوفياتية اكثر من ثلاثماية الف شاب كردي يتلقى اكثرهم التعاليم الماركسية اللينينية على ايدي خبراء سوفيات ويتمرسون على اعمال الدعاوة والنشاط السريين .

لقد استطاعت بريطانيا في الوقت الذي لم تكن الشمس تغيب فيه عن ممتلكاتها الامبراطورية الشاسعة في الشرق والغرب ، ان تحكم الخليج بدون منازع على الرغم من نظرات الحسد والمحاولات المستمرة لانتزاعه من بوتقة نفوذها . واليوم تستعين الولايات المتحدة الاميركية التي لم تهيىء نفسها كما يجب لدور القيادة الدولية العالمية بمخلفات السياسة الاستعمارية البريطانية القديمة . وعلى هذا الاساس المترجرج أقام الاميركيون هرم فشلهم واخطائهم في الشرق الاوسط .

وكان رفض تمويل السد العالي وما نتج عنه من ازمات قمة ذلك الهرم . وما تسميه وزارة الخارجية الاميركية سياسة مرسومة ليس سوى لون من الوان المحسوبية القديمة يرتكز على بعض الاقطاعيين المغمورين بالذهب . وقد لجأ اليه الاميركيون بعد ان فشلوا في ان يجعلوا القادة العرب الجدد عملاء لهم كالقدامى ...

وعلى الرغم من كل هذه الاخطاء تحتفظ الولايات المتحدة بمركز مرموق لها في منطقة الخليج ، اقتطعته لنفسها عنوة على حساب حليفتها

وشقيقتها بريطانيا . وذلك بفضل واقعية الدولار الذي ترافقه عواطف الاميركيين الهادئين بنظراتهم الحالمة واعمالهم المخيفة .

على طريق الحرير التقليدية

امام هذا العجز الفاضح الذي اتّسمت به زعيمة العالم الحر في تعاملها مع الشرق العربي الحـــديث ، تعمل روسية السوفياتية جاهدة لتنفيذ مخططاتها القديمة التي وضعها بطرس الاكبر بأساليب حديثة متجددة دائماً ملائمة لكل زمان ومكان .

لقد وجدت روسية نفسها كقوةٍ عالمية مضطرةً لأن تفتح منفذاً نحو آسية الوسطى والمحيط الهندي ثم افريقيا الشرقية . وذلك عن طريق ايران او على الاقل عبر العراق ليصل الى الخليج العربي ...

انه منفذها الطبيعي نحو آسيا المحايـــدة كما ان المضايق هي منفذها الوحيد نحو المتوسط . واذا استطاع النفوذ الروسي ان يتمركز في العراق وان يتوصل لنقل العدوى الشيوعية الى بـــلدان الهلال الخصيب المجاورة ، فسيصبحُ في امكان روسيا بعد ذلك ان تسيطر على كل مرافىء الخليج والمتوسط الشرقي . وعندئذ يفقد الدردنيل اهميته الستراتيجية بالنسبة لها . ان الاتحاد السوفياتي يهتم حالياً اشد الاهتمام بآسية وبلاد الرياح الموسمية بصورة خاصة ، لأن تلك البلاد كثيفة السكان ويزداد عـدد سكانها بأرقام خيالية وتشكـّل من جراء ذلك اكبر احتياطي بشري للمستقبل ... وهل يمكن الوصول الى هذه المنطقة عن غـــير طريق الخليج العربي ؟! .. من اجل ذلك ينظر الروس الى الخليج كما تنظر اوروبا الى قناة السويس كممر مائي لا يستغنى عنه ، فهل يتمكن السياسي السوفياتي خروشوف ان يحقق قبل ان يكتمل القرن العشرون وصية بطرس الاكبر ؟! .

وقد يسبق السوفيات في طريقهم الى الخليج حلفاؤهم الصينيون الذين يتطلعون هم بدورهم الى الشرق الاوسط ... انـه طريق محدّد ونقطة

التقاء شبه طبيعية . وعاجلاً ام آجلا ستعود الصين الحديثة الى الاهتمام بطريق الحرير التقليدية ، وستجتاز الخليج العربي لتنشر في الشرق الاوسط وكلاءها ورجال اعمالها النشيطين . وعندئذ سيجد الصينيون انفسهم على ابواب اوروبا مع حليفهم العملاق ، الاتحاد السوفياتي . وإن تغلغلهم السلمي العميق عندما يصلون سيخلق مشكلة جديدة امام « التعايش الديناميكي ».

السراب الأبدي

يعيش الخليج العربي في النصف الثـــاني من القرن العشرين حائراً بين طريقتين متنافرتين للحياة ... ان الخطى الهادئة الموزونة التي تسير عليهــا القوافل التقليدية لا تتفق مع السرعة الجهنمية التي تأكل الطائرات فيهـــا الاجواء والمسافات الشاسعة . وتهادي المراكب على صفحة الخليـج لا يمكن ان يتفق مع ناقلات البترول الضخمة التي تمخر وتشق عباب اليم ... والمياه الحلوة العذبة قد لا تدوم في الافواه الظامئة العطشى .

ومن على مراكبهم الراسية سينطلق صيادو اللؤلؤ في الغنـــاء ملتمسين الثروة قبل ان يغوصوا الغوصة الاخيرة بحثاً عن اللؤلؤ . وعلى ضفاف الخليج قد تخبو المشاعل نهائياً حول منشآت البترول .. وفي ساعة الغسق ستغيب الشمس في المكان ذاته من الأفق ملوّنـــة بخيوطها الحمراء التلال الرملية المتتابعة . وفي فجر اليوم التالي ستعود الى الشروق من المكان ذاته منتزعة من زمرد الخليج شراراتها الاولى الساحرة .

وأياً كان الظرف ومهما كانت النتائج ، سيسير الناس نحو الشرق الذي تغسل شواطئه مياه الخليج مجذوبين بسرابه السحري، الدائمِ ما دامت الحياة ، المحتومِ كحتمية الموت .

وما ذلك الا لأن العالم يجب ان يسير كما هو في النهج الذي تعوده .

الملحق الاول

مصالح الدول الكبرى في الخليج العربي

بريطانيـــا

١ — حماية فعلية تشمل سلطنة مسقط وُعمان وامارات شاطىء الهدنة السبع ، وقطر والبحرين والكويت بما في ذلك ادارة الشؤون الخارجية والدفاعية بموجب المعاهدات المانعة الابدية .

٢ — قواعد جوية في البحرين والشارقة وجزيرة مزراح . قاعدة بحرية في البحرين .

٣ — امتيازات بترولية :

أ — شركة بترول العراق (شركة رويال دوتش شـل ، شركة البترول البريطانية بنسبة ٢٣و٧٥ لكل منهما ، ادارة بريطانية) ولهـــا فروعها في :
— ُعمان (شركة التطوير البترولي) .
— شاطىء الهدنة (شركة التطوير البترولي في شاطىء الهدنة) .
— قطر (شركة بترول قطر).
— العراق (شركة بترول البصرة ، شركة بترول الموصل ، شركة بترول العراق) .

ب–شركة البترول البريطانية (تسيطر عليها الامبرالية البريطانية وتحتفظ بـ :

– ٥٠ ٪ من شركة بترول الكويت .

– ٤٠ ٪ من اتحاد الشركات العالمي العامل في ايران .

– ٦٦،٦٦ ٪ من امتيازات دُبي وابو ظبي البحرية.

ج– شركة شل القطرية (تابعة لشركة رويال دوتش شل حصة بريطانيا منها ٤٠ ٪ وحصة هولنده ٦٠ ٪) وتسيطر على:
امتياز تحت البحر مساحته ٢٥ الف كلم٢ .

فرنسا :

المصالح البترولية :شركة البترول الفرنسية لها نسبة ٢٣،٧٥ ٪ من شركة بترول العراق ، وشركة بترول البصرة ، وشركة بترول قطر وشركة بترول عُمان وشركة بترول شاطىء الهدنة .

– ٦ ٪ من اتحاد الشركات العالمي العامل في ايران .

– ٣٣،٣٣ ٪ من امتيازات دُبي وابو ظبي البحرية .

الولايات المتحدة الاميركية

١ – قواعد جوية في الظهران . قاعدة بحرية في البحرين .

٢ – مصالح بترولية .

أ – شركة الزيوت العربية الاميركية (ارامكو) وهي اميركية مئة بالمئة ، ومساحة امتيازها ٩٥٠ الف كيلومتر مربع في المملكة العربية السعودية بما في ذلك شاطىء الخليج وقعر البحر حتى الخط الوهمي والجزر ...

ب–شركة بترول البحرين مئة بالمئة ويشمل امتيازها البحرين بأمرها . وهناك اتفاق مع الأرامكو بشأن قعر البحر .

ج- جيتي اويل وأمينويل شركتان اميركيتان مئة بالمئة يشمل امتيازهما المنطقة البرية السعودية الكويتية .

د- غولف اويل ولها ٥٠ ٪ من شركة بترول الكويت.

هـ- حصة ضمن الاتحاد الدولي العالمي العامل في ايران قدرها ٤٠ ٪ مقسمة بين اربع عشرة شركة اميركية منها : كاليفورنيا اويل كومباني ، نيوجرسي ، تكساس كومباني ، سوكوني غولف اويل ولكل منها ٧ ٪ واريغون (تسع شركات صغرى مستقلة) ٥ ٪

و- شركة تطوير الشرق الادنى (نيوجرسي وسوكوني مناصفة) ولها ٢٣٫٧٥ من شركة بترول العراق ومن كل الشركات المساهمة من الأمارات العربية والعراق ...

ز- ستندارد اويل اوف انديانا (بانا امريكان) اميركية مئة بالمئة ولها دائرتان تحت البحر قرب شاطىء بحر ايران (حسب مبدأ مايتي الايطالي) بالاشتراك مع شركة البترول الايرانية الوطنية...

ايطاليا : مصالح بترولية

أجيب - ميزاريا - ولها دائرتان تحت البحر بالاشتراك مع شركة بترول ايران الوطنية .

اليابان : مصالح بترولية

شركة الزيوت العربية اليابانية وتحتفظ بامتياز للتنقيب في عرض البحر امام المنطقة المحايدة السعودية - الكويتية .

الملحق الثاني

الامتيازات حسب الشركات المنتجة

أ – الشركات المنتجة	مكان الامتياز
شركة بترول العراق – الموصل – البصرة	العراق كلها
شركة بترول قطر	قطر كلها
شركة تطوير بترول عُمان	عُمان كلها
شركة تطوير بترول شاطيء الهدنة	شاطيءالهدنة كله
جميع هذه الشركات الآنفة الذكر مؤلفة من العناصر ذاتهـا وهي: شركة البترول البريطانية شركة رويال‌دوتش شل (هولندية ٦٠ ٪ ، انجليزية ٤٠ ٪) شركةتطوير الشرق الادنى ، شركة البترول الفرنسية تملك كل منها ٢٣٫٧٥ والباقي ٥ ٪ يعود الى كولبنكيان.	
اتحاد الشركات الدولي العامل في ايران . وهو مؤلف من : شركة البترول البريطانية ٤٠ ٪ « رويال دوتش شل ١٤ ٪ « البترول الفرنسية ٦ ٪ ستنـدارد نيوجرسي ، ستندارد كاليفورنيـــا ، تكساس اويل ، سوكوني ، غولف اويل لكل منها ٧ ٪ والأريغون (تسع شركات مستقلة) تملك ٥ ٪	القسم الساحلي من ايران وتشمل مساحته ٢٦٠و٠٠٠ كلم² في البر والبحر .

تابع الشركات المنتجة	مكان الامتياز
– شركة بترول الكويت وهي مناصفة بين شركة البترول البريطانية وشركة غولف اويـــل الاميركية .	
– شركة الزيوت العربية الاميركيـــة المدعوة (أرامكو) مؤلفة من الشركات التالية وجميعهـا اميركيـة : كالتكس (ستندارد كاليفورنيـــا وتكساس اويل) ٦٠ ٪ ستندارد نيوجرمي ٣٠ ٪ سوكوني اويل ١٠ ٪	٩٥٠،٠٠٠ كلم^2 في المملكة العربية السعودية مع قعر البحر المجاور...
– شركة بترول البحرين : كالتكس ١٠٠ ٪	البحرين كلها
– جيني اويل ، أمينويل	المنطقة المحايدة السعودية الكويتية

ب – الشركات الاخرى

– ابو ظبي ودُبي البحرية بنسبة ٦٦،٦٦ ٪ لشركة البترول البريطانية ٣٣،٣٣ ٪ لشركة البترول الفرنسية	عرض البحر امام ابوظبي ودبي
– شركة الزيوت العربية اليابانية رأسمـــال ياباني صرف.	عرض البحر امام المنطقة المحايدة السعودية الكويتية
– شركة شل القطرية تابعــة لشركة رويال دوتش شل	عرض البحر امام قطر
شركة البترول الايرانية الايطالية (مناصفة) حسب مبدأ مايتي	عرض البحر امام ايران
شركة البترول الايرانية – الاميركية (مناصفة) حسب مبدأ مايتي	عرض البحر امام ايران
شركة البترول الايرانية – الكندية حسب مبدأ مايتي	١٠٠٠ كلم^2 على مضيق هرمز

الملحق الثالث

التقسيم النظري لبترول الشرق الأوسط

(بملايين الاطنان)

الحصص البريطانية الصرف	**مليون طن**
شركة بترول العراق ٢٣٫٧٥ ٪	٩
شركة بترول قطر ٢٣٫٧٥ ٪	٢
شركة بترول الكويت ٥٠ ٪	٣٥
الاتحاد والدولي في ايران ٤٠ ٪	١٦٫٤
	٦٢٫٤ المجموع

اثنان وستون مليون طن واربعماية الف طن .

الحصص البريطانية الهولندية المشتركة

العائدة لرويال دوتش شل

شركة بترول العراق	٩
شركة بترول قطر	٢
الاتحاد الدولي في ايران	٥٫٧
	١٦٫٧ المجموع

يعود الى بريطانيا من حصة هذه الشركة (شل) ٦٫٧ ملايين وبذلك يكون مجموع الحصص البريطانية ٦٩٫١ مليون طن .

الحصص الاميركية	**ملايين الأطنان**
شركة بترول العراق ٢٣٫٧٥ ٪	٩
شركة بترول قطر ٢٣٫٧٥ ٪	٢
شركة بترول الكويت ٥٠ ٪	٣٥
شركة بترول البحرين	٢
الأرامكو ١٠٠ ٪	٥٠٫٦
الاتحاد الدولي في ايران ٤٠ ٪	١٦٫٤
جيتي اويل وأمينويل ١٠٠ ٪	٠٤

١١٩ المجموع
مئة وتسعة عشر مليون طن

الحصص الفرنسية	
شركة البترول العراقية ٢٣٫٧٥ ٪	٩
شركة بترول قطر ٢٣٫٧٥ ٪	٢
الاتحاد الدولي في ايران ٦ ٪	٢٫٥

١٣٫٥ المجموع

الانتاج العام في الخليج بما فيه ايران يبلغ ما قيمته (٢١١٫٦) مليون طن مئتان واحد عشر مليون طن وستماية الف طن .

منتجون آخرون	
مصر	٣
تركيا	٠٫٣
فلسطين المحتلة	٠٫٠٧

ملحوظة : ان حصّة كولبنكيان الأرمني قد قُسّمت بين الشركات التي تؤلف شركة بترول العراق .

الخلاصة : الحصص موزّعة كما يلي :

مليون طن	
١١٩	الولايات المتحدة الاميركية
٦٩و١	بريطانيا
١٣و٥	فرنسا
١٠	هولندا
٢١١و٦	

الملحق الرابع

الانتاج البترولي منذ ١٩٤٦

بملايين الاطنان

السنة	العراق	العربية السعودية	الكويت	ايران
١٩٤٦	٤٫٧	٧٫٩	٠٫٨	١٩٫٢
١٩٤٧	٤٫٧	١١٫٨	٢٫٢	٢٠٫٢
١٩٤٨	٣٫٤	١٨٫٧	٦٫٣	٢٤٫٩
١٩٤٩	٤	٢٢٫٨	١٢٫٤	٢٦٫٨
١٩٥٠	٦٫٥	٢٦٫٢	١٧٫٣	٣١٫٧
١٩٥١	٨٫٣	٣٦٫٦	٢٨٫٢	٥
١٩٥٢	١٨٫٣	٣٩٫٩	٣٧٫٧	١٫٣
١٩٥٣	٢٧٫٧	٤٠٫٩	٤٣٫٣	١٫٣
١٩٥٤	٣٠	٤٦٫٢	٤٧٫٧	٣
١٩٥٥	٣٣٫٢	٤٧٫٥	٥٤٫٧	١٦
١٩٥٦	٣١٫١	٤٨٫٦	٥٥	٢٦٫٣
١٩٥٧	٢١٫٧	٤٩٫٥	٥٧٫٣	٣٥٫٣
١٩٥٨	٣٥٫٤	٥٠٫٦	٧٠٫١	٤١

تتمة الانتاج البترولي

منذ سنة ١٩٤٦
بملايين الاطنان

السنة	البحرين	قطر
١٩٤٦	١و١	—
١٩٤٧	١و٣	—
١٩٤٨	١و٥	—
١٩٤٩	١و٥	٠و١
١٩٥٠	١و٥	١و٦
١٩٥١	١و٥	٢و٣
١٩٥٢	١و٥	٣و٣
١٩٥٣	١و٥	٤
١٩٥٤	١و٥	٤و٨
١٩٥٥	١و٥	٥و٥
١٩٥٦	١و٥	٥و٩
١٩٥٧	١و٥	٦و٦
١٩٥٨	٢	٨

فهرس

مطابع دار الكشاف - بيروت

مصيرنا.. والذهب الأسود!

• هذا أول كتاب شامل يتناول تاريخ كل جزء من أجزاء هذا الخليج الأخضر، منذ أن طفت على مياهه الثائرة أول سفينة لصيد اللآلئ، إلى أن طفت على هذه المياه ناقلات البترول الضخمة!

• إن مناطق البترول المنتشرة على شطآن هذا الخليج تعيش اليوم عصرها الذهبي، قابضة بيديها الاثنتين على أضخم احتياطي للبترول في العالم، وقابضة بالتالي على مصير منطقتنا العربية، ومصير العالم بأسره، بما تثيره ثرواتها الهائلة من صراع خفي وظاهر بين أضخم القوى في العالم!

• وهذا الكتاب يتيح لنا نحن العرب، أن نفهم بوعي وعمق أوضاع خليجنا العربي التاريخية والحالية مما يجعلنا أقدر على التصدي لكل مؤامرة يحاول بها الاستعمار اختراق صفوفنا للحفاظ على مصالحه في بلادنا، وعلى الخصوص في مناطق الذهب الأسود!

الثمن ٣٥٠ ق.ل.

منشورات: المكتب التجاري - بيروت